الفكر اللغوى الجديد

* حسان، تمام .
* الفكر اللغوى الجديد
* تمام حسان .
* ط 1. – القاهرة : عالم الكتب؛ 2011 م
* 216 ص ؛ 24 سم
* تدمك : 977-232-818-6 * رقم الإيداع : 2011/1742
1- فقه اللغة العربية
أ – العنوان 410

عالم الكتب

* الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 23924626
فاكس : 0020223939027

* المكتبة :
38 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون: 23926401 – 23959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518

www.alamalkotob.com -- info@alamalkotob.com

الفكر اللغوى الجديد

أ . د/ تمام حسان

عالم الكتب

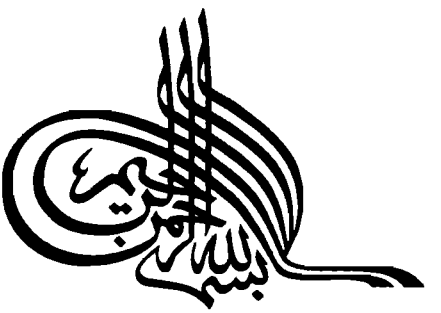
بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقدمة	٩
بين المعنى والوظيفة	١٠
الفكر اللغوى الجديد	١١
درجات سلم البحث	٢٧
اكتساب السليقة العربية من خلال التعليم فى ضوء الدراسات الحديثة	٣٩
المعجم التاريخى البنية وطريقة التحضير	٦٥
المصطلح النقدى بين العرفية والارتجال	٧١
أثر قرينة السياق فى إزالة تعدد احتمالات الإعراب فى النص القرآنى	١٣١
الفرق بين اللبس واحتمالات وجوه المعنى	١٣٥
من الظواهر الهامشية فى النظام النحوى	١٤٣
الدلالة اللغوية بين الإفراد المعجمى والتنوع السياقى	١٥٩
إجراءات صرفية لتقلب التاء	١٧٧
اللهجات العامية واللغات الأجنبية فى التعليم والمجتمع	١٨٣
حول مجالى الصرف والعروض	١٩٣
دابة الأرض	١٩٩
تعليم اللغة العربية فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة	٢٠٣

مقدمة

لم نجد إحدى اللغات عناية ترتكز على الدين كما وجدت العربية هذه العناية فالاهتمام بالمحافظة على النص القرآن من عدة اتجاهات كانت من أهم أسباب المحافظة على هذا النص من حيث الدلالة التركيبية والمعجمية والأسلوبية وما وراء ذلك كله من النظرة الذوقية والتضافرية التى فرضت على فهم النص القرآنى عبارة تقول: القرآن يفسر بعضه بعضًا وقد اعترف بها علم النص ووضعها فى إطار "قرينة السياق".

ومع هذا القدر من الاهتمام اختزن القرآن فى دلالاته من الأمور ما يدعو إلى مزيد من العناية بالنظر فى دلالات أعمق مما تنبه له العلماء فى القرون الأربع عشرة السابقة وقد اشتملت هذه الدلالات على نتائج من أنواع مختلفة تناولت حروف المعانى وعلاقاتها والصيغ الصرفية وتكويناتها والبنية النحوية وإشاراتها، كما تناول النظر إلى مقاصد السياق العام. وقد انعكست العناية بكل ذلك على أمور اجتماعية لا سبيل إلى إهمال النظر إلى أنواعها مما تناولته جهود العلوم اللغوية المختلفة.

هذا التراث الذى تركه السلف على حسن تناوله لم يكن كافيًا لإعطاء القرآن حقه من التأمل ومن السعى إلى الغوص فى الدرس والوصول إلى ومضات من المعانى لم يصل إليها جهد السلف، وهدى الله عباده الباحثين فى الجديد من التقدم العلمى أن يجدّوا فى البحث عن مطالب النص بعد أن زعم السلف أنه استوفى حقه من العناية. وهذا الكتاب محاولة متواضعة للبحث فى هذا الاتجاه.

اختلاف المعنى والوظيفة

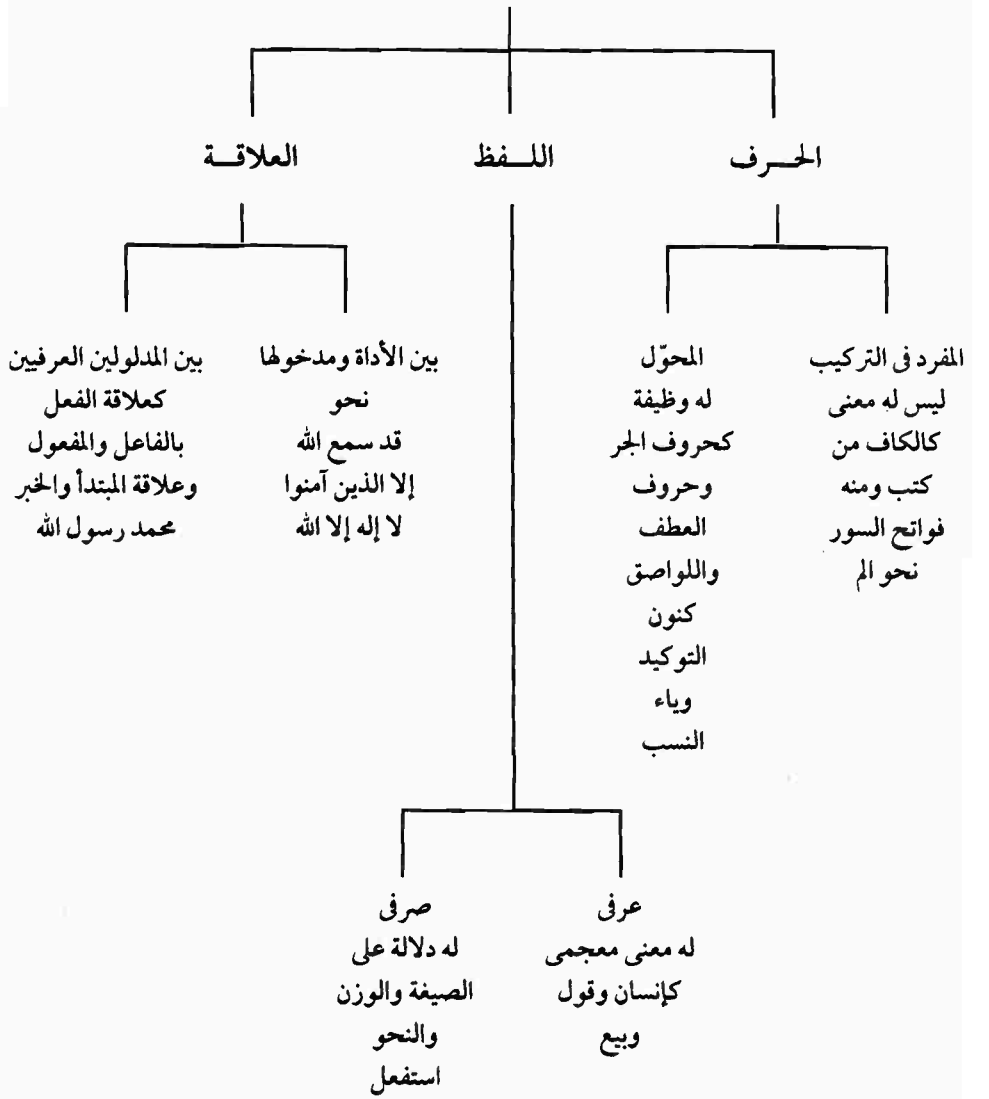

الفكر اللغوى الجديد

اللغة لفظ ومعنى، ولكل من اللفظ والمعنى نموه وتطوره، على نحو تراكمى حينًا وعلى نحو تجددى حينًا آخر عبر توالى الأزمنة. ولقد كان الإنسان مصدرًا لهذا التراكم وذلك التجدد، وكان من طبيعة علاقة ذلك باللغة أن يصيب اللغة فى كل العصور سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى قدر من التغير إيجابًا أو سلبًا. وكان الفكر الجديد فى الحالين إما أثرًا من آثار التحول التراثى الذاتى، وإما غاية من غايات التفكير الإنسان، إذ إن هذا التفكير هو مصدر الفكر اللغوى الجديد، وهو موضوع هذا البحث. ومن المقبول طبعًا أن يكون الفكر اللغوى المقصود بما نقوله هنا منصبًّا فى معظمه على تاريخ اللغة العربية لا ينحرف عنه إلا لسبب يدعو إلى الانحراف على نحو ما نراه فى تناول بعض الظروف التى سيأتى ذكرها فى موضوع هذا الفكر اللغوى الجديد.

دعنا نحدد نقطة التحول من القديم إلى الجديد فى الفكر اللغوى العربى بما كان من عودة المبعوثين الذين أرسلهم محمد على باشا إلى باريس أثناء استقلاله بحكم مصر، وما كان لهؤلاء المبعوثين من أثر فى نقل بعض صور النشاط العلمى والفنى إلى مصر، ثم ما كان لذلك من أثر فى ترجمة العلوم إلى العربية، وفى ارتجال الفكر على حد سواء. كانت تركة التراث عند هذا الحد تتمثل فى الثروة التى يحافظ عليها الأزهر الشريف من مأثور العلوم الإنسانية والدينية. ولهذا ستكون طريقة العرض

فى هذا البحث انتقالًا مكررًا من وصف الظاهرة اللغوية كما كانت جزءًا من التفكير التراثى، إلى وصفها بعد أن أصابها قدرٌ من التحول إلى فكر لغوى جديد.

دلالة الصوت اللغوى:

ليس للصوت اللغوى فى ذاته دلالة، فلا يقال مثلًا: إن معنى القاف يثير فى النفس الشجاعة والعزة، وهو يختلف عن مدلول الكاف. غير أن الصوت اللغوى قد يسخر فى العرف اللغوى للدلالة على مفهوم فى علم الصرف يعبر عن وظيفة فى موقع ما، كحروف المضارعة وواو الجماعة وغيرها من اللواصق. أو على مفهوم فى علم النحو للدلالة على علاقة رابطة بين عناصر السياق كحروف العطف أو الاستثناء أو أدوات الجمل.. ولم يفرق النحويون من السلف بين وظيفة اللواصق وعلاقة الروابط كما نفرق نحن الآن بينهما فى الفكر اللغوى الجديد، إذ نرى فى الإلصاق دليلًا على الوظيفة الصرفية، ونرى فى التعليق وسيلة للربط النحوى بين عناصر السياق.

ورث الأزهر هذا التراث على نحو معيارى لا يسمح إلا نادرًا بتغير الدلالة، ولا يأذن بتغير معنى الحرف إلا فى حالات خاصة مثل استعمال واو الجماعة لتعظيم الفرد المخاطب (إلا أن يكون المخاطب هو لفظ الجلالة)، أو أن تستعمل الكاف للدلالة على السببية كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾. أما فى الفكر الجديد فقد كشف العلم عن وظائف للأصوات مفردة كانت أم مركبة، ولم يكن لهذه الوظائف موضع فى أفكار السلف، وبخاصة إذا كان الصوت أو كانت الأداة عرضة لتعدد احتمالات المعنى أو للنقل بحسب الأسلوب، كما يلى من الشواهد:

* المعروف فى قواعد اللغة أن حرف الكاف يستعمل فى إفهام معنى التشبيه، غير أننا نلاحظ أن السياق قد يعطى الكاف معنى غير ذلك ليدل على المجازة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤).

* يمكن استعمال "ما" عند قصد الموصولية كما فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ

﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: ٣٣) أى من الذى يدعوننى إليه، كما يمكن استعمالها للنفى، نحو: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾. فإذا نظرنا إلى "ما" فى قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ (يس: ٣٥) وجدنا أنه يمكن أن تكون "ما" موصولة أى من الذى عملته أيديهم أو "نافية" أى ولم تعمله أيديهم. غير أن فى الآية قرينة على إرادة النفى هى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالمرء إن أعد طعامه بنفسه فلا يشكر نفسه على ما قدم لنفسه.

* ويشبه ذلك ما فى الآية التاسعة والستين من سورة يس أيضًا وهى كما يلى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ إذ يمكن للضمير فى "له" أن يعود على النبى * فيكون المقصود هو "وما ينبغى للنبى أن يتعلم الشعر" أو أن يعود الضمير المذكور على الشعر فيكون المراد "وما علمناه ما ينبغى أن يكون من توابع الشعر". والمعنى واضح على الفهم الأول، ولولا وضوح المعنى للزم أن يقال: "ولا ينبغى له"، فيعود الضمير على النبى فقط، لأن ما ينبغى لتعلم الشعر هو علم العروض، ولم يكن هذا العلم معروفًا عند نزول القرآن.

* أو ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ١-٣) أى لكن تذكرة لمن يخشى. فليس القرآن وسيلة لفرض الشقاء على النبى، ولكنه وسيلة للتذكير بتقوى الله.

* أو ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ١٠) بضم الهاء من "عليه" وذلك للحفاظ على تفخيم اللام من لفظ الجلالة. أما قوله: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ (الكهف: ٦٣) فهو دليل الارتباك والاعتذار. ولذلك جاء تفسير الهاء بقوله: ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ وهو يقصد أن أحضره.

* ومثل ذلك ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (الشمس: ٦) تحولت الدال من لفظ "دحاها" فى قوله جل شأنه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ إلى طاء مفخمة لتأكيد القسم بواسطة التفخيم.

وربما خلا موقع الحرف فى السياق فقيل إن الحرف محذوف فى هذا الموقع. ومن

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾(التوبة: ٩٢). فالحرف المحذوف فى أحد الموضعين أو كليهما هو الفاء، فإما أن نقدر الفاء قبل "قلت" وإما أن نقدرها قبل "تولوا" أو أن نقدرها فى الموضعين كليهما، ولم تسبق الإشارة إلى تعدد هذه الاحتمالات فيما أعلم.

ومن قواعد الحذف أيضًا أن الفعل الذى يتعدى إلى مفعول به إذا دل بلفظه على مفعوله فإن هذا المفعول يصلح للحذف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ (النجم: ٤٣) وقوله جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(أى القطيع) ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾(أى القطيع أيضًا) ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى ﴾(الغنم) ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾(أغنامهم) ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾وأبونا شيخ كبير فسقى لهما (أى القطيع)" (القصص: ٢٣ -٢٤).

ومن الدلالات الصوتية فى القرآن الكريم ما نلاحظه من إدخال الهمز على الواو من لفظ "موصدة" فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى مقفلة إقفالًا تامًا. ويأتى ذلك اعتمادًا على أن نطق الهمزة إنما يتم بواسطة إقفال الأوتار الصوتية ليكون الإقفال هنا قرينة صوتية شبه تداولية على إقفال جهنم على من فيها بدلالة لفظ معجمى لا صوتى. ومن ذلك أيضًا تشابه الفواصل فى قوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾وما كان للفكر اللغوى الجديد أن يرفض هذه الأقوال التى ورثها عن السلف ولم يكن فيها ما يحول دون قبولها ودون صدقها، ولعل أكثر أصوات العربية قبولًا لتعدد احتمالات المعنى هو حرف الواو، بدليل الشواهد التالية:

* قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٤). فالواو التى بين الأعمى والأصم والأخرى التى بين

البصير والسميع تصلحان لعطف الصفة على الصفة كما تصلحان لعطف الموصوف على الموصوف، إلا أن الاحتمال الثانى يتعارض مع قوله: "هل يستويان" لاختلاف المثنى عن الجمع. ولذلك يكون نوع العطف صفة على صفة مع إمكان حذف واو العطف فى نحو ذلك دون تأثر المعنى كما تفهم عبارة "زيد كاتب شاعر". أما القول الآخر بعطف الموصوف على مثله فهو باطل لعدم المطابقة فى العدد.

* قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾ (الصافات: ١٠٣ - ١٠٤)، إذ يمكن أن يكون التقدير "فلما أسلما تله وناديناه" أو "فلما أسلما وتله ناديناه".

* قال تعالى فى سياق قدوم الذين كفروا إلى جهنم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ (الزمر: ٧١)، أى أن النار كانت مقفلة قبل وصولهم إليها بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾. أما بالنسبة للمؤمنين فقد قال جل شأنه عن وصولهم إلى الجنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣) أى أن أبواب الجنة كانت منفتحة أمامهم فيكون المعنى "جاءوها وقد فتحت أبوابها" والدليل على ذلك قول الله تعالى فى سياق آخر: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ (ص: ٥٠). وشواهد أخرى كثيرة لا مجال لذكرها.

الصيغة الصرفية.

ننتقل الآن إلى التعرض لتطور الفكر اللغوى فى فهم تقلبات الصيغة الصرفية والميزان الصرفى فى اللغة العربية كما عرفهما السلف، ثم ما رآه فيهما المحدثون أصحاب الفكر اللغوى الجديد. من المتبع فى البحث اللغوى أن اتجاه حركة الملاحظة فى تأمل الاستقراء الصرفى يختلف عن اتجاه نظيره النحوى، ومن ثم تكون العلاقة بينهما هى التقاطع، بمعنى أن الانتقال من صيغة صرفية إلى ما يليها فى مجموعتها فى الاشتقاق أو فى التصريف إنما يكون (رأسيًا) من أعلى إلى أسفل كما يلى:

أنا أضرب

نحن نضرب

أنت تضرب (أنت بفتح التاء).

أنت تضربين (أنت بكسر التاء).

أنتما تضربان

أنتم تضربون.... إلخ.

مما يمتنع فيه أن يوضع فى صورة سياق أفقى. وأن الانتقال من لفظ من ألفاظ الجملة النحوية إلى ما يصاحبه إنما يكون من اليمين إلى الشمال (أفقيًا) نحو: "أنت تضرب أخماسًا فى أسداس". أى أن النظرة الصرفية موقعية وأن النظرة النحوية سياقية. وأن العلاج الصرفى تصريفى والعلاج النحوى علائقى. لقد ألم النحاة العرب بذلك بتطبيقه ولم يتكلموا فى شأنه من الناحية النظرية. وظل هذا الأمر مسكوتًا عنه حتى تعلمناه فى الغرب تحت عنوانين هما: Synchroinc أى سياقى أفقى علائقى وdiachronic أى جدولى رأسى موقعى. فانتبهنا للفرق المهم بين الأمرين. ولاحظنا صدقهما فى نظام اللغة العربية.

وضع السلف للأسماء والصفات والأفعال (وهى المعروفة بالمشتقات) صورًا أصلية يسمى كل منها (أصل الوضع) يمكن أن يعدل عنها وأن يرد إلى صورتها الأصلية تبعًا لقواعد صاغها النحاة. وتتم كل درجة من درجات العدول بحسب قاعدة خاصة، فإذا تم الوصول إلى آخر الدرجات سميت النتيجة وزنًا للكلمة أو زنتها. أما صور العملية من أولها إلى آخرها فتعرف بلفظ "صيغة". وهناك أيضًا أصل الاشتقاق وأصوله ثلاثة تسمى فاء الكلمة وعينها ولامها، وقد تضاف إليها زوائد من الحروف يجمعها قولك "سألتمونيها". هذا ما استقل به النحاة وأصبح فكرًا لغويًا تقليديًا قديمًا. ونستطيع أن نضرب لذلك مثلًا كما يلى فى تصريف الفعل "لتبلون":

اللفظ: (لتبلوونن) (ضم الواو ومدها وفتح نون الرفع وتشديد نون التوكيد المشددة).

* تحذف نون الرفع لكراهية توالى الأمثال (طبقًا للقاعدة).

* يلتقى عندئذ ساكنان هما واو المد والعنصر الأول من نون التوكيد المشددة.

* تحذف واو المد بسبب التقاء الساكنين (طبقًا للقاعدة أيضًا) وتبقى الضمة على الواو بعد حذف المد.

* النتيجة: لتبلون بضم الواو وتشديد النون.

أصر الفكر اللغوى القديم على أن حروف الزيادة يجمعها قولك: "سألتمونيها"، ولم يعترف بظاهرة أخرى تأذن لكل حرف من حروف العربية أن يقع موقع الزوائد فى الصيغ الصرفية. ولقد سبق لى أن نبهت القارئ لكتابى "مناهج البحث فى اللغة" (١٩٥٥) ص٢١٧ تحت عنوان "وسائل خلق الرباع" إلى هذا الأمر وأوردت من الأنواع الزيادة عددًا من الأنماط المختلفة للزيادة منها المضعف وأنماطًا أخرى من الرباعى أيضًا حيث تظهر الزيادة فيها فى مواقع الأصول الثلاثة.

فالمضعف نحو:

لفل	نخنخ	فتفت
بصبص	رجرج	لمم
شمشم	كشكش	حكحك
حفحف		

وأمثلة أخرى غيرها. وأما الزيادة فى مواقع الأصول الثلاثة فكما يلى:

دحرج (زيادة الحاء) بعثر (بزيادة العين)

سقلب (زيادة السين) عربد (بزيادة الباء)

(لاحظ: والحرب فيها وترد عرد)

زغرد (بزيادة الزاى)

هذا الاتجاه جزء من فكر جديد.

مفردات المعجم:

نصل بعد ما سبق إلى المفردات المعجمية، وهى تمثل ثلاثة أنواع من أقسام الكلم هى: الأسماء والصفات والأفعال، ومن علاقات هذه الأنواع بعضها ببعض ينشأ نظام المعجم الذى تحكمه المناسبة والمفارقة بين المعانى. والملاحظ فى كل قسم من هذه الأقسام أن بين كل لفظ من ألفاظه وألفاظ الأقسام الأخرى إما مناسبة معجمية تسمح بورودهما معًا، وإما مفارقة معجمية تحول دون وجود علاقة نحوية بينهما فى الكلام. هذه المناسبة وتلك المفارقة كانتا موضع تفكير من النحاة والبلاغيين على حد سواء. ظهر ذلك النوع فى الفكر النحوى فى عبارة مأثورة كقولهم: "لا يضاف الشىء إلى ما فى معناه، ولا يخبر عن الشىء بلفظه" ولدى البلاغين فى عبارات من قبيل قولهم: "إسناد اللفظ إلى من هو له" أو "إسناد اللفظ إلى غير من هو له". كما كان لغير هؤلاء وأولئك من السلف شعارات تشبه ذلك وتظل عامة غير مفصلة مثل قول المفسرين: "القرآن يفسر بعضه بعضًا" وكلام النقاد عن "ظلال المعانى" ونحو ذلك. وكان من نتائج هذا العموم فى دلالة هذه العبارات على ندرة تطبيق هذه الشعارات القيمة (انظر تفسير الشنقيطى المسمى أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن مثلًا) ولم يأت التطبيق إلا فى أساليب علم البيان التى تبنى هذه المفاهيم على مبدأ نقل المعنى. فكان لا مفر من انتظار أن يجود الزمان بمن يعثر لهذه المبادئ على التطبيق الأمنى.

ولم يبخل الزمان بظهور أجيال هنا وهناك فى أرض الله الواسعة لتعمل على تطبيق هذه الأفكار القيمة، إما فى حقل الاستعمال وإما فى حقل التنظير. فمن قبيل الاستعمال أن يظهر الفكر الجديد فى تطوير طرق الاتصال بواسطة اللغة من المشافهة إلى مختلف الوسائل الأخرى، ومن قبيل التنظير القول بأن رفض الإخبار عن الشىء بلفظه لا يحول دون التأويل ودون تطبيقه على تراكيب مثل قولنا: الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان، فنرى أن العبارة توحى بمعنى سليم. فالمبتدأ فى العبارة إقليم جغرافى والخبر عادات وتقاليد، أى أن الإخبار هنا لم يكن بذات المبتدأ عن ذاته.

وأما الشعار العظيم الذى يقول: إن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فإن معناه أوسع مما يشير إليه لفظه، فهو يصدق على النصوص بكل صورها. فلقد كانت نشأة علم لغة النص بما يشتمل عليه من معايير نصية منها القصد والقبول والإعلامية والتناص نعمة أنعم الله بها على أفهام البشر، وبخاصة مبدأ معيار السياقين: سياق النص وسياق الموقف. وإذا أذن لى السادة العلماء السامعون أن أسوق بعض الشواهد التى تدل على صدق ما أقوله فإنى سأورد الشواهد المذكورة من القرآن الكريم، لا لأطعن فى موقف المفسرين الذين اجتهدوا قدر طاقتهم حتى وصلوا إلى ما أتاحه لهم عصرهم، ولكن لأبين أن القرآن الكريم لا يزال يتطلب المزيد من الفهم ومن الفكر اللغوى الجديد. وفيما يلى بعض الشواهد:

* قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (يوسف: ٢٣-٢٨).

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ تكريم ليوسف، من خلال تجاهل علاقة تبعيته لها، وامتهان لها؛ لأنه لم يقل "سيدته".

قوله: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ يقصد "سيدى" أى العزيز. والدليل أن العزيز قال لامرأته: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وأن يوسف استشهد بذلك عندما دعى لمقابلة الملك، وذلك بقوله عن العزيز: ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

قوله: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أى: أحس بوجود سيده العزيز أمام البيت حتى إنهما وجداه عند نهاية استباق الباب بدليل ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾.

قوله: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. هو تحريض للعزيز ضد يوسف وتبرئة لنفسها.

قوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ هو العزيز وكانت شهادته فى صورة تفكير صامت وسبر وتقسيم على نحو ما رأينا من قوله: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ ... إلخ ﴾.

* والشاهد الآخر من سورة القصص، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فلفظ "تصطلون" يدل على أن الرحلة كانت فى الشتاء؛ لأن الناس لا يصطلون فى الصيف ولم يذكر أحد من السلف هذه الملاحظة فيما أعلم.

* والشاهد الثالث يجمع بين سورتى هود والتحريم.

يقول الله تعالى فى سورة هود (٤٢-٤٨): ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

* وقال فى سورة التحريم (١٠): ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ

﴿شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. انظر إلى دلالة الألفاظ الآتية وحاول أن تستخلص المعنى (أو على الأصح: ظل المعنى) مما يلى:

* فخانتاهما. (ما المقصود بالخيانة؟)

* ليس من أهلك. (ما معنى هذا؟)

* إنه عمل غير صالح. (وما المقصود بذلك؟)

* فلا تسألن ما ليس لك به علم. (ما الذى يجهله نوح؟)

* إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. (ما معنى هذا التحذير؟).

يبدو أن نوحًا لم يكن يعلم بمحتوى قوله تعالى: "فخانتاهما حتى أخبره الله سبحانه بما رود فى سورة هود من المصارحات التى لم يكن لنوح علم بها". والله سبحانه يقول: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(المائدة: ١٠١).

ومن ذلك أيضًا مثالان آخران لاختيار اللفظ المناسب والعزوف عن استعمال غيره الذى ورد فى سياق آخر مماثل كما يلى:

السياق الأول: قوله تعالى:

* ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(الأنعام: ١٥١)

* ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٢١).

لاحظ أن الإملاق فى الآية الأولى واقع فعلا على الآباء، ومن ثم وعدهم الله بالرزق لهم لا لأبنائهم، وأن حدوث الإملاق لا يتحقق فى الشاهد الثانى إلا ببلوغ الأبناء الصغار، إذ جاء الوعد برزق الأبناء بعد بلوغهم.

السياق الثانى: قوله تعالى:

* ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾.

لاحظ هنا كيف كان العمل المنسوب إلى لفظ الجلالة من قبيل الفعل فى حق الرجل ومن قبيل الخلق فى حق المرأة بسبب المناسبة المعجمية فى اختيار اللفظ. وهذا النوع من الملاحظات ينتمى إلى الفكر اللغوى الجديد.

ومن ذلك أن تتوالى الجملتان أولاهما عامة المعنى والأخرى مفسرة لها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾؛أى: وأحرص على الحياة من الذين أشركوا. ثم يأتى تفسير هذا الحرص بقوله جل شأنه: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(البقرة:٩٦). فليس المراد أن الحرص بسبب الجبن.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فما بعد لفظ "الصمد" تفسير لمعناه. فالصمد هو الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ولقد سبق أن ذكرنا أن من الفكر اللغوى ما ردده علماء السلف على صورته المجملة ولم يحاولوا أن يمنحوه دراسة مفصلة إلا فى بعض ظواهر علم البيان عندما تكلموا عن ظاهرة النقل ووجه الشبه ولازم المعنى ونحو ذلك مما تقدم به علماء أصول النحو ونقاد الشعر فى هذا المجال. أما الجديد فى دراسة الفكر اللغوى فهو البناء على ما تركه الأقدمون وتوسيع الأفق فى هذا المجال على نحو ما نسوق لذلك من عدد من الشواهد. ومن هذه الشواهد ما يلى من أنواع الظلال:

١ - السؤال الوارد:

قال تعالى فى شأن يوم الحساب: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

السؤال هو: كيف ذلك واليوم يوم حساب؟ وهذا هو ظل المعنى وهو يتطلب الإجابة.

والجواب هو ما يأتى بعد ذلك مباشرة من قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. وحين ورد هذا المعنى مرة أخرى فى سورة القصص (٧٨) بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: اشتملت إحدى الآيتين على تفسير الأخرى بطريق التناص.

٢- ظل الاستفهام الإنكارى جملة مثبتة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾؟

أى لقد وجدك يتيما فآوى.

٣- مدلول المخالفة:

قال تعالى: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾(هود: ٦٢)

أى لم تعد مرجوا كما كنت.

٤ - دلالة الحذف:

- ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١-٣)

حذف لفظ "أفعل" من "ما الحاقة" والعبارة للتعجب بدليل ما بعدها من قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ أى وما أعظم درايتك بها بحكم ما جاءك فى شأنها من الوحى وما بلغك من أشراطها. ثم إن فى الحديث الشريف ما يشبه ذلك الحذف كما فى حديث أم زرع إذ تقول: "زوجى أبوزرع وما أبو زرع".

٥- قد يكون التعجب ظلا للاستفهام:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(الرعد: ٣٢).

أى ما أشد ما كان عقاب!

٦- قد يكون الشرط ظلا للخبر:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(البقرة: ٢٧٤).

هذه جملة خبرية أشربت معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء. أى أن الشرط هنا من ظلال المعنى.

٧- قد يكون الأمر ظلا للخبر:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)

أى على المطلقات أن يتربصن.

٨- قد يكون الدعاء ظلا للخبر:

﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾(البقرة: ١٠)

أى اللهم زدهم مرضا!

٩- قد يكون العرض ظلا للخبر:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾(هود: ٧٨).

١٠- قد يكون الالتزام ظلا للخبر:

"سمعًا وطاعة"!

١١- قد يأتى التعجب ظلا للخبر:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾!

١٢- قد يأتى التعميم ظلا للخبر:

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ﴾!

١٣- قد يأتى التعجب ظلا للشرط:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾(الرعد: ٥).

١٤- قد يأتى السبر والتقسيم ظلا للشرط:

﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾.

١٥- قد يكون التمنى ظلا للشرط:

﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾!

١٦- قد تكون التسوية ظلا للشرط:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

١٧ - قد يأتى لتعجب ظلا للنداء:

﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾!

١٨ - قد تأتى الندبة ظلا للنداء:

﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾!

١٩ - قد يأتى الاختصاص ظلا للنداء:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (الواقعة: ١٥ - ٥٢).

٢٠ - قد يأتى التمنى ظلا للنداء:

﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾!

على الرغم من أن الشواهد التى اشتمل عليها هذا العرض مأخوذة من النص القرآنى الكريم، فلا يمكن أن يكون من العسير على أحد أن يطلع عليها، أقول: على رغم ذلك لم ير السلف من العلماء ما يؤلف بينها ويجمعها تحت عنوان واحد هم واضعوه ومستعملوه وهو "ظلال المعانى"، فتناولوها مفرقة لا يجمع بينها نظام، ولكن الفكر اللغوى الجديد وفق بينها كما يبدو هنا.

هذا ما استطاع الفكر اللغوى أن يصل إليه، وهناك أنواع أخرى من الفكر الجديد تنتمى إلى حقول علمية أخرى يزخر كل منها بما أنجزه من المصطلحات والآراء والرؤى فكان لهذه الأفكار فضلها الذى لا ينكر على حقل اللغة أيضًا.

درجات سلم البحث فى نظام اللغة

للبحث فى نظام اللغة درجات منتظمة فى رتبة محفوظة لا يمكن تجاهلها؛ لأن كل درجة منها تبدأ من حيث انتهت سابقتها، غير أن أولى هذه الدرجات (وهى درس الأصوات اللغوية) لا يسبقها إلا إدراك المسموع من الكلام بلغة ما قد يجهلها السامع الذى يريد القيام بمشروع الدرس، فنحن ندرك بالسمع ما لا نعرف معناه من الأصوات فلا ندرى ما يقصده المتكلم بما يقول، وعندما نفهم ما يقال بأى لغة لا يتعلق الفهم بمفردات الأصوات، وإنما يتعلق بالجمل ذوات المعانى، ومع ذلك لا نصل إلى هذا الفهم إلا من خلال ما تحمله من دلالات دراسة أنظمة هذه الأصوات بواسطة منهج يتناول ما نسمع بواسطة نظام الأصوات لا من خلال مفردات الأصوات. إن أول خطوة لدراسة لغة ما هى، تناول أصوات هذه اللغة بالدرس، ويتطلب ذلك ثلاثة تمهيدات بدراسة أصوات اللغة وهى ذات أجهزة ثلاثة كما يلى:

١. الجهاز النطقى: وهو دراسة عضوية تتناول أعضاء النطق للكشف عن المخارج والصفات وحركات هذا الجهاز مع ما يتبع ذلك من دلالات استعمال الحنك الصناعى palatography.

٢. الجهاز الصوتى: بدراسة صوتية تتناول موجات الأصوات التى تنتقل بين

المتكلم والسامع تناولًا تركيبيًّا، ولكن هناك إجراءات صوتية أخرى تستعمل لأغراض تركيبية، منها مثلًا درجة الصوت والجهر والهمس والخفة والثقل والإدغام والإعلال وفروعه والمد والقلقلة... إلخ.

٣. الجهاز السمعى: بدراسة سمعية تتناول مقدار استعداد الأذن للسماع.

ولقد وصفت هذه العمليات الثلاث المكونة لمفهوم phonetics بأنها أجهزة؛ لأنها مجموعة أدوات وعمليات تنتهى إلى وسيلة للتفكير فى نظام الصوتيات Phonology. فدراسة الأصوات بوسائلها الثلاث مسخرة فى طلب الوصول إلى تيسير دراسة لنظام الصوتيات ومع كونها تمهيدًا لا بد منه لإنشاء نظام للصوتيات لا يمكن احتسابها واحدة من أنظمة اللغة، ومن الواضح فى الدرس اللغوى أن أكثر الأنواع السابقة أهمية هو النوع الأول (الدراسة العضوية)، ويليها النوع الثانى، وأقلها وضوحًا وتطورًا هو النوع الثالث.

وقد تمكن الدارسون باستعمال النوعين الأولين من أن يضعوا أصوات اللغة المدروسة فى صورة جدول يوضح مخارج الأصوات وصفاتها ثم يتبينوا من هذا الجدول ومن سماع اللغة وهى فى حالة نطق أن الأصوات المتقاربة المخارج أو الصفات قد تتجاور فى الكلام فيؤدى تجاورها إلى تجاور أصول المخرج أو الصفة فتتحول صورة الصوت عن أصلها إلى فرع أو أكثر، وبذلك اصطلحوا للدلالة على الأصل لفظ phoneme وللفرع (أو الفروع) لفظ allophone. مثال ذلك فى اللغة العربية ما يلى:

مثال الأصل النون فى أنا

ولعل أوضح ما يمثلها فى نظام اللغة العربية وحدات النظام الإملائى التى يرمز لها برموز وحدات هذا النظام الإملائى.

مثال الفرع (أو الفروع) النون فى ينفع
النون فى ينبغى
النون فى من سعى

النون فى	من رأى
النون فى	ينجح
النون فى	ينظر
النون فى	ينكر
النون فى	ينقل

هذه هى الخطوة الأولى فى علم الصوتيات (أى فى دراسة نظام من أنظمة اللغة). ويتبين منها أن مخرج الصوت أو صفته عرضة للتأثر بتقلبات الكلام، وأن هذه التقلبات تحكمها مجموعة من العلاقات التى تبدو فى صورة نظام يسمى النظام الصوتى ويدرسه علم يسمى "علم الصوتيات" phonology ويسميه قراء القرآن "علم التجويد" ويدرس النحاة بواسطته ما يسمونه: "طلب الخفة".

إن مبدأ طلب الخفة ليس بعيدًا عن ما ذكرناه منذ قليل عن فكرة الفونيم وما يتفرع عنه من الألوفونات، فلا شك فى أن تحول النون فى "ينبغى" (بحيث تنقلب النون إلى ميم لمناسبة ما يليها من نطق الباء) وما يرد بعد ذلك من أمثلة الألوفونات الأخرى إنما كان لطلب الخفة فى النطق. ولكن مصطلحات طلب الخفة لدى النحاة تختلف عن مصطلح الفونيم والألوفون، فالفونيم عند النحاة يسمى "الأصل" وأما الألوفونات فيقابلها عند النحاة عدد من المصطلحات منها: الإدغام والإعلال والإبدال والقلب والنقل والحذف إلخ، مما يخصص لكل ألوفون ما يشير إلى وسيلة إجرائه وما إذا كانت هذه الوسيلة مخرجًا معينًا أو صفة ما. مثال ذلك أن ما حدث فى "يمبغى" إنما هو القلب؛ لأن النون فى الأصل قلبت ميمًا.

هذه الإجراءات التى ترمى إلى طلب الخفة جزء من نظام اللغة، وإن كان الغرض منها أسلوبيًّا لا تركيبيًّا. ولذلك تعلق طلب الخفة بالزوائد واللواصق ولم يتعلق بحروف المعانى التى تستقل بالدلالة على معان خاصة، وبيان الأنواع الثلاثة كما يلى:

* الزوائد، ومعظمها يصحب أصول الاشتقاق فى المشتقات كألف فاعل وواو مفعول أى أن لها قيمة صرفية ولكنها لا تستقل بمعنى ما.

* واللواصق أجزاء من مبانٍ صرفية أو نحوية ولها معان تنسب إليها كالتثنية والجمع والمضارعة والمطاوعة إلخ. ولكنها تظل (أى اللواصق) جزءًا من لفظ مفرد.

* حروف المعانى: وهى من أقسام الكلم فتستقل بمعنى وظيفى وتعد من الأدوات ووسائل الربط بين أجزاء النص.

وهناك أمر فى غاية الأهمية لا بد من الإشارة إليه عند هذا الحد، وذلك أننا لو نسبنا المعنى الذى ترتب على إلحاق أحد النوعين الأولين من الحروف (الزوائد واللواصق) إلى ما ألحق بالصيغة من هذين النوعين فسوف يكون ذلك من قبيل التوسع، وإنما ينبغى أن ينسب المعنى هنا إلى صيغة الكلمة المفردة كلها وفيها الزائد واللاصق.

***

.. وكما انتفعت الصوتيات بتركة الأصوات انتفع الصرف بتركة الصوتيات فى مجال المبانى الأولية لعلم الصرف وهى الصيغ وتغيراتها، وأن وسائل التغيرات المذكورة إنما هى الزوائد واللواصق. أما القسم الثالث من الحروف فهو من أقساط الكلم، أى أن له وجودًا إفراديًّا بوصفه جزءًا لا يتجزأ من أقسام الكلم، وسوف يتضح لنا ذلك عند تناول نظام النحو. والوظيفة الكبرى لعلم الصرف هى "التصريف"، وهو مجموعة من الإجراءات يكشف بواسطتها عن مجموع التحولات التى تتم للانتقال من الأصل إلى الفرع.

ولعل من أهم ما يلفت الانتباه فى نظام الصرف هو أقسام الكلم، وهى أهم ما يقدمه الصرف إلى النحو، ويقدم النظام الصرفى عددًا من الرؤى والدراسات التى يسخرها لإيضاح التقلبات التى تخضع لها هذه الأقسام من حيث أصل الوضع ومن

حيث أصل الاشتقاق ومن حيث معانى الصيغ المجردة. ومعظم الوسائل المستعلمة فى كل ذلك مأخوذ مما قدمه نظام الصوتيات لنظام الصرف. فأما من حيث أصل الوضع فإما أن يستصحب الأصل (أى يبقى على حاله) وإما أن يعدل به عن صورته بواسطة أحد الإجراءات المأخوذة عن الصوتيات (أى الإدغام والإعلال إلخ)، فإذا كان معدولًا به رد إلى أصله بقاعدة من قواعد الرد. مثال ذلك أن لفظ الفعل "ضرب" مستصحب فلا يحتاج إلى تدخل فى شأنه، أما الفعل "قال" فإن أصل وضعه "قول" بفتحات ثلاث. فقاعدة الرد تقول: (تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا، والقلب (كما رأينا من قبل) عضو فى أسرة طلب الخفة (الإدغام والإعلال إلخ).

ويمكن الوصول إلى معرفة ما إذا كان الأصل مستصحبًا أو معدولًا به عن طريق أصل الاشتقاق. فالمعروف أن الاشتقاق يعترف بأصول ثلاثة للفظ هى فاء الكلمة وعينها ولامها، وأن هذه الأصول تظهر فى مشتقات كل مادة اشتقاق؟ فإذا أردنا أن نعرف ما إذا كان أحد أصول الكلمة الثلاثة قد عدل به عن أصله، وما الصوت الذى عدل به إليه كان علينا أن نستعرض مشتقات المادة لنجد الأصل الذى أخفاه العدول. فمثلًا بالنسبة للفعل "قال" يمكن أن نجد الدليل على الأصل المنقلب ألفًا عندما يظهر لنا فى بعض مشتقات المادة مثل قول وأقوال وقوال إلخ. عندئذ نقول: "تحركت الواو" فى "قول" وانفتح ما قبلها فقلبت الواو ألفًا فصار اللفظ "قال".

نصل الآن إلى المعانى الصرفية وطبيعتها، المعروف أن للمعنى أقسامًا يختلف كل منها عن غيره فى الفهم على النحو التالى:

* المعنى الوظيفى.
* المعنى المعجمى.
* المعنى الدلالى.

فالمعنى الوظيفى يستمد من مقاصد حروف الزيادة التى تلحق بأقسام الكلم لبيان كل قسم منها كما فى قول ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

بتا فعلت وأتت ويا افعلى ونون أقبلن فعل ينجلى

فهذه وظائف تؤديها العلامات والمعنى هنا وظيفى عبر عنه ابن مالك بلفظى: "تمييز" و"ينجلى". ولا يقصد بها فى البيتين إلا ذلك حتى لو أريد بهما غير ذلك فى سياق آخر. ولا يزال المعنى الوظيفى يصعد فى بيان الوظائف حتى يرقى إلى بيان معنى القرائن النحوية ودلالاتها كالتضام والرتبة والربط إلخ، بل إن المعنى الوظيفى يتحقق أحيانًا فى دلالات غير لفظية كما فى قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ (الرحمن: ٤١)؛ أى: (علاماتهم وهى التعفف وعدم الإلحاف فى السؤال) بعد قوله جل شأنه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩). فقد أدى مضمون لفظ "سيماهم" وظيفة المعنى عند عدم السؤال عن ذكر الذنب.

* * *

وهكذا نصل إلى النظر فى طبيعة النظام النحوى. إن إلقاء نظرة إلى ما سجله كتاب اللغة العربية – معناها ومبناها من وصف النظام النحوى للغة العربية يغنينا عن إعادة بذل الجهود فى محاولة الوصف. وفيما يلى تلخيص لما اشتمل عليه الكتاب المذكور:

ينبنى النظام النحوى للغة العربية الفصحى على الأسس التالية:

١. طائفة من المعانى النحوية العامة التى يسمونها معانى الجمل والأساليب كالخبر والإنشاء إلخ.

٢. مجموعة من المعانى النحوية الخاصة أو معانى الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة إلخ.

٣. مجموعة من العلاقات التى تربط بين المعانى الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها. وذلك كعلاقة الإسناد والتخصيص (وتحتها فروع) والنسبة (وتحتها فروع) والتبعية (وتحتها فروع) وهذه العلاقات فى الحقيقة قرائن معنوية تدل على معانى الأبواب الخاصة كالفاعلية والمفعولية.

٤. ما يقدمه علما الصوتيات والصرف لعلم النحو من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومبانى التقسيم ومبانى التصريف وما اصطلحنا على تسميته مبانى القرائن النحوية.

٥. القيم الخلافية والفروق والمقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده.

٦. اتخاذ القرائن اللفظية من عطاء الصوتيات والصرف والقرائن المعنوية من العلاقات النحوية بين عناصر السياق النحوى.

وهكذا وصلنا إلى مجموع ما يشتمل عليه نظام اللغة من وسائل استيعاب المعنى الوظيفى فى اللغة. وأحب أن أشير هنا إلى أن تحقق كل مستويات المعنى الوظيفى لا تعنى أن العبارة التى اشتملت على جميع المعانى الوظيفية لم تصل بعد إلى مستوى الإفادة، وأن الوصول إلى الإفادة ما زال يتطلب المعنى المعجمى أولًا. ودلالات السياق والموقف ثانيًا. دعنا إذن نقدم ما يدل على افتقاد الإفادة مع وجود أنواع المعانى الوظيفية المختلفة، لقد صغت كلامًا لا معنى له وقد تحقق فى صياغته كل المعانى الوظيفية وأوردت من هذا الكلام تحت عنوان منهج النحو فى كتابى "مناهج البحث فى اللغة" (ص٢٢٧) ما جعله دليلًا على صدق ما أقول. فمن شاء فلينظر هذا الكلام. وهذا هو نص الكلام المقصود:

"حنكف المستعص بسقاحته فى الكمظ فعند التران تعنيذا خسيلا فلما اصطقف التران وتحنكف شقله المستعص بحشلة فانحكز سحيلا سحيلا حتى خزب".

من مظاهر طلب الخفة هنا ما يلى:

* نطق نون حنكف فى مخرج الكاف.

* إدغام المثلين (الصاد المشددة) فى كلمة المستعص.

* قلب تاء الافتعال فى اصطقف إلى طاء لمجيئها بعد الصاد.

* اشتمال "انحكز" على نون المطاوعة.

وفيه فوق ذلك كلمات بموازين صرفية وجمل بعلاقات نحوية تجعل من الممكن إعراب هذا الكلام.

وسنعرض هنا ما يشتمل عليه نظام المعجم من مفردات تتوزعها حقول معجمية بين ألفاظ كل منها وبين ألفاظ الآخر إما مناسبة وإما مفارقة. فاللفظ يرد مع من هو له من ألفاظ المعجم ويتنافى مع غير من هو له كما يقول البيانيون، وإذا كان اعتماد المعنى الوظيفى على إدراك القصد فإن اعتماد المعنى المعجمى إنما هو على العرف. وقد يتعدد المعنى المعجمى للفظ الواحد فيسمى اللفظ مشتركًا لفظيًّا، وقد ينقل معى اللفظ فيكون استعماله مجازًا. والمعروف أن المعجم تتوزعه حقول للمعنى، وأن علاقة اللفظ باللفظ قد تتسم بالمناسبة المعجمية بين اللفظين كما فى قولك: "السماء فوقنا"، وقد تتسم بالمفارقة المعجمية كما لو قلت: "السماء تحتنا". ففى حال المفارقة إما أن تنتفى الإفادة تمامًا كما فى المثال السابق، وإما أن تنبنى الجملة على علاقة وقرينة فيكون الكلام مفيدًا كما فى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: ١٦).

فمن الواضح أن المقصود هنا هو (الذين استبدلوا الضلالة بالهدى)، وأن بين الشراء والاستبدال وجه شبه وهذه هى العلاقة، ثم إن الضلالة لا تشترى؛ لأنها ليست سلعة ولأن الهدى ليس ثمنًا، فبين هذين اللفظين وبين الفعل "اشتروا" مفارقة معجمية تعتبر هى القرينة على إرادة المجاز. فكانت النتيجة هى قبول العبارة على رغم المفارقة المعجمية. فإن لم تقم قرينة على عدم إرادة المعنى الأصلى (القريب) فتلك هى الكناية كما فى قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧)، فلهذا الكلام معنى ولازم معنى، والذى يلزم من أكل الطعام هو إفرازه بعد هضمه، كما أن إجراء الصفقات فى الأسواق يقصد به ما فعله النبى ﷺ برحلته إلى الشام فى شأن تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها.

هذا ويمكن أن يتحقق الطابع الأسلوبى للكلام وهو عار عن الفائدة فى عمومه على رغم اتصاف مفرداته بالدلالة المعجمية. وذلك يتضح فيما يلى:

"إن الذى يلمس صوت التاريخ ويتسلق صرح الأحداث وما تنطوى عليه منهجيتها المسطحة لا بد أن تبهره أحلامها الواقعية وقواعدها الفلسفية التى تمزج فى ملامحها تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ. ذلك بأن الإنسان فى تطوره الفيزيائى من خلال مورفولوجيا الحياة الأسرية كان ولا يزال قائمًا بالقسط بين النية والإرادة فى علاقاته مع الآخرين أو فى استنشاقه لمفردات الظواهر. غير أننا إذا نظرنا إلى المد السكونى فى تاريخ الأسرة وفى ضوء الجزء الحركى لفلسفة وجودها علمنا أن لا جديد هناك فى حقل الملاحظة والتجربة، إن ما يشير إليه علم الاجتماع أيضًا من استقامة المحيط وحلزونية القطر ربما أفضى لدى البعض إلى حدس زمكانى الطابع. تلك حالات من تهاويل ضوابط الذاتية فى مقابل التباس الموضوعية. وتلك لعمرك ومضة الومضات الصاخبة فى أفانين الفكر لا يتذوقها إلا ذوو الضمائر المستوفزة وأصحاب المغامرات المحرجة فى دروب الوعى الثقافى، ولئن صاح العلماء بنجواهم منشدين الحمد لظواهر الطبيعة أن كشفت لهم عن مفاتنها فلن ينكر منكر بعد ذلك أن الأحلام من أقصر الطرق إلى ترقيص قواعد العلم" (مقالات فى اللغة والأدب . ص ٢٤٩)..

هنا يرد على الذهن سؤال عن موارد ما تتألف منه هذه الأصول الثلاثة (أصل الوضع وأصل الاشتقاق وأصل الصيغة) وما إذا كانت وسيلة الوصول إلى هذه الأصول هى التجريد أو كانت هى الاستقراء. والجواب عندى أن أصل الوضع يأتى عن طريق التجريد ولكن أصل الاشتقاق وأصل الصيغة يأتيان عن طريق الاستقراء من خلال مبانى التصريف. ولقد سبق أن ذكرنا أن طلب الخفة قضية أسلوبية ونضيف هنا أن طلب الخفة لا يرقى فى الأهمية إلى مستوى التركيب عند تعارض التركيب والأسلوب، إذ يكون التركيب عندئذ أولى بالرد إلى الأصل من طلب الخفة كما فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤). إذ كان إظهار اللام الساكنة فى "بل" أولى من إدغامها فى الراء المتحركة فى "ران" لأن المنطوق عندئذ سيكون (بران) بتشديد الراء. أما إذا لم يرد مثل هذا الاحتمال فإن اللام تدغم فى الراء بحسب طلب الخفة كما فى قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ (الكهف: ٢٣) بإدغام لام "قل" فى راء "ربى" طلبا للخفة.

ونريد الآن أن نتناول مفهوم المعنى الدلالى للوصول إلى نظرة فى سياق النص. ولقد سبق أن قلنا: إن وظائف اللغة لا تتحقق فى المجتمع إلا بواسطة الإفادة. فالإفادة هى الغاية التى لا يستغنى عنها فى الاتصال اللغوى. ولقد رأينا كيف يمكن للمعنى الوظيفى أن يتحقق على مستوى الصوتيات وعلى مستوى الصرف وعلى مستوى النحو ومفردات المعجم، وأنها لا تتحقق إلا من خلال المعنى الدلالى وهو قمة المعانى، وكان تعريف الكلام فى تراثنا العربى بأنه "اللفظ المفيد" يدل بصفة عامة على أمور منها أنه يحول بين الإشارة الحسية ونحوها وبين أن تعد من قبيل الكلام، وعلى أن لفظ "المفيد" يحول بين الإشارة ونحوها وبين أن تعد من قبيل الإفادة فى الاتصال، من هنا كان المعنى الوظيفى والمعنى المعجمى من قبيل الوسائل وكان المعنى الدلالى من قبيل الغايات والنتائج.

ولعل من أهم الأمور فى تحقيق الإفادة قرينتين كبريين هما: سياق النص وسياق الموقف، ومن غير المناسب أن أطيل فى شرح هاتين القرينتين. ومن ثم أرى أنه حسبى أن أقدم شاهدا واحدًا على كل منهما:

١ - سياق النص: مبدأ التناص. (نص يشرح نصًّا).

يقول الله تعالى فى سورة هود: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٢-٤٦).

فى هذه الآيات ما يحتاج إلى فهم مثل:

١. ما معنى "إنه ليس من أهلك"؟

٢. وما معنى "إنه عمل غير صالح"؟

٣. وما معنى "فلا تسألن ما ليس لك به علم"؟

لمعرفة هذه المعانى يلزم الرجوع إلى آية من سورة التحريم، يقول الله عز وجل: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾(١٠).

أيلزمنى أن أشرح هذا الكلام الواضح؟ لا أعتقد ذلك.

٢- سياق الموقف:

دعا النبى ﷺ ربه بعد وفاة عمه أبى طالب أن يرحم عمه فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: ١١٣). اتسم الموقف بالمقارنة التى أدت إلى سؤال وارد يقول: فلماذا دعا إبراهيم ربه بقوله: "واغفر لأبى" وكان أبوه مشركًا فجاء الجواب الشارح فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(التوبة: ١١٤). والمقصود بالموعدة قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾(مريم: ٤٧) فهنا أيضًا موقفان يشرح كل منهما موقفًا آخر، فتتحقق الإفادة: الأول موقف الموعدة وقد أبان عن سبب الاستغفار، والثانى أن إبراهيم تبين أن أباه عدو لله فتبرأ منه. وجملة الفائدة من الأمرين معًا أن استغفار إبراهيم لأبيه لا يبرر استغفار النبى ﷺ لعمه أبى طالب.

اكتساب السليقة العربية
من خلال التعليم
فى ضوء الدراسات الحديثة

المقصود بالدراسات اللغوية الحديثة أعم من أن يكون مقصورًا على الدراسة النظرية للتركيب اللغوى. فإذا كان المعنى هو ضالة الدراسات اللغوية، فإن ذلك لا يتنافى مع كونه ذا علاقات أخرى متنوعة، بعضها غير لغوى. ذلك أن له علاقة بالإدراك ومظاهره كالتعرف والتذكر والفهم، وهذه العلاقات موضع اهتمام فرع من فروع الدراسات الجانبية كعلم اللغة النفسى مثلا. وهناك علاقة بين المعنى وموقف الاستعمال اللغوى (وما به من الظروف والأوضاع السائدة بجميع جوانبها) وهذا الجانب يتناوله فرع آخر من علم اللغة الحديث يسمى "علم اللغة الاجتماعى" وهو "غير علم الاجتماع اللغوى" الذى يعنى بتقسيم اللهجات الجغرافية والاجتماعية. ونصل أخيرًا إلى العلاقة بين المعنى واللفظ وهى العلاقة التى يدرسها "علم اللغة النظرى" الذى يتبادر إلى الذهن عند قولنا: "الدراسات اللغوية الحديثة" ولقد نشأ منذ عشرات السنين فرع تطبيقى للدراسات اللغوية الحديثة مستعينًا بنتائج الدراسات السابقة كلها وجعل موضوع تداوله شاملًا لعدد من الحقول المختلفة كما يلى:

١ - التخطيط اللغوى ٦ - محاربة الأمية ١١ - لغة الدعاية
٢ - الترجمة الآلية ٧ - تصميم النظم الكتابية ١٢ - الإعلان التجارى
٣ - هندسة الاتصال ٨ - جغرافيا اللهجات ١٣ - الترجمة الحاسوبية
٤ - علاج العيوب النطقية ٩ - المعاجم
٥ - تعليم اللغة ١٠ - التحليل النفسى

ولقد حرص "تعليم اللغة" من بين ما سبق ذكره على أن ينتفع بكافة الدراسات اللغوية الحديثة كما سيتضح فى الفقرات التالية:

إن تعليم اللغة العربية الفصحى (بل تعليم أية لغة على الإطلاق) يقوم على أبعاد ثلاثة: المتعلم، والعلم، والجهد التعليمى. فأما المتعلم فإن التفكير فى شأنه ينبغى أن يشتمل على عدة أمور ترتبط فى جملتها بالدراسات اللغوية النفسية (أو علم اللغة النفسى). إذ ينبغى عند الإعداد لتعليمه أن نفكر فى أمور تتعلق بتكوينه النفسى. ومن ذلك ضرورة التفكير فى درجة إقباله على التعليم وعوامل هذا الإقبال، وهذا هو ما يسمونه "الحافز"، ثم التفكير فى معلوماته السابقة فى المادة المراد تعلمها وذلك لأن برنامج تعليمه السابق يحسن أن يكون نقطة الابتداء للبرنامج المقبل. وينبغى كذلك أن نراعى استعداداته الفردية وما يلقاه من معلومات خارج المدرسة من خلال الأسرة والدروس الخصوصية ووسائل الإعلام والنشاط الثقافى بعامة. ومما يتصل بذلك أيضًا أن نفكر فى نوعية المعلم الذى يؤتمن على تنمية تفكير هذا المتعلم وشحذ قدرته على الخلق وإنشاء العلاقات بين الأشياء، ثم أن نفكر فى الغاية التى من أجلها كان خضوع التلميذ للتعليم، أنعلّمه ليكون مواطنًا عاديًا قادرًا على المشاركة فى شئون الحياة الاجتماعية من خلال طائفة من المهارات اللغوية الأساسية، كالقدرة على الأداء (نطقًا وكتابة) وعلى الفهم (استماعًا وقراءة) أم نعلمه لغرض خاص يقتضى تأهيلًا معينًا، كأن نعده ليكون فى المستقبل معلمًا للغة العربية ذاتها مثلًا.

وأما المعلم فإن علمه يتصل اتصالًا خاصًا بالدراسات التربوية البداغوجية من

جهة وبعلم الاجتماع اللغوى من جهة أخرى، إذ إن الأمر يختلف فى تكوينه وتأهيله بحسب اعتبارات اجتماعية كطبيعة اللغة التى يتصدى لتعليمها: أهو معلم للغة القومية أم للغة أخرى أجنبية. وفى نطاق اللغة القومية أهى لغة المنشأ والأسرة (أو كما يسمونها لغة الأم) التى اكتسبها بالمعايشة منذ الطفولة الأولى بواسطة المحاكاة، أم هى لغة أخرى مشتركة لم يتكلمها فى البيت فى أيام طفولته وإن كان المجتمع يستعملها فى أغراضه العامة. فإذا كانت هذه اللغة العامة المشتركة أو الرسمية هى موضوع التعليم فما هى العلاقة بينها وبين لغة المنشأ؟ أهى وثيقة كالتى تربط اللغة الفصحى باللهجات العربية أم هى غريبة عن لغة المنشأ كما يبدو الأمر فى العلاقة بين لغة الهوسا واللهجات المحلية فى غرب أفريقيا أو الذى بين اللغة السواحلية ولهجات شرق أفريقيا، أو بين اللغة الإنجليزية ولهجات الهنود. فالمعلم فى كل حالة من هذه الحالات يفتقر إلى تأهيل خاص وإلى استعمال برنامج خاص ويصطنع فى مباشرة التعليم طريقة خاصة. والأمر بالنسبة لمعلم اللغة العربية واضح من هذه الناحية فلله الحمد أن تكون الفصحى هى لغتنا الثانية؛ هكذا كانت فى الجاهلية وهكذا ظلت فى تاريخ الإسلام إلى يومنا هذا. وينبغى أن نطبق على تعليمها وإعداد البرامج لها ما يتناسب من المناهج مع اللغة الثانية.

وأما الجهد التعليمى فهو ألصق الأبعاد الثلاثة بما نسميه "علم اللغة"، سواء فى ذلك الجانبان: النظرى والتطبيقى. فأما الجانب النظرى من علم اللغة فشأنه أن يصف اللغة التى يراد تعليمها ويحدد بهذا الوصف ما يعرف بجانب السليقة منها، كالذى صنعه النحاة العرب عند نشأة النحو (أقصد الدؤلى وتلاميذه حتى سيبويه). والمطلوب لهذا الوصف أن يقوم على الاستقراء الناقص للظواهر اللغوية من خلال نصوص منتقاة. ولقد وصل النحاة إلى هذه النصوص إما بواسطة الرحلة وإما عن طريق الوفادة. وبعد ملاحظة الظواهر فى النصوص تجرى مقارنتها وتصنيفها واستنباط قواعدها. وليست القواعد هى المقصود بالسليقة وإنما هى وصف السليقة. والسليقة ليست سليقة فرد بعينه، ولكنها سليقة شخص مثالى مجرد فى الذهن يعيش فى مجتمع متجانس. وهذا الشخص المثالى هو الذى نقصده عندما

نقول "العربى"، وذلك المجتمع المتجانس هو المقصود بلفظ "العرب". وينبغى عند هذا الحد أن نفرق بينهما فى منهج التفكير وفى عرض المادة. فالنحو التعليمى وصف لبنية اللغة فى ضوء نظرية يلتزم بها الباحث. وهذا النحو يرفض المعيارية والقياس حين يلتزم بالاستقراء الناقص فينتقل من الخاص وهو المفردات المتفرقة إلى العام وهو القاعدة التى تصنف هذه المفردات فى أبواب دون أن يسمح لنفسه باستعمال ألفاظ مثل "يجب" و"يجوز" وهو يستعمل العلل الصورية فيجعل نشاطه كله إجابات عن "كيف" لأنه يحاول أن يصف كيفيات التعبير اللغوى ويرفض العلل الغائية فلا يطرح على نفسه سؤال يبدأ بلماذا؛ لأن ذلك لا يدخل فى السؤال عن الوصف. ثم يلتزم بالبنية اللغوية التى يراها فى البيانات المعروضة للملاحظة كما هى، فيرفض تأويلها من خلال التقدير أو التضمين أو السبك أو الفك. فإذا قال بأصول ثابتة فهى عنده مناط الاطراد وأساس السليقة وليست معيارًا للصواب والخطأ فيرفض الحركة المقدرة فى إعراب "موسى" وتقدير فعل محذوف وجوبا لناصب اللفظ فى "أهلًا وسهلًا" ولا يرتضى تقدير المصدر من أن والفعل ولا يعترف بأن مهما أصلها "ماما" ولا بأن لفظ "مغربى مضمن" منسوب إلى المغرب.

وأما النحو بمفهوم التعليم أى بمفهوم علم اللغة التطبيقى فإنه يتسلم النظرية مكتملة من الباحث ثم يبدأ بدوره فى إخضاعها لمطالب التطبيق؛ لأن كل همها أن يصل بالمتعلم إلى استضمار السليقة فالباحث هو الذى يصف السليقة ويحددها ويجعلها فى متناول التطبيق لكن منهج التعليم غير منهج البحث، ومن حق المعلم أن يختلف تفكيره عن تفكير الباحث. ويبدأ النحو التعليمى من نقطة الأصل المجرد الذى يسميه علم اللغة idealization ويسميه النحاة العرب "الأصول الثابتة" ويجعلونه مرجعًا لتعليل الترخص، ومعيارًا لتفسير حالات العدول عن الاستصحاب. فإذا لم تطابق الكلمة صورة الأصل ردت إليه بالتأويل فى ظل الوجوب والجواز والتعليل الغائى على نحو يخضع لمبدأ طرد القاعدة، وفكرة الطرد أكبر عون لجهد المعلم ولاستيعاب المتعلم على حد سواء.

ولقد التزم علماء اللغة التطبيقيون بهذه الأصول ولكنهم اختلفوا فى طريقة التحليل النحوى إلى عدة اتجاهات، منها الاتجاه "السياقى" أو النسقى الذى ينظر إلى الجملة بوصفها سلسلة من المواقع النحوية ذات العلاقات المتبادلة على طريقة الإعراب فى النحو العربى. فتبدو الجملة بحسب هذا التحليل كالعقد وتبدو الأبواب كحبات هذا العقد التى ينتظمها خيط واحد، أو كأنها نسق من الفجوات التى يمتل كل منها بكلمة ذات شروط خاصة. ففى الجملة الفعلية مثلا ينبغى أن تملأ الفجوة الأولى بفعل والثانية بالفاعل أو نائبه. وفى الجملة الاسمية تملأ الفجوة الأولى باسم ثم تتعدد احتمالات ما تملأ به الفجوة الثانية، وهلم جرا.

ومن هذه الاتجاهات الاتجاه "التوليدى" وهو بدوره يتفرع إلى فرعين: أولهما البنيوى الذى يقطع الجملة إلى ضمائم أكبر من الكلمات المفردة يسمونها phrases ويكون ذلك بحسب ما يلمح بين الكلمات من تضام ويطلقون على هذه الضمائم اسم (العناصر المباشرة للجملة)، ويسمون التحليل بحسبها (تحليل العناصر المباشرة) وبالإنجليزية تسمى: immeadiat constituent analysis وبحسب هذا التحليل نجد الموصول وصلته قطعة واحدة، وكذلك المضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع والفعل وما يكمله من المنصوبات أو يتعاقبه من جار ومجرور وهكذا. فإذا أردنا أن نحلل جملة عربية بهذه الطريقة بدت على الصورة الآتية:

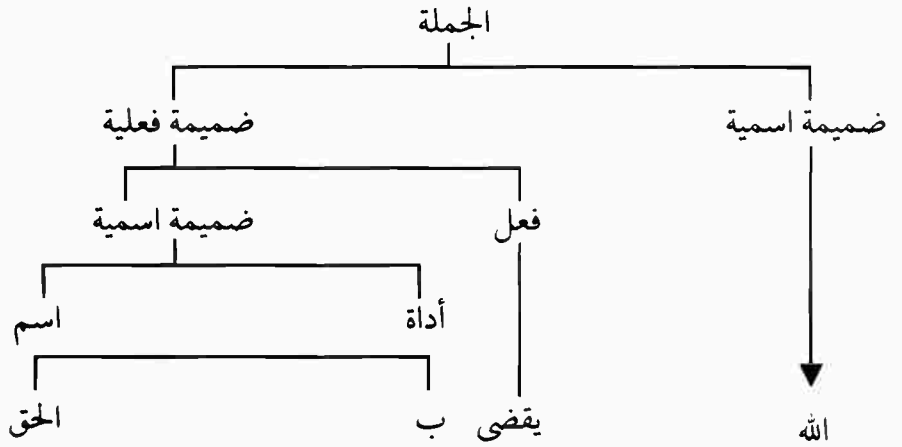

وكل مرحلة من هذه المراحل يمكن أن يعبر عنها بوصف محدد، فيمكن أن نصف هذه الجملة على النحو الآتى:

١- تتكون هذه الجملة من ضميمة اسمية أولى وضميمة فعلية.

٢- تتكون الضميمة الفعلية من فعل وضميمة اسمية ثانية.

٣- تتكون الضميمة الاسمية الأولى من اسم.

٤- تتكون الضميمة الاسمية الثانية من أداة واسم.

٥- مثال الأسماء الله – الحق

٦- مثال الفعل يقضى

٧- الباء

وقد عد النقاد هذا التحليل متفوقًا على سابقه؛ لأنه يهيئ الفرصة للوصول إلى درجة من التعميم أعلى مما سبق، إذ يوحّد النظرة إلى الضمائم المتشابهة الوظيفة فى الجملة حتى لو اختلفت فى بنيتها الداخلية من حيث الكلمات ونحوها. فالاسم يبقى اسمًا سواء أكان مفردًا أو مثنى أو مجموعًا، والفعل يظل فعلًا وإن كان ماضيًا أو مضارعًا أو أمرًا، وهلم جرا. وبهذا نرى أن هذا النوع من التحليل لا يهتم بالتمييز بين المبنى والمعنى، ولا يهتم بالقرائن على مستوى الأبواب المفردة. فما دام المعنى واحدًا فكل مبنى صالح للتعبير عنه مهما اختلفت أشكال المبانى. وينبنى هذا فى رأيهم على أساس أن هناك عملية نفسية تختفى وراء تأويل الجمل لدى أصحاب السليقة فى اللغة، أى أن الجمل المختلفة المؤدية إلى نفس المعنى مترابطة فى نفس صاحب السليقة، وهذا هو أساس التوليد.

وأما الثانى من اتجاهى التوليد فهو الاتجاه التحويلى إذ يعتمد على ادعاء نوعين من أنواع البنية: أولاهما البنية الداخلية العميقة (وهى تذكرنا بما زعمه البنيويون منذ قليل من وجود ترابط نفسى بين الجمل المؤدية إلى نفس المعنى ونفس صاحب السليقة). والثانية البنية الخارجية السطحية، وهى صورة كل جملة من هذه الجمل على حدة. وهكذا تكون الأولى هى معنى الجملة (سواء كان نحويًا، أم دلاليًا).

والثانية هى النسق السياقى الذى يتعاقب فى الزمان قولًا وفى المكان كتابة، وبين البنيتين ترابط منظم، ووظيفة التحليل النحوى أن يعبر عن كل منهما ويشرح ترابطهما بواسطة قواعد التحويل.

وهناك مدارس مختلفة فى هذا التجاه التحويلى فى يومنا هذا تتناول النقد فيما بينها، ولكن يمكن تقسيمها إلى قسمين: أصحاب المعنى النحوى وأصحاب المعنى الدلالى. فأما الأولون فيرون البنية العميقة بنية نحوية، ثم يرون لها وجهين أحدهما سطحى والثانى دلالى وهو الأهم منهما، ولكل من الوجهين قوانينه. وإذا كان علم اللغة النظرى يجرى التحويل من البنية الداخلية العميقة إلى الخارجية السطحية، فإن الذى يجرى عليه العمل فى التعليم الآن هو إجراء التحويل من بنية سطحية إلى بنية سطحية أخرى تشترك معها فى بنيتها الداخلية. وأما الآخرون فهم يبدأون بالمعنى الدلالى ويصلون منه بالتحليل والتأويل إلى بنيات سطحية نحوية من الأبواب والعلاقات ولم يتقدم أحد حتى الآن بوصف مفصل من هذا النوع الأخير. ويبدو الفرق بين الاتجاهين كما يلى:

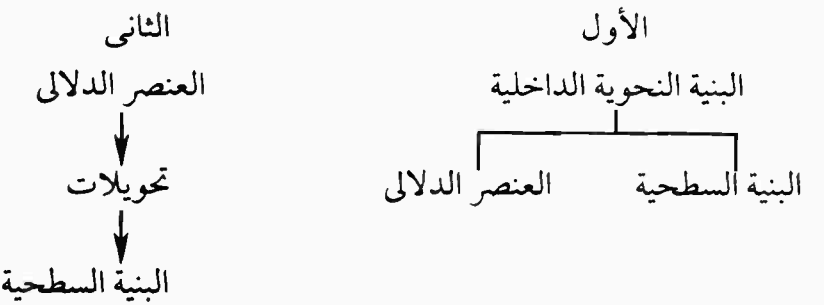

فالتحليل عنده مفرع المعنى فى الحالتين، ولكن المعمى فى الأولى نحو وفى الثانية دلالى. ويذكرنا هذا بقول النحاة العرب: "الإعراب فرع المعنى"، وقولهم: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب".

ويتكلم التحويليون فى التصويب والتخطئة فينشئون للسليقة مقياسين أحدهما نحوى يسمى الصواب والثانى دلالى يسمى المناسبة، إذ قد يكون الكلام صوابًا من

الناحية النحوية غير مناسب من الناحية الدلالية، كما يبدو فى قول المجنون بن جندب:

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى متن شراك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

إذ نرى الكلام مستقيمًا نحويًّا ولكنه لا معنى له من الناحية الدلالية، أو كقول على بن الجهم للخليفة:

أنت كالكلب فى الحفاظ على الو دّ وكالتيس فى قراع الخطوب

إذا أراد مدحه فشتمه بتشبيهه بالكلب وبالتيس فلم يراع مطالب المقام الاجتماعى.

وهم يجعلون وظيفة تعليم اللغة أن يصل بالمتعلم إلى تحقيق الأمرين جميعًا ولعل من الواضح بعد كل هذا أن النحو العربى يحمل جرثومة من كل مذهب من هذه المذاهب، ففى الإعراب نظرة إلى الجملة كأنها مجرد كلمات متتابعة مترابطة، وفى اعتراف النحاة بالتلازم بين الكلمات فى تحليل الجملة كما فى اعترافهم بالمطابقات موقف بنيوى لا نخطئه العين. وأخيرًا ترى القول بأن الجملة المنسوخة أصلها المبتدأ والخبر (سواء كان فى باب كان أو باب إن أو فى مفعولى ظن أو فى الثانى والثالث من مفاعيل أعلم وأرى) وفى القول بأن الإعراب فرع المعنى وأن بعض التمييز محول عن الفاعل أو عن المفعول فسوف نرى فى ذلك موقفًا تحويليًّا واضحًا، إلا أن تحويل النحاة كان من قبيل الوسائل التعليمية فى الغالب؛ لأنه يحوّل جملة سطحية عن جملة سطحية أخرى هى المبتدأ والخبر. ولكن نحاتنا بالطبع لم يعنوا بهذه الاتجاهات فلم تتوزعهم، فكان مذهبهم جامعًا لها جنبًا إلى جنب فى منهج تعليمى آخر على الرغم من ذلك.

بعد أن فرقنا بين الجانب النظرى والجانب التطبيقى من "الجهد التعليمى" أود أن أتناول الخطوة الأولى من خطوات التطبيق وهى "إعداد البرنامج". والبرامج (كطرق التحليل التى سبق ذكرها) قد تختار التتابع التنسيقى فتعطى التلميذ قسطًا

من المادة فى الشهر الأول من العام وقسطًا آخر غيره فى الشهر الثانى ثم فى الثالث، وهكذا. وقد تختار خطوات دائرية حلزونية غير متتابعة على الطريقة السابقة، فتذكر التلميذ وهى فى مرحلة (ب) بما مر به فى مرحلة (أ)، وتبنى مرحلة (ج) على فاعلية استيعاب (أ، ب). ومن الواضح أن النوع الثانى من البرامج أفضل؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين من جهة، ولأن اللغة إذا كان تعليمها يتم من خلال استعمالها فإن نصوص اللغة إذ تقدم إلى التلاميذ لا تقتصر على موضوع الدرس فقط، وإنما تعرض من حقائق النحو ما ينبغى أن يعود بذاكرة التلميذ إلى ما سبق.

وينبغى لوضع البرنامج أن يكون فى سياقه الصحيح. فليس يكفى أن يجلس واضعو البرنامج معًا ثم يقولوا فليأت كل واحد بما يعن له من أفكار واجتهادات، ثم يتضح فى النهاية أن هذه الأفكار لم تكن مبنية على منهج متفق عليه. ذلك بأن اختيار عناصر البرامج وترتيبها إنما يأتى نتيجة لمقدمات موضوعية وبناء على منهج موضوعى كذلك. وتبدو هذه المقدمات وهذا المنهج على النحو التالى:

١. لقد سبق أنه لا بد من نظرية لغوية يبدأ منها سياق الاختيار. وهذه النظرية بالنسبة للنحو العربى هى ما يعرف باسم: أصول النحو "كما يبدو عند ابن جنى وعند السيوطى مثلًا، وهذه النظرية العربية تصادف فى الفكر العربى المعاصر مناقشة من نظريات أخرى أنتجها الفكر الغربى المعاصر أيضًا وطبقها على اللغات الغربية، وسنلقى عليها نظرة بعد قليل لنرى مقدار صلاحها للتطبيق على اللغة العربية.

٢. هذه النظرية توصل إليها منشئها باستعمال البيانات data المستخرجة من الاستعمال اللغوى ذاته. ولقد كانت بيانات النحو العربى كما ذكرنا نتيجة الرحلة والوفادة، وهى كلتا الحالتين كان استخراجها من كلام طائفة من القبائل يسمونها "قبائل وسط الجزيرة" (وهى قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض

الطائيين) وهذه القبائل اتفقت جميعًا فى مستوى الفصاحة والمختلف بينها اللهجات. وعلى هذا الوضع نقد كثير لمستوى النظرية لا داعى للخوض فيه الآن.

٣. فإذا طبقت النظرية على البيانات المأخوذة من لغة بعينها نشأ عند ذلك وصف للسليقة competence التى يقوم استعمال اللغة على شروطها. ووصف هذه السليقة بالنسبة للغة العربية هو ما يعرف باسم النحو العربى.

٤. وهناك منهج تطبيقى خاص لإنشاء البرامج ينبنى على استعمال المقارنة والانتقاء لمعرفة أى الأبواب نختار وكيف يتم ترتيبها فى البرنامج، وما الذى يكون منها للسنة الأولى أو الثانية، وما الحقائق التى نعرضها على التلاميذ من باب بعينه وما الذى نؤخره لمستوى أعلى؛ لأنه فوق قدرتهم على الاستيعاب، وهلم جرا. وهذا هو المقصود من عبارتى المقارنة والانتقاء. وهكذا نصل إلى العناصر المادية فى تكوين البرنامج.

٥. فإذا وصلنا إلى هذه العناصر كان علينا، قبل أن نصوغها فى صورة برنامج، أن نكون على وعى من أمرين:

أولهما: أسلوب تركيب البرنامج، كأن يكون مفصلا أو مجملا بحيث يتيح الحرية فى تكييف التفاصيل للمنفذين.

الثانى: طريقة العرض التى تتسم بها هذه العناصر؛ هل يكون عرض المحتويات تتابعيًّا أو حلزونيًّا دائريًّا.

٦. فإذا تم لنا ذلك وصلنا تركيب برنامج ذى أسلوب محدد، وطريقة عرض معينة، ووصلنا من خلال كل ذلك إلى ما يعرف باسم "أبواب المقرر".

نصل من ذلك إلى طريقة عرض المادة على التلاميذ: أتكون قياسية أم تكون استقرائية، وهل تكون وصفية أو معيارية. وأول ما أحب أن أشير إليه هنا أن النحو ليس غاية فى ذاته، وأن مما يثير الاشمئزاز والسخط أن ترى أحدًا من الناس قديرًا فى التحليل والإعراب، فإذا قرأ أو كتب أو تكلم وجدنا كلامه مجافيًا للصواب النحوى، أو منافيًا للمناسبة الدلالية، وكثير ما هم فى بلادنا العربية، ويذكر بعضهم فى عداد السادة العلماء. فالنحو ليس غاية كما يراه هؤلاء وإنما هو وسيلة إلى

"استضمار السليقة "بنوعيها" الصواب والمناسبة". ولا ينبغى للمعلم أن يقف من الطريقة موقف الباحث من المنهج؛ فالباحث يلتزم بخطوات منهج البحث التى أشرنا إليها من قبل ويفرض عليه البحث دائما أن ينتقل من الخاص إلى العام بواسطة الاستقراء الناقص، والفرض أو التجربة أو المقارنة حتى يصل إلى القاعدة، ويرى هذا الترتيب للخطوات عصمة لفكره أن يزيع. والأمر مختلف بالنسبة للمعلم؛ إذ ليس من همه أن يصحح النتائج العلمية؛ فالنتائج حاضرة فى يده وقد كفاه الباحث جهد السعى إليها. ليس من هم المعلم أن يصحح النتائج وإنما همه أن ينقل النتائج التى صححها غيره.

ولقد ثار نقاش بين أنصار الطريقة القياسية فى التعليم وأنصار الطريقة الاستقرائية. قال أصحاب الاستقراء: إن عملية التعلم (فى كل صورها سواء داخل المدرسة وخارجها) لا تتم فى الحقيقة إلا بواسطة الاستقراء، وإن الذهن الإنسانى يحكم مهيأ للاتجاه من الخاص إلى العام وليس العكس. ويحاول المرء منذ طفولته المبكرة أن يصنف مدركاته أصنافا لكل منها عنوان عام، فيجرد من أفراد الرجال الذين رآهم فكرة "رجل" ومن النساء فكرة "امرأة" ومن الأشجار فكرة "شجرة". وهكذا تصبح حياته الفعلية نسقًا من الملاحظة والتصنيف. ومما ينبغى لطريقة التعلم ألا تخالف طبائع الأشياء وأن تعتمد أساسًا على الاستقراء.

وقال أصحاب القياس إننا لو فرضنا على الطفل أن يحصل على حقائق لكلفناه شططا من أمره، وحملنا عليه من مشقة التعليم عبئًا لا قبل له به. فإذا كان الطفل يعتمد فى كسب مدركاته الأولى على الاستقراء (وهذا حقيقى) فإن الأمر يختلف بين الدراسة والتعلم. فمدركاته الأولى ضيقة المجال وهى من قبيل التعرف على البيئة الطبيعية والاجتماعية الضيقة أما فى التعلم فالمجال غير المجال، والبيئة الضيقة تصبح من الاتساع بحيث تشمل كل ما يمكن تعليمه، سواء فى حقل المحسوسات أم فى حقل المجردات ولو وضعنا الطفل حيال مواد الدراسة فى ظروف الاستقراء العادية ما وصل إلى نتيجة ما حتى لو أعانه المعلم؛ لأن الأمر هنا أشبه بطبيعة عمل

الباحث منه بعمل المعلم. ومن هنا يرى هؤلاء أن الطريقة المناسبة للتعليم هى الطريقة القياسية التى تشرح القاعدة أولا ثم تأتى لها بالأمثلة لتوضحها، ثم تدرب التلاميذ على مطابقتها فى الاستعمال، وتطالبهم بالمطابقة.

ويرد أنصار الاستقراء على ذلك بقولهم: إن هناك فارقًا بين استقراء الباحث واستقراء المعلم؛ لأن استقراء الباحث استقراء "ناقص" فى خضم "الحياة الطبيعية" ينتهى إلى وصف علمى، لكن استقراء المعلم "تام" فى مجال نص محدود ينتهى إلى "فرض معيار" على الاستعمال. فلا ينبغى أن نخلط بين استقراء واستقراء ولا بين ظروف وظروف، أفضل الطرق فيما يرى هؤلاء أن يقدم المعلم النحو واللغة من خلال النص يعرضه على التلاميذ ويشرحه ويضع أيديهم على البيانات التى تعين على استخراج القاعدة، ثم يصل بهم فى النهاية إلى القاعدة ذاتها.

وعلى الرغم من أن عمل المعلم ليس مصارعة حرّة مع عقل التلميذ لا تخضع للقواعد والطرق المنهجية ينبغى أن نشير إلى أن علماء اللغة التطبيقيين يمنحون المعلم قسطًا ملحوظًا من الحرية فى مجال المزج بين الطريقتين بحسب ظروفه وتقديره، بل يرون مزج إحدى الطريقتين بالأخرى فى التعليم أمرًا لا مفر منه. فلو فرضنا أننا استخدمنا النص وجعلناه وسيلة إلى استنباط القاعدة فوصلنا إلى هذه القاعدة بعد استقراء النص فلن يتوقف بنا الأمر عند هذا الحد؛ لأن التدريب وهو أهم وسيلة من وسائل استضمار السليقة لا يتم إلا بواسطة القياس على القاعدة، سواء فى الأمثلة التى يقدمها المعلم للتحليل أو فى الجمل التى يكونها التلاميذ فى أثناء التدريب.

وللطريقة وجه آخر لا بد من مناقشته، وهو إلى أى حد يستطيع معلم اللغة العربية أن يفيد من معطيات علم اللغة الحديث، وبخاصة فى مجال علم اللغة التطبيقى؟ وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ينبغى أن نوضح الفارق التركيبى بين اللغات التى نشأت هذه الفلسفات فى أحضانها وبين لغتنا العربية. فلقد جعل علم اللغة المقارن لغات الإنسان أسرًا؛ فقسمها بحسب القرابة، ثم قسمها تقسيمًا آخر

من حيث البنية وهذا التقسيم من حيث البنية هو الذى يتصل بموضوعنا الحاضر. لقد جعل طوائفها ثلاثًا هى: عازلة، ولاصقة، ومتصرفة "فاللغات العازلة كالصينية مثلا تعد كلماتها وحدات غير قابلة للتحليل، وإنما هى عناصر أولية يوضع أحدها إلى جانب الآخر دون وصل أو إدغام. واللغات اللاصقة كلغات الهنود الحمر مثلا تختلف تراكيبها بحسب التصاق عناصرها الصرفية بعضها ببعض كالذى يحدث فى اللغة العربية فى مجال الضمائر المتصلة ونون التوكيد وياء النسب. واللغات المتصرفة تختلف تراكيبها من حيث الاشتقاق والتصنيف؛ فتجعل الصيغ المختلفة فروعا من أصل اشتقاقى واحد، ويسرى على تغير الصيغ قانون صرفى معين، وأوضح الأمثلة على ذلك لغتنا العربية الفصحى، ولقد مثلنا لكل قسم بأوضح الأمثلة، ولكن أية لغة مهما كانت لا يمكن أن توصف بأنها عازلة فقط، أو لاصقة فحسب، أو متصرفة لا غير. وإنما تختلف درجات اللغات بأخذ نصيب من هذا الطابع أو ذاك.

ولقد نشأت الدراسات التطبيقية الحديثة باللغة الإنجليزية، وفى ضوئها، ومع التطبيق عليها. ومع أن اللغة الإنجليزية تعتبر من اللغات التصريفية على وجه العموم، لا بد من أن نشير إلى أن هذه اللغة المذكورة قد مرت بمراحل تطوّر فى طرق تركيبها حتى صارت أقرب اللغات المتصرفة إلى طبيعة العزل واللصق؛ ويتضح ذلك من عدة أمور منها: اتحاد صيغة الاسم والفعل فى جمهور عظيم من كلماتها، واتحاد صيغة الماضى واسم المفعول باطراد، واتحاد صيغة المصدر واسم الفاعل فى كثير من الحالات، واطراد إلصاق العناصر الصرفية فى أول الكلمة وآخرها أو إقحامها على وسط اللكمة، وهلم جرا. ولقد ساعد على اتسامها بسمة اللصق خلوّها من الإعراب خلوّا تامّا واختصار الفروق فى الصور الإسنادية للفعل إلى صورتين إحداهما للمفرد والثانية لما عداه مع خلوّ كل الإسنادات من علامة تميز الفعل غير الضمير الذى يصاحبه.

أما اللغة العربية فإنها غنية بالمعانى التصريفية المعبر عنها باختلاف الصيغ، وليس من خلال اللصق. وذلك كاختلاف صيغ الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل

واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة والتفضيل والمرّة والهيئة والزمان والمكان والآلة والتعجب مع تعدد الصيغ تحت كل معنى من هذه المعانى. بل إن المادة الاشتقاقية الواحدة تحتمل إمكان التعبير عن معان تشترك فيها صيغ الأفعال والفاعلين والمفعولين كالتعدية والمطاوعة والصيرورة والتكلف والاتخاذ، وهلم جرا، مما لا يتحقق مثله فى اللغة الإنجليزية التى أنتجت هذه الدراسات. أضف إلى ذلك أن للغة العربية نظامًا غنيًّا من المطابقات فى التكلم والخطاب والغيبة، أو فى الإفراد والتثنية والجمع، أو فى التعريف والتنكير، أو فى التذكير والتأنيث، أو فى العلامات الإعرابية. ولها فوق كل أولئك نظام إعراب يحمّل العلامة الإعرابية نصيبها من الدلالة على المعنى، مع العلم أنها عنصر لا يمكن عزله من الكلمة عند محاولة التحليل وإنما تتضافر مع غيرها فى سبيل أدائه. وفوق ذلك كله نجد فى العربية حرية للرتبة لا نظير لها فى الإنجليزية، وفى رأيى تمثل صعوبة كبرى فى سبيل التحليل على الطريقة الحديثة. وباختصار نجد اللغة العربية مثلًا أعلى فى المرونة والغنى بوسائل التعبير الصرفى عن أدق الخلجات والمعانى.

ولقد ذكرت من قبل أن التحويل الذى يجريه المعلمون إنما هو تحويل من بنية سطحية إلى بنية سطحية أخرى تاركين التحويل من المعنى النحوى أو الدلالى إلى البنيات السطحية ليكون من عمل أصحاب البحث النظرى. وهذا التحويل من المعنى إلى المبانى الممكنة هو ألصق بدراسة الأساليب منه بدراسة النحو على أى حال. ومعنى هذا أن تحويلات المعلمين تتناول المبنى دون المعنى. فإذا علمنا أن تحليل اللغة العربية لا يتم بمعزل عن اعتبار المعنى حتى لدى أدنى درجات التحليل، أدركنا الصعوبة التى يصادفها تعميم هذا النوع من التحليل الحديث فى اللغة العربية. ففى جملة "الله يقضى بالحق" التى جرى تحليلها فيما سبق نجد أن المفعول فى التحليل قد اعتبر من متممات الفعل إلى الدرجة التى ساغ بها أن نطلق عليهما معًا اسم "ضميمة فعلية"، ولا بد أن يرتبك هذا التحليل حين تمارس اللغة العربية حقها فى حرية الرتبة، فتصبح الجملة "يقضى الله بالحق" أو "بالحق يقضى

الله" فيفصل بين الفعل ومكملاته (وهو أمر لا يحدث فى الإنجليزية إذ تبدأ الجملة دائما بالاسم ويتقدّم الفعل فيها دائما على المفعول أى أن بنية الجملة الإنجليزية ذات رتبة ثابتة ولكن الجملة العربية تتسم بحرية الرتبة. وحتى لو تغلبنا على مشكلة الرتبة باختراع تفريع يناسب اللغة العربية فى حدود هذه الطريقة فلن نستطيع أن نستغنى عن المعنى والإعراب فى التحليل العربى كما يفعلون بلغتهم. ولقد ناقشنا أحد المصريين الذين يعملون فى إحدى الجامعات الأمريكية ويباهون بتطبيق هذه الطريقة على اللغة العربية، وكان نقاشنا حول ضرورة الاعتماد على المعنى فى تحليل اللغة العربية فحين أصر على عدم اعتبار المعنى طلبت إليه أن يحلل قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ على طريقة التحويل ولكن تحليله فى النهاية عجز عن بيان الفرق بين ثلاثة احتمالات فى معنى الآية: أحدها "قالوا: تقاسموا بالله"، والثانى: "قالوا، تقاسموا: بالله" والثالث: "قالوا، تقاسموا: بالله لنبيتنه وأهله". إذ يكون "تقاسموا" فعل أمر فى الأول، وفعلًا ماضيًا بدلاً من "قالوا" فى الثانى والثالث. ولكن بعض أبواب النحو العربى كما ذكرته من قبل لا تأبى هذه الطريقة كما فى النواسخ والتمييز فلا بأس عند تدريسها أن يشار إلى هذه الطريقة دون إقحامها على الموقف.

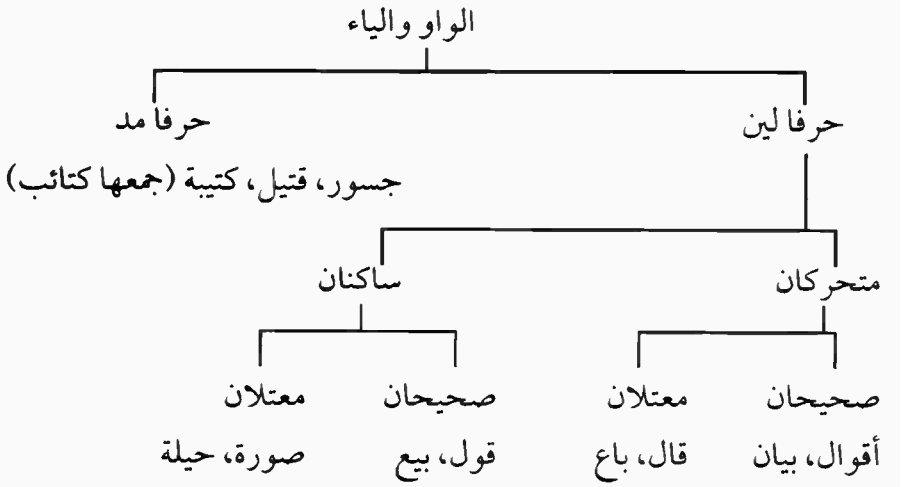

وفى داخل نظام الصحاح يقوم النظام على المخارج العشرة من حيث مكان النطق، وعلى الصفات الأربع من حيث طريقة النطق، وعلى الجهر والهمس من حيث حركة الأوتار الصوتية، وعلى التفخيم والترقيق من حيث شكل الرنين. فكل من هذه نظام داخل نظام داخل نظام داخل نظام داخل نظام اللغة العام. وكذلك يقوم نظام العلل على التفريق الكمى بين الحركات والمدود، وعلى التفريق الكيفى بين قيم ثلاث: إحداها تضم الياء والكسرة، والثانية تضم الألف والفتحة، والثالثة تضم الواو والضمة.

والنظام المقطعى ينبنى على ستة مقاطع يحكمها توزيع نمطى، فيرتبط بعضها ببداية الكلمة، وبعضها بالوقف، ويظل بعضها الآخر حرًّا من الناحية المكانية ولكنه مشروط من الناحية التركيبية الصرفية والسياقية. ونظام النبر يقوم على بعدين، أحدهما المنبور والثانى غير المنبور، ويمكن أن يعبر عنه ببعض قواعد قصيرة؛ وهو مرتبط ارتباطًا عضويًّا بنظام التنغيم فى اللغة المنطوقة، فلا يدرك المعنى النحوى للجملة المنطوقة إلا بالتنغيم.

وأما النظام الصرفى فيضم أيضًا درجة من الأنظمة تتمثل فى الشكل الآتى:

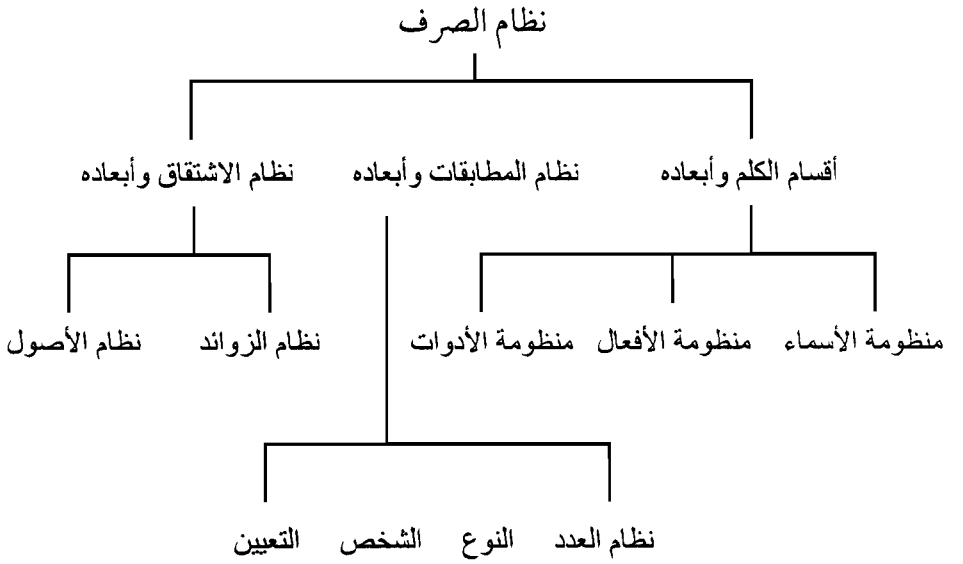

ويبدو نظام النحو على الصورة التالية:

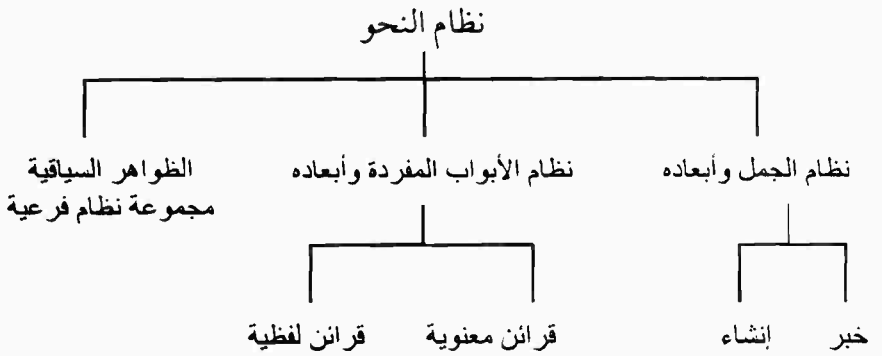

تلك صورة شديدة التركيز والاختصار لتفرع الأنظمة بعضها من بعض، حتى إن المسألة المفردة من مسائل النحو قد تشتمل على توزيع نمطى تصير به نظامًا فرعيًّا فى داخل بابها النحوى المعين، كما يبدو الأمر فى الأمثلة التالية:

المثال الأول:

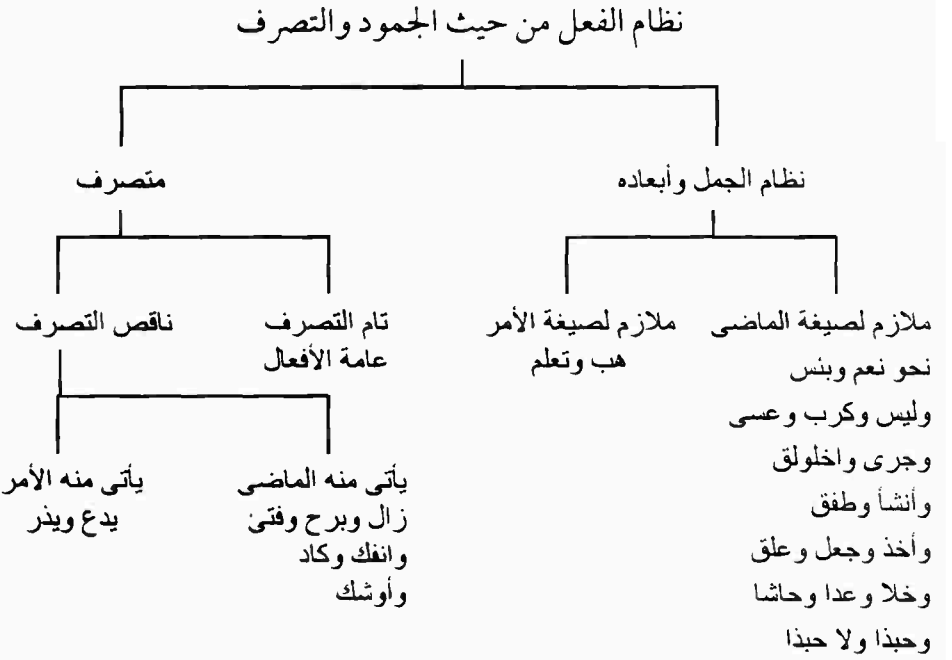

المثال الثانى:

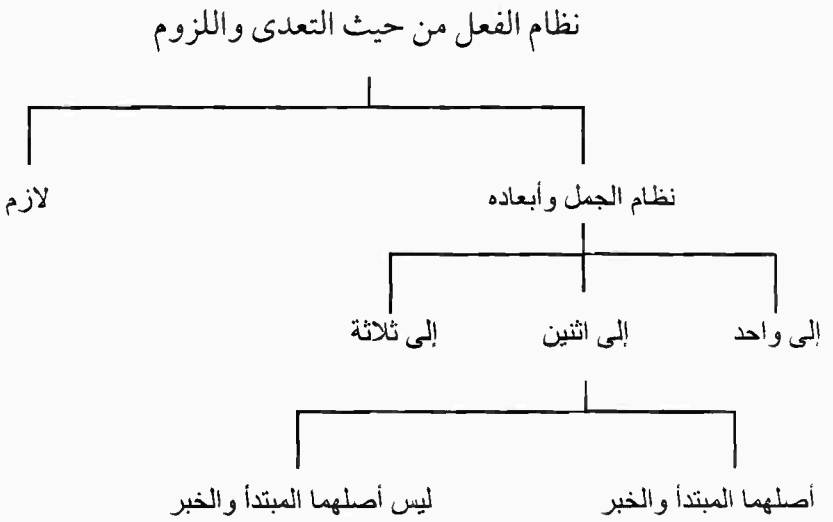

المثال الثالث:

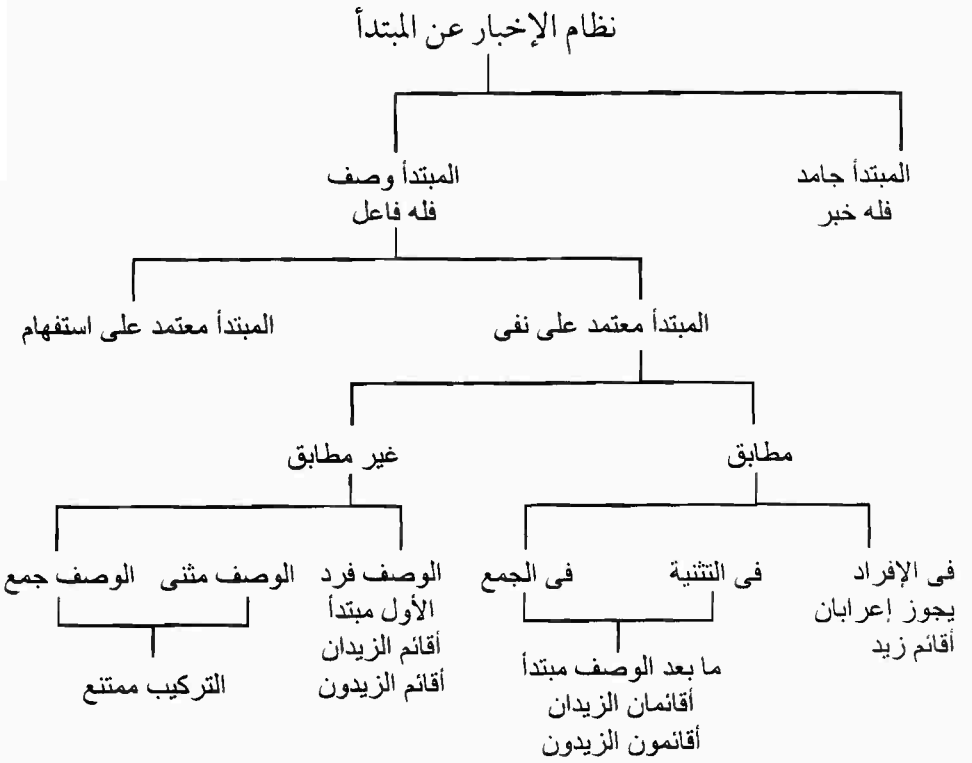

المثال الرابع:

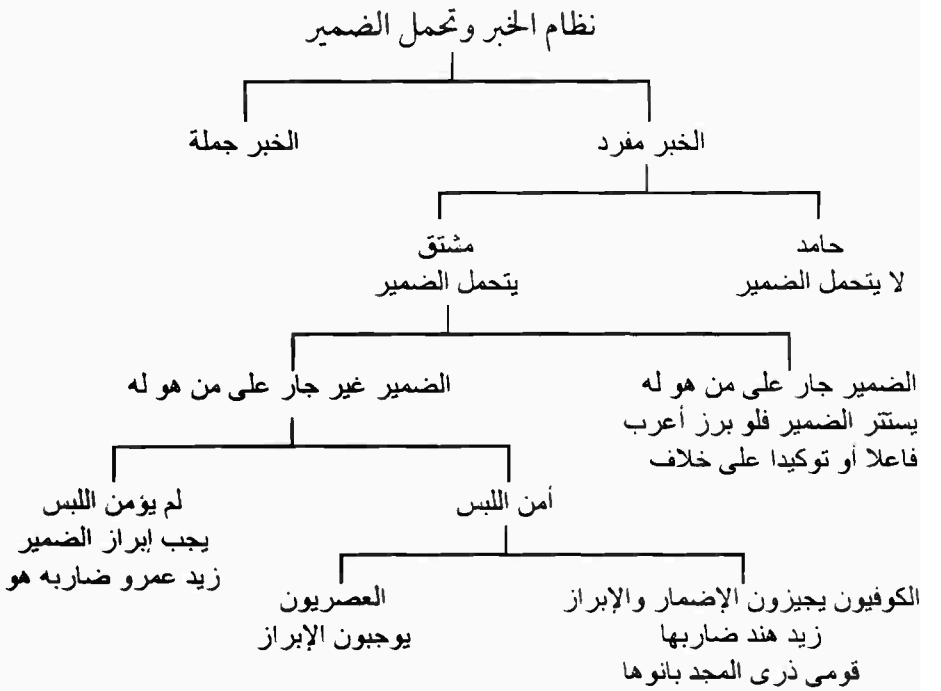

المثال الخامس:

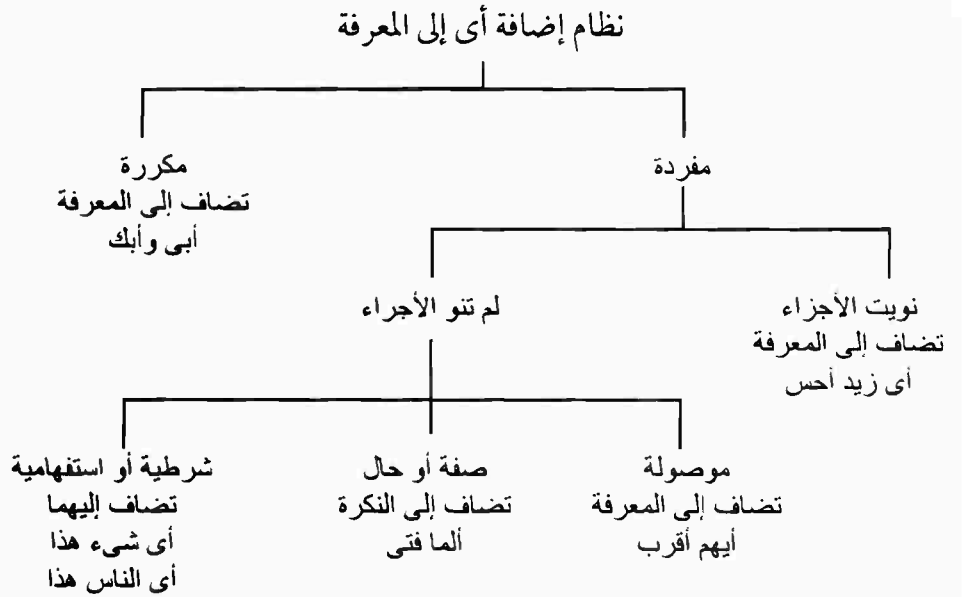

المثال السادس:

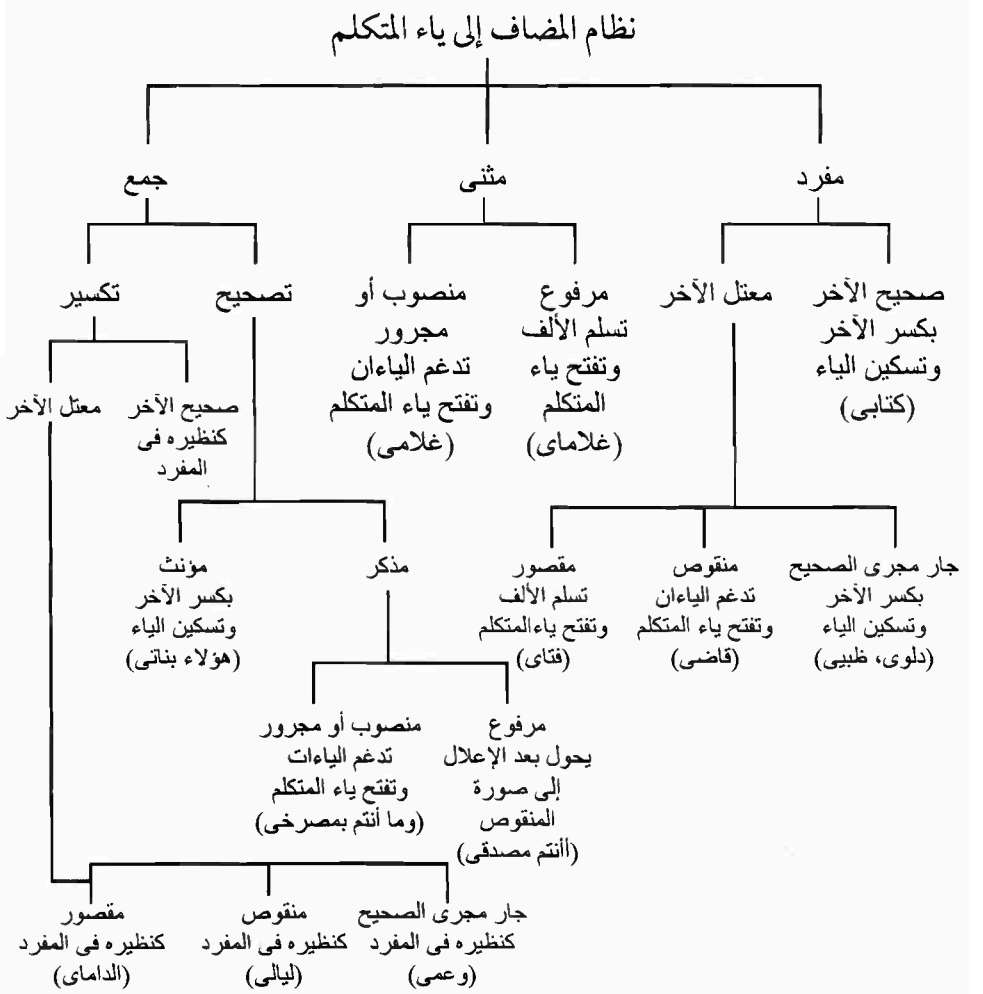

هذا ما قصدت إليه بدعوى درجية التنظيم اللغوى، والذى يخلق النظام إنما هو التوزيع النمطى للاستعمال، والسليقة هى آلية المطابقة للنظام فى الاستعمال. وكلما كان المعلم على ذكر من هذه الطبيعة من طبائع اللغة كان أقدر على الشرح. ويحسن دائما أن يكون الشرح بعبارات بسيطة غير فلسفية، فلا يلجأ المعلم إلى الأفكار المجردة إلا أن يضطر إليها؛ كحين يسأل عن علة، فإن ذكر العلة فلتكن علة تعليمية لا جدلية كما قال ابن مضاء.

قلت فيما سبق إن الضبط والتوجيه من مطالب التعليم، وقد يكون الضبط والتوجيه فى صورة العبارة المعيارية أو القاعدة القياسية، كما يكونان فى صورة استعمال الوسائل الإيضاحية السمعية والبصرية. ولعل أقل الوسائل نفقة وأكثرها نفعًا فى ضبط الموضوع وإحكام التوجيه إلى السليقة هو التعبير عن الأنظمة الفرعية الصغرى للغة (أقصد تفريع المسائل فى داخل الأبواب) مثل ما تقدم من عرض الجداول. فليس أدعى للإحاطة بالقاعدة من أن تراها ماثلة أمامك فى صورة جدول تتضح به العلاقات بين الأنماط، فلا يثبت من المعلومات إلا ما كان منظومًا فى علاقات. أما وسائل الإيضاح الأخرى فلعل أحقها بالعناية الأشرطة السينمائية التى تشتمل على حوار باللغة الفصحى فتقدم للتلميذ الصواب والمناسبة فى وقت معًا. وتخرج اللغة الفصحى من محبسها فى المكتبات وفصول الدراسة إلى فسحة الحياة النابضة، فيقف التلميذ منها (ولو لفترة واحدة كل أسبوع) موقفه الذى تهيأ له فى طفولته الأولى بالنسبة للغة المنشأ؛ ومن ثم يكون وصوله إلى استضمار السليقة أسرع وأكفأ. غير أن هذه الوسيلة باهظة التكاليف حين يكون لكل فرقة فى كل مدرسة نسختها منها. أما معامل اللغات فهى دون ذلك فى النفع؛ لأن مجرد الاستماع بغير الرؤية إن أدى إلى الصواب فلن يعين على الوصول إلى المناسبة. أضف إلى ذلك أن العين أبلغ فى التعليم من الأذن.

وينبغى أن تكون للمعلم عناية كبرى بالتدريب والتمرين؛ لأن عرض القواعد بمفرده لا يؤدى إلى نتيجة، إلا إجادة التحليل مع العجز عن صحة الأداء فلا يأتى كسب المهارة فى الاستعمال إلا من خلال الممارسة. وما دامت اللغة الفصحى ليست لغة البيت ولا لغة السوق فإن الطريق الوحيد إلى الممارسة هو ما يشتمل عليه برنامج الدراسة من ساعات التدريب. فهناك دروس المحادثة، والإنشاء الكتابى، والمطالعة الجهرية أمام التلاميذ، ثم النشاط المدرسى فى صورة التمرين على المناظرة، والخطابة، والمحاضرة. كل ذلك من شأنه أن يعين على استضمار السليقة، وأن يكسر حاجز الخوف من صعوبة العربية التى اتهمت بها ظلمًا وعدوانًا. كل ما هنالك أننا

بحاجة إلى المعلم الواعى بدوره والفخور بمهنته والمتحمس لعمله بغية الوصول إلى هذه الغاية. أما الاختبار والامتحان فينبغى أن نبتعد بهما عن طابع الحفظ والاستظهار إلى طابع شحذ فاعلية التلميذ والكشف عن مدى استضماره للسليقة. ولا ينبغى للامتحان أن ينصب على القواعد والأحكام، كما لا ينبغى أن تكون الأسئلة لطلب الإجابة بنعم أو بلا؛ توقيًا لحكم الصدفة فى التقييم. وإنما ينبغى أن يطالب التلميذ بتعيين التركيب الصحيح وغير الصحيح، وأن يضبط بالشكل، وأن يكوّن العبارة من كلمات مبعثرة، وأن يملأ المسافات البيضاء فى السياق بكلمات مناسبة، وأن يحوّل العبارة من المفرد المذكر إلى غيره ويصف التعبير الذى تم، وغير ذلك من اختبارات السليقة لا الذاكرة.

وقد يسأل البعض عند تكوين البرنامج؛ بأى الأبواب نبدأ؟ وكل إجابة على هذا السؤال مهما كانت لا بد من أن تحمل عنصرًا من الصدق والصلاحية. ذلك بأن النحو نظام كما سبق أن ذكرنا، وكل نظام يصدق عليه أنه لا يُعرف جزؤه إلا إذا عرف كله. ولذا فمهما بدأت بالجزء الذى تظنه أولى بأن تبدأ به فإن النتيجة ستكون هى هى. فلن يكون تعلم النحو إلا من خلال تناول النحو كله. ومع ذلك نجد الناس مغرمين بالمفاضلة بين الاختيارات المختلفة، ولا شك أننى أفاضل أيضًا بين الاختيارات ولاسيما فى هذا المجال المهم. وإذا كان لى أن اقترح ترتيبًا لحقائق النحو فإن أفضل ما أفكر فيه أن أبدأ أوّلًا بالتفريق بين أنواع الجمل؛ فأقسم الكلام إلى خبر وإنشاء، ثم أقسم الخبر إلى إثبات ونفى وتوكيد، ثم أقسم الإنشاء إلى طلب وغير طلب. ولكننى لا أدعو إلى مواجهة التلميذ بهذا التقييم المضبوط من البداية، وإنما أدعه أوّلا يتعرّف من النصوص على أنواع الجمل تحت العنوان الجذّاب (أى بلفظ "الأساليب"). ثم أدخل بعد ذلك فى تقسيم الكلام والتعرّف على الأقسام ووظائفها من خلال الأمثلة والنصوص المختارة، فإذا فرغ التلميذ من معرفتها تقدمنا إليه بمفهوم الجملتين: الاسمية والفعلية. ثم الجملة الأصلية والجملة الفرعية، ثم أختار من أبواب النحو تلك الأبواب التى تشتمل على إسناد كالمبتدأ

والخبر وكالفعل والفاعل ونائب الفاعل، ثم أختم البرنامج بالمنصوبات والمجرورات والتوابع، ثم أنتهى أخيرًا بالعبارات ذات الحذف الواجب كالاختصاص والمصدر النائب عن فعله والتحذير والإغراء. أما الزمن فيدرس منه خلال الأفعال، وأما الظواهر السياقية كالتوصل للنطق بالساكن وكسرة التخلص من التقاء الساكنين والوقف والإعلال والإبدال، وهلم جرا فكل ذلك يستنبط من سياق النص؛ لأنه لا يكون إلا فى السياق، وفلسفة هذا الاختيار كما تبدو واضحة هى الاتجاه من التركيب إلى التحليل، على عكس اتجاه عمل الباحث تمامًا.

بهذا كله يمكن فى رأيى أن نصل بالتلميذ إلى استضمار السليقة، ولكن هذه السليقة نفسها تختلف من فرد إلى فرد؛ فليس لها مقياس كمى ثابت. وحين نشير إليها بالنسبة إلى اللغة فى عمومها لا نستطيع أن ننسبها إلا إلى شخص مثالى فى مجتمع متجانس، والشرطان كما نرى من الأمور المجردة. وهذه السليقة تمنح صاحبها قدرات خاصة على التعرف على الصواب والخطأ بمجرد سماعه، وتعطيه نظرة نافذة إلى تمييز اللبس والوضوح. وعلى إدراك العلاقات بين الجمل فى السياق بحيث يدرك الأصلى منها والفرعى، وأخيرًا تجعل استطاعة صاحبها أن يدرك وحدة المعنى مع تعدد الأساليب الموصولة إليه. وهذه القدرة الأخيرة هى التى بنى عليها النحو التوليدى بنوعيه. وحدّها كما سبق أن أشرت أنها استضمرت للأصول التى يتم بحسبها الاستعمال، والتى يعبر عنها النحاة بقواعدهم، وذلك للوصول إلى آلية الأداء وتلقائية الصواب والمناسبة. فالسليقة ليست هى القواعد وإنما القواعد هى التى تعبّر عنها. والأداء الذى ينتفع بالسليقة ويعين أيضًا على استضمارها يتحقق فى صورة الكلام كما يتحقق فى صورة الاستماع المصحوب بالتعرف. فأما الكلام فالذى ينسبه المحدثون إلى أدائه كبير الشبه بكلام عبد القاهر وفى دلائل الإعجاز إذ يتكلمون عن عوامل يرتبونها كما يلى:

١. Ideation والمقصود به مفهوم البنية العميقة قبل الأداء.

٢. Storage والمقصود به اختزان العناصر التى يمكن أن تبنى عليها الجملة.

٣. Planning والمقصود به تخطيط أبواب الجملة قبل النطق بها.

٤. Execution والمقصود به تنفيذ الأداء بحسب التخطيط السابق.

٥. Monitoring والمقصود به مراقبة النفس أثناء الكلام حتى لا يخطئ المتكلم.

والأول شبيه بما يسميه عبد القاهرة "النظم"، والثالث شبيه بالترتيب، والرابع شبيه بالبناء. والمعروف عندهم أن المهارة فى الاستماع والتعرف تؤدى بدورها إلى المهارة فى الكلام؛ يشهد لذلك اكتساب الطفل للغة. كما أن المعروف أن المدد البصرى للكلام أكثر من السمعى وهذا هو السبب فى تفضيل الأشرطة السينمائية على معامل الاستماع اللغوى.

هذا، ويقوم تحليل الأغلاط بدور مهم فى تعليم اللغة، ولقد ذكرنا من قبل أن السليقة تنسب إلى متكلم مثالى فى مجتمع متجانس، أما على مستوى الأفراد العاديين المثاليين فلكل واحد منهم لهجة خاصة به (idiosyncratic dialect) تنبنى على سليقة تختلف قربًا وبعدًا عن سليقة المتكلم المثالى بحسب الوضع الذى يحيط بالفرد. فإذا كان الفرد تلميذًا فى مرحلة التعلم كانت سليقته الفردية أكثر بعدًا من السليقة الفصحى المثالية. فكل منهما نظام متكامل، ولكنهما يتطابقان فى بعض النواحى (ويسمى مجال المطابقة common core ويختلف كل منهما عن الآخر فى نواح أخرى. وهذه النواحى التى تختلف فيها اللهجة الفردية للتلميذ عن السليقة المثالية يجب اكتشافها وجعلها مناط الجهد التعليمى كله. فالجهد التعليمى أولًا وآخرًا هو رأب هذا الصدع بين السليقة الفردية والسليقة المثالية. ومن هنا يتحتم على المعلم أن يتعرف على طرفى المعادلة، وأكبر وسيلة من وسائل هذا التعرّف مراقبة أخطاء التلميذ؛ لأن هذه الأخطاء هى الأعراض الظاهرة لجهات الاختلاف غير الظاهرة. هذه الأخطاء على أنواع:

فمنها الهفوات التى يقع فيها الإنسان بسبب التعب أو القلق أو التردد، والوقوع تحت ضغط ما، وتتمثل هذه الأمور فى الإبدال والنقل والحذف للعناصر اللغوية فى

الجملة. وهذه يمكن أن تحدث حتى للمعلمين أنفسهم فقد يجوز على أحدنا أن يقول: > معون التعاهد < وهو يريد أن يقول: "معهد التعاون" أو يقول: "رسالة القراءة" وهو يريد "قراءة الرسالة". ومن ثم لا تفيد فى خطة التعليم؛ لأن صاحبها يعرف أنه أخطأ، ويستطيع أن يشير إلى العبارة الصحيحة. ومنها الأغلاط التى يسببها الجهل بنظام اللغة، كالحذف والإضافة وسوء التضام وتشويش الرتبة، وهذه تصدق على المتكلم وعلى السامع كليهما. فكما يغلط المتكلم فى كلامه يغلط السامع فى سماعه والقارئ فيما يقرأ؛ ومن هنا يصعب عليه الفهم، ومن هذا القبيل تعذر فهم التركيب مع وضوح معانى المفردات، كما أن الأخطاء قد تتعلق بالمفردات كما تتعلق بالنظام؛ فمن ذلك إطلاق اللفظ على غير من هو له دون قصد المجاز كأن تسمى القارب الصغير سفينة أو تسمى البغل فرسًا أو تسمى الحقل بستانًا. ومنه أيضًا استعمال اللفظ استعمالًا أسلوبيًّا خاصًّا، وقد يكون الخطأ مقصودًا فى هذا النوع فيكون مدارًا للفكاهات اللفظية، كأن يقال مثلًا "من يضبط متلبسًا بالتبول فى الطريق يعاقب بغرامة مائة درهم مع مصادرة الجهاز". فالفكاهة هنا فى كلمة الجهاز، وفى نسبة المصادرة إلى مفهوم اللفظ لا إلى اللفظ نفسه؛ لأن كلمتى المصادرة والجهاز كثيرًا ما تأتيان فى تركيب إضافى.

ويستطيع المعلم أن ينتفع بهذه الأخطاء فى توجيه التلميذ وتدريبه على الصواب فيما يتصل بنقط الخلاف بين لهجته الفردية والبنية المثالية، ما يستطيع واضع البرنامج أن ينص على التدريب فى هذا المجال.

والله ولى التوفيق.

المعجم التاريخى

البنية وطريقة التحضير

من المعروف لدى المتخصصين فى علوم اللغة أن اللغة كالكائن الحى تولد وتنمو وتعانى وتموت، ويمكن عند تناولها أن يتجه النظر إلى حالتها الحاضرة اتجاها وصفيًّا، أو يتجه إلى طرق اكتسابها وتعلمها اتجاها معياريًّا، أو يتجه إلى تطورها من عصر إلى عصر اتجاها تاريخـيًّا، وفى كل من هذه الاتجاهات يمكن لدارس اللغة أن يعتمد على الجانب الاجتماعى حينًا والنفسى حينًا آخر والتداولى حينًا ثالثًا، وهلم جرا. والمعروف أيضًا أن تاريخ أى لغة إنما هو انعكاس لتاريخ المجتمع الذى يحيا بها ويقوم عليها. فالمجتمع الحى لا بد أن تنعكس حيويته على لغته، فتكون لغة حية، والمجتمع الضعيف ينعكس ضعفه على لغته فتصبح هذه اللغة عرضة للمؤثرات اللغوية الخارجية، فيؤدى ذلك فى العادة إلى فساد نظامها، وضعف اطراد مسالكها وطرق تركيبها، وإلى قصورها عن التعبير عن المعانى الشريفة، وانحطاطها عن مستوى القدرة على بناء الحضارة والتقدم.

ولو نظرنا فى الوقت الحاضر إلى مختلف اللغات فى العالم لوجدنا بعضها موضع اهتمام عالمى والبعض الآخر لا يحظى بمثل هذا الاهتمام. فاللغة الحية هى التى تحظى بالاعتراف بها فى الداخل والخارج، وبالترحيب باستعمالها فى مختلف هيئات النشاط العالمى. انظر مثلًا إلى جملة ما تستعمله الأمم المتحدة والوكالات الأخرى

من اللغات، وستجد فى ذلك دليلًا ـ لا يخطئ ـ على حيوية الشعوب التى تنسب إليها هذه اللغات. فهى موضع اهتمام بها، واعتراف بموقعها فى معترك الحياة الكونية، سواء فى مجال السياسة أو الاقتصاد أو العلم أو الفن، أو فى كل ذلك وفى غيره.

ولقد حظيت اللغة العربية باهتمام الأمم المتحدة فأصبحت إحدى لغات هذه المنظمة، وكانت مؤهلاتها لاحتلال هذا الموقع كما يلى:

١. أنها لغة الحضارة الإسلامية وما خلفته الأجيال من تراث هذه الحضارة المهمة.

٢. أنها لغة اثنتين وعشرين دولة عربية لكل منها أهميتها فى مجال ما من مجالات الحياة.

٣. أن لكل هذه الدول المذكورة نوع اهتمام بهذه اللغة، إما لأسباب سياسية أو علمية أو اقتصادية أو غير ذلك.

٤. أن المد الإنتاجى فى مجال اللغة والأدب والدين باستعمال اللغة العربية لا يمكن إنكاره.

٥. أنها واضحة المعالم نحويًّا ومعجميًّا، ومن ثم يقوم تعلمها على أسس مدروسة.

٦. أن تعدد الدول العربية ـ ولكل منها استقلالها وكيانها ـ كان سببًا فى ثروة وسائل الإعلام العربى مقروءًا ومسموعًا تبعًا لكثرة هذه الدول، وفى تنوع اتجاهات هذا الإعلام، مما جعل الراغبين فى الاطلاع على الوضع العربى تتضاعف أعدادهم، وفى ذلك انتشار للغة العربية أيضًا.

٧. أن الأمة الإسلامية تبعث أبناءها للتعلم إلى الدول العربية، فتكون اللغة العربية لغة تعلمهم. فهى لغة القرآن الكريم ولغة الإسلام والتراث الإسلامى. فإذا عاد هؤلاء الطلاب إلى بلادهم نقلوا ما تعلموه إلى أقوامهم

بواسطة اللغة العربية أو الترجمة منها إلى لغاتهم، فيكون الفضل فى الحالتين للعربية.

تلك هى الأسباب التى جعلت اللغة العربية ذات انتشار واحترام فى عالمنا المعاصر، ولكنّ هناك أسبابا أخرى تدعو للإشفاق على مستقبل هذه اللغة، وإلى ضرورة العمل على خدمتها ووقايتها من عوامل التدهور حفاظًا على صالح الشعوب العربية والإسلامية على حد سواء. يعود بعض هذه الأسباب إلى موقف الدولة من اللغة وبعضها الآخر إلى موقف أفراد الشعب. وذلك على النحو التالى:

أولاً – فيما يتصل بموقف الدولة:

١. سوء حالة التعليم فى مدارسنا القومية فيما يتصل أولًا بمناهج المقررات الدراسية وما يتصل ثانيًا بالدروس الخصوصية.

٢. ترحيب الدولة بإنشاء دور التعليم الأجنبية كمدارس اللغات والجامعات المختلفة اللغات مما يجعل العناية باللغة القومية شبه مفقودة فى هذه المدارس والجامعات.

ثانيًا - ما يعود إلى موقف أفراد الشعب هو شان المدارس والجامعات:

١. نسبة الأميين بين أفراد الشعب تحول بين الجمهور وبين استعمال اللغة العربية، ومن ثم إلى اللجوء إلى استعمال اللهجات العامية فى مناسبات الاستعمال الفصيح.

٢. محاولة بعض المثقفين أن يبرهنوا أثناء الكلام على وضعهم الثقافى المهم بتطعيم كلامهم العربى بألفاظ أجنبية بقصد التعالى على سامعيهم فتنتشر العدوى منهم إلى غيرهم.

٣. ما يقع فيه رجال الأعمال من الإعلان عن منتجاتهم ومصطلحاتهم وعناوين منشآتهم باللغات الأجنبية فيوحون بذلك دون قصد بأن قيمة اللغة العربية لا ترقى إلى مستوى نشاطهم، أو إلى عجز اللغة العربية عن تقديم ألفاظ تؤدى هذا المطلب.

لقد قدمت اللغة العربية فى تاريخها أوضح الأدلة على قدرتها فى مجال بناء الحضارة الإسلامية، وعلى صلاحيتها أن تقدم من المصطلحات ما يجعلها قادرة على نقل التراث اليونانى مع ما يتطلبه هذا النقل من مرونة فى الصياغة الصرفية والصوتية للألفاظ الاصطلاحية المنقولة عن طريق الترجمة أو التعريب هذان النوعان من استخدام اللغة ربما كانا أكثر صور النشاط اللغوى كشفًا عن التطور التاريخى للغة العربية، وللمجتمع الذى يتكلمها. نحن نجهل مثلًا أن جالية يهودية كانت تعيش فى منطقة الخليج فى الجاهلية، وأنها كانت ميسورة الحال وأن رجلاً من هذه الجالية يسمى بنيامين كان يملك سفنًا يستعملها فى نقل التجارة. ولكن هذا يكشف لنا عن هذه الواقعة فى معلقته إذ يقول:

كأن حـدوج المالكيـة غـدوة　　خلايا سفين بالنواصف من رد

عدولية أو من سفين ابن يامن　　يجور بها الملاح طورًا ويهتـدى

فنراه يعرّب "بنيامين" إلى "ابن يامن"، فيكشف عن جانب من جوانب طواعية اللغة العربية، وإذا كانت قراءة التراث تكشف بهذه الطريقة عن شىء من تاريخ مفردات المعجم العربى فلتكن هذه القراءة هى الوسيلة الأولى لضبط المنهج المطلوب للكشف عن هذا التاريخ، وعن إنشاء المعجم التاريخى للمفردات العربية.

ومن الواضح من قراءة ما بأيدينا من معاجم اللغة العربية أن هذه المعاجم قد عنيت أولًا بالفصاحة واطراد الاستعمال وبعصر محدد من عصور اللغة هو عصر الاستشهاد، وأن هذه المعاجم لم يكن لها ما يكفى من العناية بتاريخ الكلمة المفردة ولا بمنشئها وتطورها، ولا بشرحها والاستشهاد لها فى بعض الحالات. ومن صور شرح المفردات مثلًا أن يقال فى شرحها:

١. هى لغة　　٢. لغة قوم　　٣. نبات معروف

٤. ماء لبنى فلان　　٥. ويقال إنه كذا　　٦. ضرب من الشجر

٧. اسم موضع　　٨. اسم رجل ..... وهلم جرا.

* ومثل هذه العبارات تقصر عن أداء أى فائدة أكثر من أن اللفظ المذكور يدل على لهجة أو نبات أو ماء أو نوع من الشجر غير معيّن أو موضع غير محدد أو رجل أى رجل وبهذا القصور يصبح وجود المعجم وعدمه على حد سواء من حيث المداخل المذكورة؛ لأن هذه المداخل ستظل مفتقرة إلى الشرح والاستشهاد. أما المعجم التاريخى فإنه لا بد أن يشتمل على ما يؤهله لأن يكون معجمًا وما يؤهله لأن يكون تاريخيًّا فى الوقت نفسه. ومن ثم يلتمس فيه أن يؤدى الوظائف التالية:

* ضبط نطق المدخل. ويجرى ذلك فى المعاجم الأجنبية بواسطة الكتابة الصوتية، أما فى المعاجم العربية فيتم بواسطة الإشارة إلى توالى حركات النطق، مثل قولك: "بفتح فضم .....إلخ، وإشارة إلى أصل الاشتقاق.

* ذكر انتماء الكلمة إلى قسم من أقسام الكلم، كأن يقال: "اسم أو فعل ..... إلخ".

* تحديد الطابع الصرفى للفظ، كأن يقال فى صدد الفعل: إنه متعد أو لازم، وفى لفظ على وزن: فعل (بفتح فسكون) إنه يدل على مصدر (كقول) أو على صفة مشبهة (كشهم).

* بيان انتقال دلالة اللفظ من عصر إلى عصر، ومن لغة بعينها إلى اللغة المدروسة بيان الوقت (أو القرن) الذى استعمل فيه اللفظ الطارئ لأول مرة، ولا يتم ذلك إلا من خلال الاطلاع على نصوص التراث بأنواعها المختلفة.

* الإشارة إلى ما صادفه اللفظ فى تاريخ استعماله من مفارقة معجمية بينه وبين الألفاظ الأخرى فى السياق نفسه، وما إذا كانت هذه المفارقة كانت سببًا فى الرفض أو فى المجاز.

* إيراد الألفاظ التى تشارك المدخل الحاضر فى أصل اشتقاقه حتى يتبين ما إذا كانت هناك مشاركة فى الإطار العام للمعنى أو لم تكن.

* إذا كانت نسبة اللفظ إلى المعنى قد ترتبت على ظرف تداولى معيّن فى أول أمرها فإن شرح المعنى ينبغى أن يوضح ذلك وأن يذكر تاريخه.

* من الأفضل عند بيان العوارض التى تعرض للنصوص وتتكرر مع مداخل المعجم أن تتم الإشارة إليها بواسطة الرمز طلبًا للاختصار. من ذلك "س" بدلا من اسم و"ف" بدلًا من فعل و"ق" بدلًا من قرن) .....إلخ.

ولن تتسع هذه المساحة الضيقة لإيراد مجموعة الرموز التى يمكن استعمالها فى هذا الشأن لكثرتها، ولكن من الممكن أن نرفق بهذه العجالة ببيان منهج المعجم التاريخى ما يسميه المعجم الإنجليزى التاريخى:

The Oxford English Dictinary

الموصوف بأنه

A New English Dictionary On Historical Principles Volume V H – K

وذلك بإيراد صورة لصفحتى المختصرات ثم صفحات مادة Image وما تفرع منها، لعل ذلك يغنى عن الإطالة.

المصطلح النقدى بين العرفية والارتجال

اللغة نظام عرفى مكون من أنظمة فرعية، هى النظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى، وكل من هذه الأنظمة يشتمل على مكونات نظامية تخضع لأصول وقواعد، كل هذه الأنظمة تتضافر من أجل الوصول إلى إنتاج أداء مطرد فى حقل الاتصال اللغوى، ولو نظرنا إلى قرائن المعنى لوجدنا بعضها ينتمى إلى النظام الصرفى كبنية الكلمة، والبعض الثانى ينتمى إلى العلاقات النحوية كالافتقار والاختصاص والموقع والمناسبة والارتباط السياقى بين مكونات السياق. واللغة أداة اتصال سمعى أو بصرى، ومن ثم كان من قرائن المعنى أيضًا نغمة الكلام وحركات الأعضاء كالإيماء والتقطيب وحركات اليدين إلخ.

والاتصال اللغوى موقف اجتماعى أركانه المرسل والمستقبل والنص والوقائع المصاحبة، وكذا تضاف قرينة أخرى إلى قرائن المعنى هى سياق الموقف بأركانه المذكورة، فيستدل على المعنى المقصود بغرض المرسل واستجابة المستقبل وبالنص والوقائع المصاحبة ونتيجة الاتصال. أضف إلى كل ما سبق قرينة أخرى عبر عنها علماء تفسير القرآن الكريم من قبل بقولهم: القرآن يفسر بعضه بعضًا، وعرفها المعاصرون باسم آخر هو "التناص"، وربما كان من قبيلها أيضًا ما قاله علماء الحديث النبوى الشريف والفقهاء: من أن السنة تفصل ما أجمله القرآن.

واللغة أداة اتصال سمعى أو بصرى، ومن ثم كان من قرائن المعنى أيضًا نغمة الكلام وحركات الأعضاء كاليد والوجه والرأس والكتفين إلخ، والأدب نص ذو وظيفة اتصالية. والاتصال موقف اجتماعى له عناصر لا يتحقق إلا بها، وهى المرسل والمستقبل والنص وسياق الوقائع المصاحبة، وهكذا تضاف قرينة أخرى إلى قرائن المعنى هى سياق الموقف بأركانه المذكورة، فيستدل على المعنى المقصود بغرض المرسل وحالته وموقف المستقبل من الرسالة، ثم سياق النص وسياق الوقائع وأخيرًا نتيجة الاتصال.

ولا يكون العرف إلا اجتماعيًّا يوحد رؤية مشتركة لجماعة ما، ولكن هذه الجماعة قد تكون شعبًا كاملًا وقد تكون فئة من شعب ذى فئات متعددة، فالشعب كيان اجتماعى يتعارف على استعمال لغة مشتركة فيتفق على خصوص مبانيها ومعانيها بصورة يمكن أن يعبر عنها النحو والمعجم، وقد يكون التعارف فى حدود جماعة خاصة من هذا الشعب كجماعة المشتغلين بنشاط علمى محدد أو مهنة أو بقعة جغرافية ما إلخ.

ونحن نرى كيف يميز الناس بين لغة العلم ولغة الأدب، وبين لغة المثقفين ولغة العوام، وهكذا، ويميز الناس أيضًا بين الخطاب الدينى والخطاب التجارى الذى يسمعونه لدى إجراء البيع والشراء، وبينهما وبين الخطاب السياسى الذى يستعمل فى الانتخابات العامة، وقد يختلف اللفظ الدال على الشىء الواحد باختلاف المناسبات، مما يبرر القول بأن كل مناسبة منها لها مفرداتها الخاصة REGISTER للدلالة على هذا الشىء الواحد، فمفردات التهنئة مثلًا غير مفردات التعزية، ومفردات الاستقبال غير مفردات الوداع، ومفردات كلام الأديب بحسب الاتصال العادى غير مفرداته فى النص الأدبى، من كل ذلك يتضح الفرق بين عرف وعرف.

وإذا أردنا أن نعرف شيئًا عن المعنى الاصطلاحى فسوف نجد من الضرورى أن نلقى نظرة على المقصود بالمعنى فى عمومه وعلى أنواعه وأقسامه، فقد يكون المعنى عرفيًّا وقد يكون ذهنيًّا وقد يكون انطباعيًّا. فأما العرفى فقد ينتمى إلى العرف العام

أو إلى العرف الخاص، وأوضح ما يمثل العرف العام هو المعجم الذى يضم الألفاظ التى تعارف عليها المجتمع ويحدد معانيها ويعددها ويضع بعضها معاقبًا لبعض فى موضعه أو يجعله مجازًا عنه، وكل ذلك فى نطاق الصياغة الأسلوبية، فمثال تعدد المعنى المعجمى ما يلحظه المرء فى الشواهد التالية:

ضرب الأب ابنه	ضرب الله مثلًا	ضرب المسافر فى الأرض
ضرب له قبة	ضرب له موعدًا	ضرب أخماسًا فى أسداس
ضرب النقود	ضرب الهاتف	ضرب ٥ فى ٦

وهلم جرا.

أما تعدد المعنى الصرفى والنحوى فمثاله معنى صيغة "فاعل"، من المعلوم أن دلالة اسم الفاعل إنما هى الحدوث والتجدد، وأن دلالة الصفة المشبهة هى الدوام والثبوت، فإذا سمعنا عبارة مثل: "كان قائمًا يصلى" فهمنا من لفظ "يصلى" أن لفظ قائمًا اسم فاعل؛ لأن الصلاة ستنقضى بعد قليل؛ أما إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فإن قيامه سبحانه على النفوس دائم مستمر، وبذلك نفهم أن لفظ قائم صفة مشبهة.

والمعاقبة وضع لفظ فى موضع لفظ آخر بحيث ينتقل من معناه الأصلى إلى معنى اللفظ المتروك، مثال ذلك ما نراه فى قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ حيث نجد "إلا" تدل على معنى "لكن" . وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ حيث تدل" إذ "على التعليل لا على الظرفية، أى: ولأنهم لم يهتدوا به.

أما المجاز فهو ترخص فى المناسبة المعجمية بين مفردات النص. فأصل الإفادة أن يناسب بعض مفردات السياق بعضًا فلا يجوز مثلًا أن يقال: ضحك الحجر الماء، لأن الحجر ليس من شأنه أن يضحك ولأن الضحك لا ينتج الماء، ولأن "ضحك" فعل لازم، أى أن بين المفردات هنا مفارقة معجمية. ولكن المجاز يعتمد عند

الترخص فى المناسبة على علاقات بين اللفظ المستعمل واللفظ المقصود تجعل اللفظ المستعمل كأنه تتحقق فيه المناسبة المعجمية، وعندئذ تبدو المسألة وكأنها صورة من صور المعاقبة التى سبق ذكرها منذ قليل، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ لاحظنا أن الضلالة لا تصلح سلعة وأن الهدى لا يصلح ثمنًا، وعند تأمل الآية نجد أن المقصود هو مطلق الاستبدال وأن "اشتروا" عاقب "استبدولوا" (أى حل محله) لأن الشراء عمل من قبيل الاستبدال، فبينهما مشابهة خففت من وقع المفارقة المعجمية.

كل ما سبق من تناول المعنى كان يدور حول العرف العام، أما من حيث العرف الخاص فإن ما يلحق اللفظ من تعدد المعنى إنما يعود إلى تعدد الأعراف، فلو نظرنا إلى مصطلح "فاعل" مثلا لوجدنا معناه يختلف فى عرف النحاة عنه فى عرف علم الجريمة وعنهما فى علم المنطق. فالفاعل فى عرف النحاة اسم مرفوع تقدمه فعل مبنى للمعلوم ودل على من فعل الفعل أو قام به الفعل. وهذا اللفظ فى عرف المناطقة ضد القابل، وفى عرف المرافعات هو مرتكب الجريمة.

***

الفرق بين المعنى العرفى وبين المعنيين الذهنى والانطباعى أن المعنيين الآخرين فرديان لا عرفيان، والمقصود بالمعنى الذهنى ما يستنبطه الفهم من دلالة الأحداث والمواقف والقرائن الحسية إيجابًا أو سلبًا. مثال ذلك ما يستنبطه رجال المباحث الجنائية من تأمل الأوضاع فى موقع الحادث بعد وقوعه، وما يشتمل عليه سياق موقف الاتصال من الإيماءات وحركات الأعضاء والإشارات، وما كشف عنه الأصوليون مما أطلقوا عليه مصطلح: "مفهوم المخالفة"، وما يردده نقاد النصوص عن عبارة "ظلال المعنى". وليس منه مفهوم إشارات المرور ولا إشارات الأعلام بين السفن؛ لأن هذين النوعين من الإشارات يخضعان للعرف الخاص.

والمقصود بالمعنى الانطباعى ما يحسه المرء عند تعرضه لرؤية منظر يثير فى نفسه إحساسًا معينًا من رضى أو سخط أو رقة أو قسوة إلخ. انظر إلى قوله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(البقرة: ٢٧٣). فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى توجيه الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يسألونها تكريمًا لعفتهم عن السؤال، ويقول جل شأنه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾(الرحمن: ٣٩-٤١) فمعرفة المجرمين بسيماهم تغنى عن سؤالهم.

هذا هو الجانب البصرى من المعنى الانطباعى، أما الجانب السمعى من هذا المعنى فمثاله ما يثيره الإيقاع والتنغيم فى نفوس جمهور المشاهدين لحفلات الغناء والموسيقى، وما نجده من راحة نفسية عند قراءة القرآن الكريم أو الاستماع إلى من يقرأ، ذلك بأن للقرآن إيقاعًا لا تخطئه الأذن، ويبلغ هذا الإيقاع فى بعض المواقع فى النص القرآن درجة من الوضوح لا يغفل عنها إلا من لا إحساس له. من ذلك ما نجده فى قوله تعالى:

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾	﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾
﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ ﴾	﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾
﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ ﴾	﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾
﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾	﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾

هذان المعنيان الأخيران (الذهنى والانطباعى) يختلفان عن المعنى العرفى من وجهة نظر ظروف الاستعمال؛ فمجال المعنى الذهنى مثلًا هو الأسلوب، ومجال المعنى الانطباعى هو الإحساس الفردى، وإذا كان العرف من قبيل الثوابت فالأسلوب من قبيل المتغيرات، وإذا كان العرف مفهومًا اجتماعيًا، فإن الأسلوب سلوك فردى، وإذا كان العرف قيدًا على حرية المتكلم، فإن الأسلوب نزوع إلى التحرر من هذا القيد، وإذا كان الالتزام من مطالب العرف فإن التحرر من مطالب الأسلوب، من هنا اختلفت الأساليب قربًا وبعدًا عن استصحاب الأصل وإيغالًا

فى الترخص فى القواعد والتراكيب سعيًا إلى التأثير فى الانطباع أكثر من السعى إلى الإفادة، فالأسلوب الشخصى مزيج من الاستصحاب والترخص سواء فى اللفظ أو فى المعنى، فأما فى اللفظ فإن الترخص يكون فى القرائن اللفظية بتجاهل وظيفة الأداة أو البنية الصرفية أو إهمال الافتقار أو الاختصاص أو المناسبة المعجمية بين مفردات النص أو الرتبة أو المطابقة بين لفظ ولفظ أو الربط بواسطة الإحالة. وأما الترخص فى المعنى فبالإيحاء والإيماء والمعانى الهامشية وأنواع المجازات إلخ.

دعنا نستشهد أولًا لأنواع الترخص اللفظى لنرى أن الترخص ليس فى الشعر والنثر الفنى فقط، وإنما هو فى آيات القرآن الكريم وفى الحديث الشريف كذلك. فمن الترخص فى قيمة الإعراب قول امرئ القيس:

كأن ثبيرًا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر "مزمل" وحقها الرفع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩). برفع "الصابئون" وحقها النصب. وقوله ﷺ: "إن قعر جهنم سبعين خريفا "بنصب" سبعين وحقها الرفع. هذا عن الإعراب، أما الترخص فى الأداة بحذفها فمثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ (البقرة: ١٢٤) أى (أو من ذريتى؟)، واستعمال الأداة فى غير معناها كاستعمال "إذ" حرفًا مصدريًّا فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨) أى (بعد أن هديتنا). وكذلك استعمال الأداة فى معانٍ متعددة كاستعمال "إن" بسكون النون إما لإفادة الشرط أو النفى أو التأكيد، كما فى قول الشاعر:

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

فالأداة هنا للتوكيد، ويمنعها أن تكون للنفى دفع التناقض، وأن تكون للشرط دفع تحصيل الحاصل، وقد تحملت الأداة صورًا أخرى تستعصى على الحصر لا داعى لذكرها فى هذه العجالة.

أما البنية الصرفية وما يناسبها من صورة الكلمة المفردة فبحسبنا أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠) وكذلك: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ٢)، أى إلياس وسيناء. والشاهد على، إعمال الافتقار حذف صلة الموصول فى قول الشاعر:

نحن الأولى فاجمع جمو عــك ثم وجههم إلينا

أى الأولى يتحدونك، وفى البيت التالى رخصة فى الرتبة تتمثل فى الشطر الثانى منه وذلك بذكر العاطف والمعطوف قبل أن يذكر المعطوف عليه:

ألا يا نخلة فى ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

فالأصل (عليك السلام ورحمة الله). ومن الترخص فى الرتبة أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ (هود: ٣٨)، أى سخروا منه وهو يصنع الفلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (هود: ٤٢) أى نادى وهى تجرى.

والشاهد على الترخص فى الاختصاص قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت ١٧) بتضمين "استحبوا" معنى "فضلوا"، وتعديتها بحرف الجر مع أن من شأنها أن تتعدى بنفسها. ويبدو الترخص فى المناسبة المعجمية فى كل ما تشتمل عليه النصوص العربية من صور المجاز والاستعارة، ويؤيد ذلك تعريف الاستعارة الذى يقول: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". فإذا قلنا: (ألقى الأسد خطابًا فى جنوده) فالمعنى الأصلى للفظ الأسد هو الحيوان المفترس المعروف، والمعنى الآخر هو القائد والعلاقة الشجاعة والقرينة الخطابة ونسبة الجنود إلى الأسد، وكل ذلك يشتمل على المفارقة المعجمية لا على المناسبة المعجمية.

والشاهد على الترخص فى المطابقة قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)، إذ لم تقولا طائعتين. ومن

شواهد الترخص فى الربط بالإحالة الإضمار لغير مذكور سابق كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (النمل: ٦١) أى ظهر الأرض. ومثله ما فى قول الشاعر:

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما

فالقائلون لم يسبق ذكرهم ولكن هذا القول لا يكون إلا من أصحابه فلا لبس ولا غموض.

***

كان ذلك شأن الترخص فى القرائن اللفظية، أما القرائن المعنوية (الذهنية والانطباعية) فمجالها توجيه الدوال غير العرفية إلى إحداث مؤثرات أسلوبية موجهة إلى مستقبل النص فى قنوات اتصالية معنية كالحكاية والإيحاء والإيماء ونحو ذلك، من ذلك ارتجال مفردات تدل بجرسها على ظلال المعنى المراد كالذى نجده فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ (الدخان: ٤٣-٤٤). فهذه الشجرة لا وجود لها فى عالمنا هذا لأنها ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٤-٦٥) أى أن اللفظ مرتجل لما فيه من دلالات صوتية. فالكلمة مركبة أولا من الزاى والقاف للدلالة على ارتباطهما بالفعل "زق" فى قولنا: (زق الطائر فرخة) دلالته على الإطعام، ثم إن الإطعام هنا تصحبه صعوبة الإساغة للطعام وبلعه، ويعنى ذلك بقاء اللقمة فى الفم مدة أطول مما ينبغى بدليل تشديد القاف وهو أطول من الإفراد، وطول الواو التى بعدها، مما ينسجم مع الدلالة على صعوبة البلع. وأخيرا تأتى الميم وفى نطقها ضم الشفتين وهو وضع لا يكون البلع إلا مصاحبًا له. فالأمر كله من قبيل المعنى الانطباعى.

أما الاستعمالات الأخرى للقيم الصوتية فمن أمثلتها ما فى قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨) إذ جاء الفعل

"اثاقلتم" بالثاء المشددة بدلًا من توالى التاء والثاء فى "تثاقلتم" بقصد الدلالة على المكث والتباطؤ الذى يومئ إليه ما يمتاز به طول رخاوة الثاء المشددة. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ ﴾ فى معرض الكلام عن مجرد تسلق السور، والاحتفاظ بها فى الفعل "استطاعوا" فى معرض خرق السور الحديدى؛ لأن التسلق يتطلب جهدًا أقل من جهد الخرق. ومن ذلك استعمال ظاهرة التفخيم للدلالة على التأكيد كما فى قوله تعالى فى معرض الكلام عن خلق الأرض: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات: ٣٠) ولكنه عند القسم جاء بالفعل نفسه بتفخيم الدال حتى تحولت إلى طاء، وذلك إذ يقول: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (الشمس: ٦). أضف إلى ذلك ما نجده بين كلمات النص ذوات المعانى المختلفة من جناس عند تجاورها فى السياق كما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠)، وكذلك: ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الكهف: ٥٣)، ومثله قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة: ١٠٩) إذ يتوالى فى السياق لفظان على صورة (فنهار فانهار)، وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧)، وهلم جرا.

وقد تنصب الخيارات الأسلوبية على المعنى بصور مختلفة للفظ الواحد؛ فلو أخذنا لفظ "أم" مثلا لهذا التعدد فى المعنى الأسلوبى لوجدنا ما يلى:

١. المعنى الإرشادى الأصلى الذى يتحقق بتعريف لفظ "أم"،

٢. المعنى الاستدعائى الذى يشتمل على الفروع التالية:

* المعنى اللزومى الذى يشمل الحمل والولادة.

* المعنى الأسلوبى الذى يشمل تعديل لفظ "أم" إلى ماما ومامى إلخ.

* المعنى العاطفى الذى نلمحه فى عبارة: "مصر أمنا"،

* المعنى الانعكاسى المنفر كالشتائم المشتملة على لفظ الأم وكوصف الخمر بأم الكبائر.

* المعنى التواردى الذى تظهر به الكلمات التى ترد مع لفظ "أم" مثل: لبن الأم وحنان الأم والأم الرءوم.

٣. المعنى البؤرى الذى تتحدد معه بؤرة الاهتمام بمضمون اللفظ بواسطة أمور منها التقديم والتأخير والتأكيد والتكرار كما فى حديث: «من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك»، إذ صارت الأم بالتكرار فى بؤرة الانتباه.

نفهم من هذا أن غاية النقد هنا هى تحديد القيمة من خلال الحس والانطباع (الحدس)، وأن الحس يركز على المعطيات التى تدركها الحواس فى الاتصال كما يحوم الحدس حول الإيحاء والرمز والإيماء والمعانى الهامشية المختلفة. ذلك بأن الناقد فى نهاية الأمر مخاطب، ولكنه مخاطب من نوع خاص. ومن شأن المخاطب أن يفك شفرة الرسالة التى صدرت عن المتكلم ليصل إلى مقاصدها المغيبة، ولكنه حين يفعل ذلك يعيد صياغتها بالحس والحدس. أما الحس فمرجعه إلى الملاحظة والتأويل. وأما الحدس فمرجه إلى الانطباع الفردى. وفى الحالتين كلتيهما لا يأمن الناقد أن يسىء فهم مقاصد المتكلم نظرًا لما يطبع التراكيب اللغوية من إمكان اللبس، وما يطبع التأويل والتأثر من عدم الخضوع للضبط والمعيار. فأما إن تراكيب اللغة عرضة للبس فواضح من أن المصدر المضاف قد تكون إضافته إلى فاعله أو إلى مفعولة، فإذا قلنا مثلًا: زيارة الأصدقاء تسعد النفس، فلسنا ندرى من النظر إلى التركيب فقط ما إذا كان الأصدقاء هم الزائرين أم المزورين. وإذا قلت: زرت ابن عمى فى بيته، لم يدر السامع من مجرد التركيب ما إذا كان البيت لابن عمى أو لعمى. وقد يختلف معنى المنطوق عن معنى المضمون كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)؛ فالمنطوق نهى عن الموت والمضمون أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت. وقد يكون المطوق إخبارا والمضمون تكليفا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨). وأما أن الحدس يستعصى على الضبط فدليله سوء التفاهم فى الاتصال.

سبقت الإشارة إلى أن المصطلح النقدى (وهو موضوع الدراسة) ينتمى إلى عرف خاص هو عرف الدائرة التى تستعمله، والعرف الخاص نوع من العهد الذهنى الذى يخصص المدلول. فأنت إذا عزمت على الخروج فسألك أحد أفراد أسرتك: إلى أين أنت ذاهب؟ فقلت: إلى الكلية، فإن السائل سيفهم من إجابتك أنك تشير إلى الكلية التى تنتمى إليها، وليس إلى غيرها من كليات الجامعة، وذلك لما بينك وبينه من فهم مشترك لمعنى اللفظ عند إطلاقه، ذلك الفهم المشترك هو العهد الذهنى الذى تنسب إليه "ال" العهدية فى هذا المثال، والأمر شبيه بذلك إذا قلت: أنا ذاهب إلى الصلاة، فإذا كنت مسلمًا فهم السامع من اللفظ معنى، وإن كنت غير ذلك فهم منه معنى آخر يشمل هيئة الصلاة ومكانها وذلك بالعهد الذهنى أيضًا، وكما اختلف العهد الذهنى فى فهم "الصلاة" نراه يختلف فى فهم "الفاعل" فى عرف النحاة عنه فى عرف المناطقة وعنهما فى المرافعات. وهذا هو المقصود بالعرف الخاص الذى لولاه لتطرق اللبس إلى اللفظ الاصطلاحى.

واختلاف نوعى العرف هو السبب فى اهتمام علماء السلف عند التعريف بالمصطلح بذكر الفرق بين معنييه (لغة واصطلاحًا)، فأنت ترى فى شرح المعنى الاصطلاحى للصلاة مثلا قولهم: "الصلاة لغة الدعاء. قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ (أى ادع لهم) ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾. واصطلاحًا أقوال وأفعال مخصوصة". ومعنى هذا أن اللفظ قد انتقل من العرف العام وهو الذى تستعمل اللغة بحسبه فى الحياة اليومية إلى عرف يجمع بين طائفة من الناس يشتركون معًا فى اهتمامات خاصة.

غير أن ما التزم به السلف من ذكر المعنى العرفى العام للمصطلح أمر لا لزوم له. لأنه لا يلزم أن يكون المصطلح منقولًا عن الاستعمال العرفى العام، بل يمكن له أن يكون مرتجلًا. وفى المصطلحات المستعملة فى التراث نفسه نجد ما هو مرتجل. يقول الجاحظ فى (البيان والتبيين) (١/ ١٥٣): "ولأن كبار المتكلمين ورؤساء الناظرين

كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء؛ وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا بذلك سلفًا لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذا قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك".

وأكثر من ذلك أن ارتجال المصطلحات لا يلزم فيه أن يكون المصطلح من مفردات المعجم. بل إن الرياضيات والمنطق الرياضى ونحوهما من فروع العلم تستعمل الرموز دون مفردات المعجم، وحسبنا أن ننظر إلى دلالة (س) و(ص) على كميات مجهولة، وكذلك ما تدل عليه الرموز المنطقية التالية:

إما وإما	(V)	النفى	ـــ	دالة المحمول	F
دالة القضية	F(X)	التضمن		سور كلى	X
التكافؤ	(=)	التضمين		سور جزئى	
عضو فى	(E)	اتحاد مجموعتين	U	تقاطع مجموعتين	
يحتوى		مجموعة فرعية	C	عنصر من	
يتنافر مع	/				

وليس واحد من هذه الرموز عرفًا عامًّا أو واحدة من مفردات اللغة تحول بها الاصطلاح إلى الاستعمال العرفى الخاص. ولا مشاحة فى الاصطلاح.

وينبغى أن لا يتعدد مدلول المصطلح فى عرف خاص بعينه كعرف النحاة أو النقاد، وإلا كان هذا التعدد سببًا فى البلبلة والتردد فى الفهم. فمثال تعدد المعنى للمصطلح النحوى الواحد ما يلى:

١. المفرد:

* ما ليس مثنى ولا جمعًا.

* ما ليس مضافًا ولا شبيهًا بالمضاف.

* ما ليس جملة ولا شبه جملة.

* ما ليس مشددًا.

٢. الجامد:

* ما لم يشتق من غيره كالأدوات والضمائر إلخ.

* الفعل الذى يأتى على صورة واحدة، كعسى وليس.

٣. الصفة:

النعت

* الوصف (وصف فاعل أو مفعول أو الصفة المشبهة والمبالغة والتفضيل)

وهذا التعدد فى معنى المصطلح عيب منهجى يستحق التصويت.

وعكس ذلك ما نراه فى مصطلحات النحو؛ إذ يتحد القصد ويتعدد المصطلح. من ذلك ما يمكن أن يوضع تحت عنوان اصطلاحى واحد هو "الإغناء" أو "المعاقبة"، ولكنه وضع تحت العديد من المصطلحات على النحو التالى:

١- حروف الجر ينوب بعضها عن بعض	أى يغنى
٢- ينوب المفعول به عن الفاعل	" "
٣- كل وبعض ينوبان عن المفعول المطلق	" "
٤- الفاعل يسد مسد الخبر	" "
٥- الحال تسد مسد الخبر	" "
٦- أن وما بعدها سدت مسد مفعولى ظن	" "
٧- "يا" حلت محل "ادعو"	" "
٨- "ما" نافية بمنزلة "ليس"	" "
٩- منصوب التعجب مشبه بالمفعول به	" "
١٠- ضمن معنى القول دون حروفه	" "
١١- تنوين العوض	الإغناء
١٢- ترك أغنى عن "ودع"	" "

وليست البلاغة بعيدة عن فكرة تعدد المصطلح. خذ مثلًا المصطلحات التالية:

المعاظلة ـ المبالغة ـ الحشو ـ الازدواج ـ الإشارة ـ الإضمار ـ التضمين ـ التعريض ـ وغير ذلك من المصطلحات. أما ما يصعب تحديد معناه من مصطلحات البلاغة والنقد الأدبى بصفة أعم فمنه الجهامة والكزازة والرونق والدماثة والطلاوة والحلاوة والفجاجة والتعوص والإيغال، كما يتراوح الاستعمال النقدى بالنسبة لمصطلحات مثل الصناعة واللغة واللهجة مما يجعل القارئ عاجزًا عن الفهم الدقيق لما يقال، حاول مثلا أن تحدد فهمًا دقيقًا لقول صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه [٣١٠] وما بعدها: "فيه جهامة سلبته القبول، وكزازة نفرت عنه النفوس، هو خال من بهاء الرونق وعذوبة المسمع، ودماثة النثر، ورشاقة العرض، وقد حمل التعسف على ديباجته، واحتكم التعمل فى طلاوته، وخالف التكلف بين أطرافه، وظهرت فجاجة التصنع فى أعطافه، واستهلك التعقيد معناه، وقيد التعوص مراده". فكل ذلك يطعن فى عرفية المصطلح وفى ضبط معناه وفائدة الاعتماد عليه فى الإفهام؛ لأنه بهذا يصبح من ألفاظ العرف العام الذى يستعمل المفردات فى الاتصال اليومى غير الفنى.

أضف إلى ذلك أن المشتغلين بنشاط لغوى أو نقدى واحد قد لا يتفقون على مصطلح واحد للمفهوم الواحد، وربما شاع ذلك فى غير حقلى اللغة والنقد من الدراسات الإنسانية. وذلك ما لوحظ فيما نراه من عمل المشتغلين من العرب بتعريب اللسانيات الحديثة من اختلاف المصطلح مع وحدة المفهوم، واستقلال كل منهم بمصطلحه الذى يصوغه نتيجة للترجمة أو التعريب أو الارتجال. وقد لا يكون ذلك مقصورًا على الدارسين من العرب، ذلك أن مصطلحات اللسانيات فى إنجلترا مثلا أكثر محافظة وعرفية من المصطلحات الأمريكية. وكثيرًا ما يصف الدارسون الإنجليز بعض المصطلحات الأمريكية بأنها ارتجال neologism. بل إن تعدد المذاهب الأمريكية أدى إلى انفراد أتباع كل مذهب بصوغ مصطلحاتهم الخاصة.

والفرنسيون أيضا ربما عددوا المصطلح من أجل الدلالة على المفهوم الواحد.

ففى مقال للأستاذ عبد السلام المسدى عنوانه: "مساهمة الألسنية فى تحديد الأسلوب الأدبي" (جاء فى العدد الثانى من سلسلة الدراسات الأدبية فى معرض تناول "قضايا الأدب العربى". مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية – الجامعة التونسية)، عرض فيه لتعدد المصطلح لدى عدد من الأساتذة الفرنسيين للدلالة على مفهوم" الواقع الأصل"، فكان ذلك كما يلى:

L usage ordinaire	الاستعمال الدارج – فونتانياى
L usage habtuel	الاستعمال المألوف
L expression simple	التعبير البسيط
L expression commune	التعبير الشائع
Le parle individual	الكلام الفردى ـ بالى
L etat neuter	الوضع الحيادى ـ ماروزو
Le degree zero	الدرجة الصفر
La norme generale	النمط العام ـ سبتزر
L usage normal	الاستعمال العادى
L usage courant	الاستعمال السائر ـ ويليك / و فارن
L usage moyen	الاستعمال المتوسط ـ ستاروبنسكى
Les norms du langage	السنن اللغوية ـ تودو روف
Le discourse naïf	الخطاب الساذج ـ جماعة (مو)
Laparle innocente	العبارة البريئة
La norme	النمط – ريفاتار
L usage norme	الاستعمال النمط ـ دولاس

فهذه ست عشرة صياغة للدلالة على مفهوم واحد هو مفهوم "الاستعمال السائد" يقابلها اثنتا عشرة صياغة للدلالة على الترخص بالخروج عن الاستعمال السائد على النحو التالى:

L ecart	الانزياح ـ فاليرى
L abus	التجاوز
La deviation	الانحراف ـ سبتزر
La ditorsion	الاختلال ـ ويليك / ووارن
La subversion	الإطاحة ـ بايتار
L infraction	المخالفة ـ تيرى
Le scandale	الشناعة ـ بارت
Le viol	الانتهاك ـ كوهن
La violation norms	خرق السنن ـ تود وروف
L incorrection	اللحن
La transgression	العصيان ـ أراقون
L alternation	التحريف ـ جماعة (مو)

وهذه المجموعة الأخيرة من المصطلحات الدالة على الترخص فى استعمال قرائن المعنى تقابلها مجموعة أخرى صاغها النحاة العرب من الشذوذ والقلة والندرة ولغة قوم بعينهم والضرورة الشعرية وغير ذلك. غير أن الكفاءة الاصطلاحية فى كل الأحوال ينبغى أن تجعل علاقة المصطلح بالمفهوم علاقة واحد لواحد.

المعجم

أنظام هو أم رصيد من المفردات؟

يوصف مفهوم ما بأنه نظام إذا قامت علاقة تكافل بين مكوناته بحيث يتوقف أداء كل منها لوظيفته على طبيعة وظيفة الآخر، فى هذه الحالة ينسب للبنية العامة للمفهوم الخاضع للدراسة أنها نظام أكبر، وأن هذه البنية العامة أقسامًا فرعية يعد كل منها نظامًا فرعيًا. ومن الممكن أن نضرب لذلك مثلاً أنظمة الحكم فى الدول المختلفة؛ إذ تتألف الدولة من مجلس للوزراء يمثل النظام الأكبر للدولة، ثم ينقسم هذا النظام إلى نظم فرعية هى الوزارات المختلفة الوظائف، ثم تنقسم كل وزارة إلى عدد من الإدارات ذات الوظائف المختلفة أيضًا، وهلم جرا، وتعتمد كل وحدة من وحدات هذه الأنظمة فى أدائها لوظيفتها على تخصص غيرها من الوحدات، من ذلك مثلًا أن تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة عن المحاكم التابعة لوزارة العدل يقع فى اختصاص وزارة الداخلية، وأن وزارة الزراعة تعتمد فى أداء مهمتها على وزارات أخرى منها وزارة الرى، وهكذا يبدو الأمر فى شأن اللغة؛ إذ كشف اللغويون فيها عن هيئة النظام، وجعلوا لها نظمًا فرعية كنظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو، وكشفوا تحت كل واحد من هذه الأنظمة الفرعية عن نظم تتفرع منها، ولكنهم عندما تأملوا طبيعة المعجم لم يلحظوا فيه ما يدعو إلى وصفه بأنه "نظام"، وإنما عدوه حشدًا من الكلمات المفردة التى تبدو فى صورة رصيد يجرى الانتفاع به فى الاتصال بمعونة النظم الثلاثة المذكورة: الأصوات والصرف والنحو.

وربما كان هذا الرأى الذى رآه اللغويون فى شأن المعجم مبنيًّا على نظرتهم إلى طبيعة العناصر التى يتكون منها المعجم، وهى الكلمات المفردة ذات المعانى المفردة أيضًا وهى تتغير بحسب المطالب الأسلوبية الفردية. واللغويون يعلمون أن المعنى الدلالى الذى يسعى إليه الاتصال معنى سياقى غير إفرادى، أضف إلى ذلك أن المعانى المفردة يصيبها الخلط أحيانًا عن طريق الترادف أو الاشتراك اللفظى أو التضاد أو بعض الظواهر التى تحول دون الثبات الذى هو جزء من طبيعة النظام. ورأوا كذلك أن محتويات المعجم قد ترفض التصنيف المحكم الذى ينبنى عليه النظام، وكانت وجهة نظرهم هذه سببًا فى حكمهم أن المعجم لا يصلح أن يكون نظامًا على نحو ما صلحت النظم اللغوية الثلاثة: الأصوات والصرف والنحو.

هناك نوعان من المعانى المفردة: أحدهما وظيفى والآخر معجمى. فأما المعنى الوظيفى فإنه دلالة العنصر اللغوى على معنى عام مثل معانى الضمائر والإشارات والموصولات، أو على وظيفة سياقية كعلاقة الربط بين عناصر السياق، وهذه هى وظيفة الأدوات وحروف المعانى. فوظيفة حرف العطف هى ربط المعطوف بالمعطوف عليه، ووظيفة حرف الجر تتمثل فى ربط المجرور بالمتعلق. ووظيفة أداة الشرط هى ربط الشرط بالجواب، ووظيفة أداة القسم ربط الجواب بجملة القسم، وهلم جرا. ومظنة مكان دراسة المعنى الوظيفى هى كتب النحو ويندر أن ينص عليها المعجم. وقد عمل بعض النحاة على التأليف فى حقل المعانى الوظيفية كما نرى فى كتب مغنى اللبيب لابن هشام، والجنى الدانى للمرادى، ورصف المبانى للمالقى.

أما النوع الثانى من المعانى المفردة فهو المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمات المفردة ذات الأصول الاشتقاقية والصيغ الصرفية فى الغالب، ومن شأن هذه الكلمات المفردة المذكورة أن تدل على الأشياء والأحداث كما يبدو من التخطيط التالى:

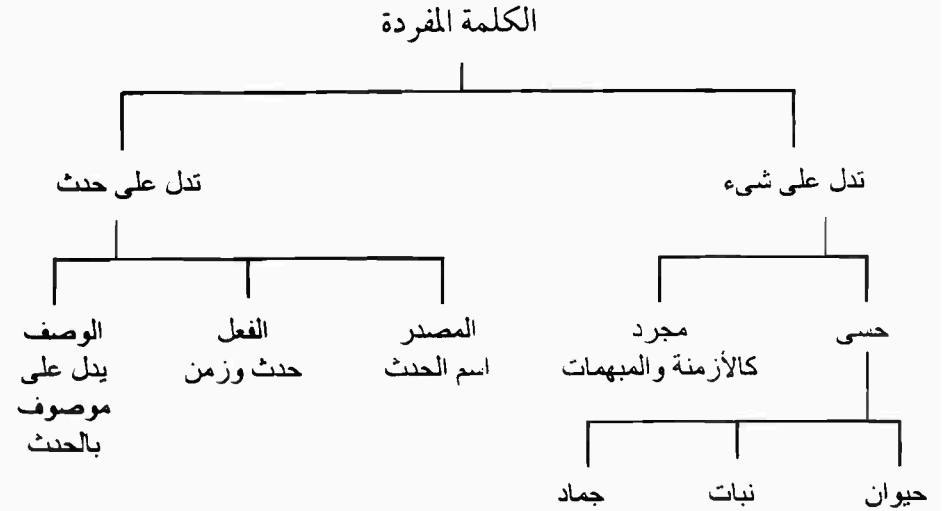

هذان النوعان (الوظيفى والمفرد) يتضافران للكشف عن المعنى الذى تدل عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليهما وظيفة المعجم من جهة أخرى، على الرغم مما سبق من قولنا إن مظنة الكلام عن المعنى الوظيفى هى كتب النحو. فإذا كان الأمر كذلك فبنا أن نعود إلى ما اشتمل عليه عنوان هذا البحث من أن المعجم (الذى رآه اللغويون رصيدا من المفردات) هو فى الحقيقة نظام ذو شبكات وعلاقات وثيقة يقوم المعنى على أساس الاعتراف بها.

وفيما يلى بيان للعلاقات التى تترابط بها محتويات المعجم وهى المبرر لتغيير النظرة إلى طبيعة المعجم والمساعد على تحويل الكيان المعجمى فى أفهامنا من كونه رصيدًا من المفردات إلى كونه نظامًا من أنظمة اللغة:

١ - الترابط بواسطة أصول الاشتقاق.

٢ - التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.

٣- بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين.

٤ - النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصلى وغير الأصلى من المعانى.

٥ - أثر المسموع فى بيان الأصلى من غيره.

٦- الحقول المعجمية وأثرها فى تكوين السياق.

٧- المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.

٨- فكرة النقل وأثرها فى مرونة النظام المعجمى.

وسنحاول فيما يلى أن نبين المقصود بكل من هذه الخصائص، وعلاقة ذلك بالاعتراف بأن المعجم نظام:

اللغة نظام أكبر يشتمل على أنظمة فرعية كما أشرنا منذ قليل. وهذه الأنظمة الفرعية بينها علاقة تدريجية؛ فأدناها درجة هو النظام الصوتى ثم الأنظمة الصرفى ثم النظام المعجمى ثم النظام النحوى. وكل واحد من هذه الأنظمة يقوم مما دونه مقام الثقب الأسود فى عالم الفلك. فيمتص ما دونه من نظام حتى يصيره جزءا من تكوينه؛ ليصير النظام الصوتى جزءًا من النظام الصرفى، كما يصبح النظام الصرفى جزءًا من النظام المعجمى ويصبح مجموع ذلك جزءًا من النظام النحوى.

النظام الصوتى أبسط الأنظمة اللغوية، حيث إنه يقتصر اهتمامه على الأصوات المفردة غير المرتبطة بأى سياق تركيبى حتى عندما يتخطى نظرة الأداء إلى تجريد الوحدات الصوتية (الفونيمات). فدراسة الأصوات ودراسة الفونيمات لا تتجاوزان محورى المخارج والصفات، تاركتين ما عدا ذلك من دراسات صوتية (كظواهر طلب الخفة: من إدغام وإعلال وإبدال ونقل وقلب وحذف وزيادة) ليكون تناولها فى نطاق النظام الصرفى، لأن هذه الإجراءات لا تكون للصوت المفرد الذى يهتم له النظام الصوتى.

أول ما يعنى به النظام الصرفى هو تقسيم الكلم انطلاقًا من دلالاتها وتقلباتها. فأما من حيث الدلالة فالمقصود بها وظائف أقسام الكلم التى تكون لها فيما بينها عند الاستعمال، وهذا التناول الذى ينبغى على وجهة نظر تركيبية هو التناول الوحيد الذى يربط النظام الصرفى بالناحية السياقية وهى فى أساسها سمة من سمات النظام النحوى كما سنرى بعد قليل. أما الأفكار الصرفية الأخرى فهى من قبيل تجريد العناصر المفردة الأصول كأصل الوضع وأصل الاشتقاق وأصل الصيغة ونسبة

المعانى الوظيفية إلى الصيغ الصرفية. ولا يقف النظام الصرفى عند هذا الحد، وإنما يعمل على إنشاء علاقة بين أصل الوضع وبين بعض الصيغ تسمى: "علاقة العدول" ويربط التحول من الأصل إلى الفرع بطرق إجرائية أدواتها ما مر بنا منذ قليل مما أطلقنا عليه اسم: "ظواهر طلب الخفة" ورأيناه هبة من نظام الأصوات لنظام الصرف.

والمعجم هو الثقب الأسود الذى يبتلع نظامى الأصوات والصرف. ففى عنوان المادة المعجمية يتمثل أصل الوضع وأصل الاشتقاق كلاهما فى حروف ثلاثة مفرقة، ثم تأتى الكلمة المفردة وما يتصل بها من جمع إن كانت اسمًا أو من تعدية أو لزوم إن كانت فعلا مع ضبط حركاتها ومدودها فى كل الحالات ثم علاقاتها بغيرها من مفردات مادة اشتقاقها ومع ما يطرأ على معانيها من تعدد والاستشهاد على كل واحد من معانى الكلمة المفردة... إلخ.

غير أن أهم ما يدل على أن المعجم نظام بالإضافة إلى ما سبق إنما هو "الحقول المعجمية"، والمقصود بالحقول المعجمية أن المفردات التى يشتمل عليها المعجم لا ينتظمها معنى واحد، وإنما تتنوع دلالاتها بحسب تنوع مواقع مدلولاتها فى مجال المدركات. فلو أن قائلا قال: "رأيت" الفضيلة فى جزاء الأجواء" تبين لك أن ثمة تباينا فى الانتماء إلى حقول المفردات المعجمية يحول دون التقاء هذه المفردات فى سياق واحد. وتوصف هذه الظاهرة بأنها "مفارقة معجمية" ويوصف عكسها بأنه "مناسبة معجمية". وسنرى بعد قليل أن المناسبة المعجمية جزء من مفهوم قرينة التضام فى نظام النحو. هذه المناسبة المعجمية وما أشرنا إليه منذ قليل من تعدى الفعل أو لزومه يتنافيان مع الطابع الإفرادى الذى ينسب إلى المعجم وإن كانا لا يبطلانه. أضف إلى ذلك ضرورة الاستشهاد بالنصوص على المعنى وهو ما يحتمه تعدد المعنى للفظ الواحد.

بهذا تكون الأنظمة الثلاثة السابقة قد هيأت للنحو كل ما يحتاج إليه من وسائل لفظية وتركت له العناية بالعلاقات وبالقرائن الدالة على هذه العلاقات. فالنحو يبحث فى أمر علاقات من قبيل الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية والرتبة

والربط ونحو ذلك بعد أن تهيأت له وسائل النظر فى ذلك بواسطة ما قدمته له الأنظمة الثلاثة السابقة.

دعنا بعدما قدمنا من طبيعة المعجم ننظر فيما يلى:

١- إذا أردنا أن نبحث عن معنى كلمة فى المعجم فأول ما نصادفه هو رسم الكلمة، ثم يأتى بعدها أصل اشتقاقها فى صورة حروف ثلاثة متقطعة. فإذا كانت الكلمة المطلوبة هى "جاه" مثلا وجدنا بعد رسمها حروفا ثلاثة هى (و ج ه)، وعرفنا من ذلك أن هذه الحروف تلخص علاقة بين طائفة من المفردات مما يتصل بمعنى "الوجاهة"، وأن قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ معناه أنه كان عند الله ذا جاه. وسنعرف أيضًا من هذه الأصول أن هناك كلمات أخرى تشارك لفظ "جاه" فى أصل اشتقاقها ولكنها تختلف عنه فى المعنى أحيانًا، مثل الوجه والجهة والوجهة والتوجيه إلخ. وعرفنا أن أصل الاشتقاق ينبئ عن علاقة بين عدد من الألفاظ، وهذه العلاقات تسود فى نظام المعجم لتصبح واحد من مكونات هذا النظام.

٢- إذا عرفنا هذا النوع من العلاقات الرابطة بين مكونات النظام فإن من المفيد أن ننظر فى علاقات التمايز والفروق وهى علاقات ضرورية لتكوين النظام أيضًا. ومن الواضح أن التعبير عن هذا التمايز بين المفردات يكشف عن اختلاف الصيغ الصرفية التى تقع كل منها فى نطاق معنى وظيفى بعينه. فإذا رأينا الفرق بين "قاتل" و"قتال" و"قتيل" إلخ (وهى من أصل اشتقاقى واحد) عرفنا أن الفرق يكمن فى اختلاف الصيغ. فإحدى الصيغ تدل على محدث للقتل لم يتكرر منه القتل، أو دون اهتمام منا بعدد مرات القتل؛ وأما الصيغة الثانية فتدل على تكرار القتل من هذا الموصوف بالصيغة، وأما الصيغة الثالثة فتصف شخصًا وقع عليه القتل. تلك هى الفروق التى تتحقق من خلال اختلاف صيغ المفردات.

٣- والفرق المذكور بين المعنيين يعد وظيفة للصيغة، ولهذا سمى: "معنى

وظيفيًا"؛ لأنه لا يشير إلى تباين فى مفاهيم خارجية من قبيل الأشياء والأحداث. وإنما يشير إلى وصف بإجراء الحدث الذى جاء مرة فى صورة اسم الفاعل، ومرة فى صورة المبالغة، وثالثة فى صورة اسم المفعول وهنا تحقق اختلاف المعنى الوظيفى بحسب اختلاف الصيغة. وقد درج النحاة على أن يصفوا المعنى الوظيفى بأنه" معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". ونسبوا إلى هذا المعنى أنه سبب من أسباب البناء (المضاد للإعراب) فى حالة الأدوات وحروف المعانى والضمائر والموصولات والظروف الأصلية (غير المنقولة). أما فى شأن المعجم فإن الصيغة ليس لها وجود مستقل يستدعى البناء فى مثل الصيغ الثلاث المذكورة منذ قليل، ومن هنا لم يكن معناها العام من أسباب البناء فتبنى المفردات الواردة على مثال هذه الصيغ. وأما أهمية الصيغة فى إطار النظام المعجمى فلكونها تعين (بما لها من نواحى الاتفاق والاختلاف) على رؤية علاقات وتصنيفات فى إطار النظام المعجمى.

٤- كانت المادة الأصلية للدراسة اللغوية العربية هى النصوص المروية عن فصحاء العرب (ويسمونها: المسموع من كلام العرب) وحين تأمل اللغويون هذه المادة المسموعة وجدوا ظاهرتين: إحداهما تعدد اللفظ للمعنى الواحد كما فى أسماء الأسد والسيف إلخ (وسموها الترادف)، والأخرى تعدد المعنى للفظ الواحد كالذى نجده من تعدد معانى "ضرب" على النحو التالى: ضرب زيد عمرا (= صفعه) – ضرب الله مثلا (= أورده) – ضرب فى الأرض (= سعى) ضرب له موعدا (= حدده) – ضرب عليه ضريبة (= فرضها) – ضرب ٥ فى ٦ (= حسبها) – ضرب العملة (= صاغها) إلخ. فكان عليهم أن يوازنوا بين هذه الاستعمالات، وأن يعينوا الأصلى منها والأقل أصالة. فاتجهوا إلى تجريد الأصل، ونسبوا هذا الأصل إلى الوضع، أو نسبوا المعنى إلى الوضع، وجعلوا ما عدا المعنى الأصلى أحد معنيين:

أ- معنى تنقصه الشهرة والشيوع فى الاستعمال، ولكنه مما ينسب إلى اللفظ كما رأينا فى بعض معانى الفعل "ضرب" منذ قليل.

ب- ومعنى آخر جاء عن طريق النقل من المعنى الأصلى إلى دلالة أخرى لا يبررها العرف العام، ولكن تقوم قرينة معينة على إرادتها هى دون المعنى الأصلى. والمقصود بالنقل أن يتحول اللفظ فى الاستعمال من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم (بحسب نظام اللغة) إلى قسم آخر فيعامل معاملة هذا القسم الآخر كما يلى:

* - "إذا" ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها قد تنقل إلى أحد المعانى التالية:

المصدرية، نحو: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أى بعد أن هديتنا.

التعليل، نحو: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى لأنهم.

الاستفتاح، نحو: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾؛ أى: لقد قال.

*- "إلاّ" من حروف الاستثناء ولكنها قد تنقل إلى ما يلى:

الاستدراك، نحو ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾؛ أى: لكن تذكرة.

وكذلك ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾؛ أى: لكن.

*- "المصدر" وهو اسم الحدث قد ينقل إلى استعمال الفعل.

*- "ما" موصولة ولكنها تنقل إلى النفى والشرط والاستفهام والتعجب، وهلم جرا. ولكن أوفر صور النقل حظًّا من الشهرة هى صورة المجاز الذى يعرّف بأنه:

"نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى".

يتضح من ذلك أن ظاهرة النقل لم تلفت نظر النحاة بقدر ما لفتت نظر البلاغيين؛ إذ إن النحاة لم يلحظوها إلا فى بابين من أبواب النحو هما باب اسم العلم

(ومنه منقول كفضل وأسد) وباب التمييز المنقول عن الفاعل أو عن المفعول (والفاعل المعنى انصبن بأفعلا).

٥- ولعل أوضح ما يبرر دعوى كون المعجم نظامًا فكرة الحقول المعجمية. كلنا يعلم أن الجملة العربية تتكون من مسند إليه ومسند، وقد تضاف إليهما مكملات ذات شروط صياغية معينة. فقد تكون الجملة من فعل وفاعل، وقد تكون من مبتدأ وخبر. ثم إن الفعل قد يكون متعديًا وقد يكون لازمًا، فيصل إلى المفعول بحرف جر يخضع للاستبدال بحسب العلاقة بين الحدث الذى فى الفعل وبين مدخول هذا الحرف. هذه الطبيعة فى تكوين الجملة العربية اقتضت أن يكون فعل ما صالحًا أن يسند إلى فاعل ذى شروط خاصةً وأن خبرا فى الجملة الاسمية لا يسند إلا إلى مبتدأ ذى شروط معجمية معينة. وأن الحال تتطلب صاحبًا لها يمكن وصفه بها (لأن الحال وصف لصاحبها فى المعنى). وهكذا تقوم بين المعانى النحوية علاقة المناسبة المعجمية التى تجعلها صالحة للتضام فى السياق، أو علاقة مفارقة معجمية تنفى أن يكون أحد اللفظين مصاحبًا للآخر. فيمكن أن يقال مثلًا: "أحس فلان بالحرج أن يرفع صوته بالغناء"، ولا يقبل من قائل أن يقول: أحس البساط بالفرحة تطير فى نسيجه. ذلك أن الفعل "أحس" يتطلب فاعلا ذا قدرة على الإحساس والبساط لا حس له وهو غريب عن فكرة الحرج والفرح. ومن هنا توصف الجملة التى قيلت عنه بالفساد؛ لأن المفارقة المعجمية حكمت بفسادها، وهذا ما وصفه سيبويه بالإحالة.

وللمناسبة المعجمية درجات أرفعها منزلة أن تكون بين اللفظين مشاركة فى الأصل الاشتقاقى فيتحقق بذلك عدد من الأواصر بين طرفى المناسبة (الاشتقاق والمشاركة فى المصدر والمشاركة فى أصل المعنى). انظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾. أو إلى قوله جل شأنه: "﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ وستجد المناسبة واضحة فى المحاور الثلاثة التى ذكرناها منذ قليل. فهذه

أعلى درجات المناسبة بين عناصر الجملة العربية؛ لأن السؤال لا يكون إلا من سائل والقول لا يكون إلا من قال. وهكذا تقترب المناسبة من الحتمية.

والمناسبة بدرجاتها المختلفة شرط من شروط التضام النحوى؛ فالتضام يتكون من الأمور التالية:

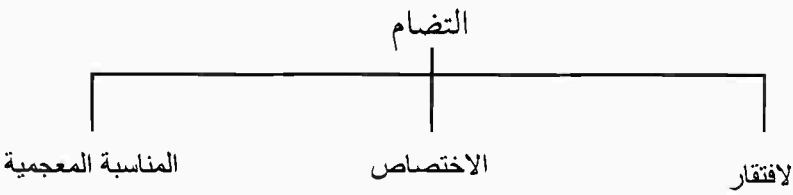

ومعنى الافتقار أن بعض كلمات اللغة لا تفيد إلا إذا ضمت إليها كلمات أخرى بعينها، أو عناصر لغوية أكبر من الكلمة المفردة. فحرف الجر مفتقر إلى مجرور، والموصول مفتقر إلى جملة الصلة، و"يا" النداء مفتقرة إلى منادى، وأداة الشرط مفتقرة إلى شرط وجواب، إلخ. والاختصاص عنصر آخر من عناصر التضام يتعين بحسبه أن يقع العنصر اللغوى فى موقع بعينه بحيث لا يرد بعده إلا عنصر معين كاختصاص "لم" بالدخول على المضارع، أو قسم من أقسام الكلم كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال، وهلم جرا. ومن الواضح أن بين الاختصاص والمناسبة المعجمية وجه من الشبه؛ لأن كلا منهما مشروط بأن يصحب ما يتفق معه فى سمات المعنى.

هكذا نكون قد عرفنا عناصر التضام الثلاثة، وعرفنا أن النظام المعجمى مسئول عن بعض مظاهر التضام النحوى؛ فمثله فى خدمة النحو كمثل نظام الأصوات ونظام الصرف. انظر مثلًا إلى البيت التالى الذى نام المتنبى عن شوارده وسهر له الخلق واختصموا حول سبكه:

فأصبحت بعد خط بهجتها كـان قفـرا رسومهـا قلـما

أى فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها (تأمل فساد التضام). ولعل كل ما سبق من كلام عن الحقول المعجمية وصلتها بالمناسبة المعجمية ينصبّ

على المعنى الأصلى الذى ينسبه النحويون إلى أصل الوضع، وبذلك يكون هذا المعنى من تجريدات المفاهيم النحوية. أما المعنى المعتمد على النقل فهو إجراء أسلوبى يقوم به المتكلم.

كان من المنطقى مع القول بتجريد المعنى الأصلى أن لا يتعدد هذا المعنى (لأنه جاء بأصل الوضع)، ولكن رواية اللغة لم يكن مصدرها كلام قبيلة واحدة، بل تعددت قبائل الفصاحة فى عرف النحاة حتى بلغت ست قبائل أو نحوها. فأية كلمة مفردة اختلف معناها من قبيلة لأخرى رأى اللغويون أن هذا العدد من المعانى ينسب (على رغم تعدده) إلى أصل الوضع؛ ومن حقه أن يراعى جميعه فى توزيع الحقول المعجمية، وفى مبدأ المناسبة بين الألفاظ المفردة، ثم فى ترتيب شرح مواد المعجم أيضًا. فالمعنى المفرد معجميًّا كان أم وظيفيًّا من شأنه أن يقبل التعدد والاحتمال، ثم لا يذهب هذا الاحتمال إلا بوضع الكلمة المفردة فى سياق ذى قرينة تدل على خصوص المعنى المراد.

من المعروف أن افتقاد المناسبة المعجمية يفسد المعنى كما مر. ولكن هناك ظاهرة أسلوبية تحول (مع عدم المناسبة) دون فساد المعنى، وتلك هى ظاهرة "النقل" التى سبقت الإشارة إليها، والتنبيه إلى أنَّ البلاغيين كانوا أكثر احتفاء بها من النحاة. لقد وضع البلاغيون للنقل قاعدة مطردة يتحول الكلام بحسبها من الحقيقة إلى المجاز. ولقد عرّف البلاغيون المجاز كما مر، وسموا النقل مجازًا أى جوازًا من نقطة إلى أخرى (وهذا هو المقصود بالنقل أيضًا).

نقف عند هذا الحد وقفة تأمل فى طبيعة النظام فى عمومه، ثم نحاول بعد ذلك أن نستخرج من هذا التأمل صدق الدعوى التى ادعيناها أن المعجم نظام، وليس مجرد رصيد من الألفاظ المفردة. فمن شأن كل نظام أن يقوم على أساس نوعين من أنواع العلاقات الكبرى هما: علاقات اتفاق (بين عناصر النظام) وعلاقات اختلاف (أى فروق) بين هذه العناصر. فأما علاقات الاتفاق فإنها تعين على التبويب (أى وضع العناصر المتشابهة فى مجموعات)، وأما العلاقات الفارقة فإنها

تعين على تمايز هذه المجموعات كل منها عن الأخرى. وباستعمال الاتفاقات والفروق يمكن أن يتحقق النظام، ويمكن عندئذ تجريد الأقسام والاصطلاح لها. وهكذا يمكن تلخيص فكرة النظام بأنه بناء من العلاقات والتجريدات المعبرة عن هذه العلاقات.

فإذا نظرنا إلى المعجم فى ضوء هذه الحقائق أدركنا ما له من طابع النظام وأن هذا النظام يبدو على النحو التالى:

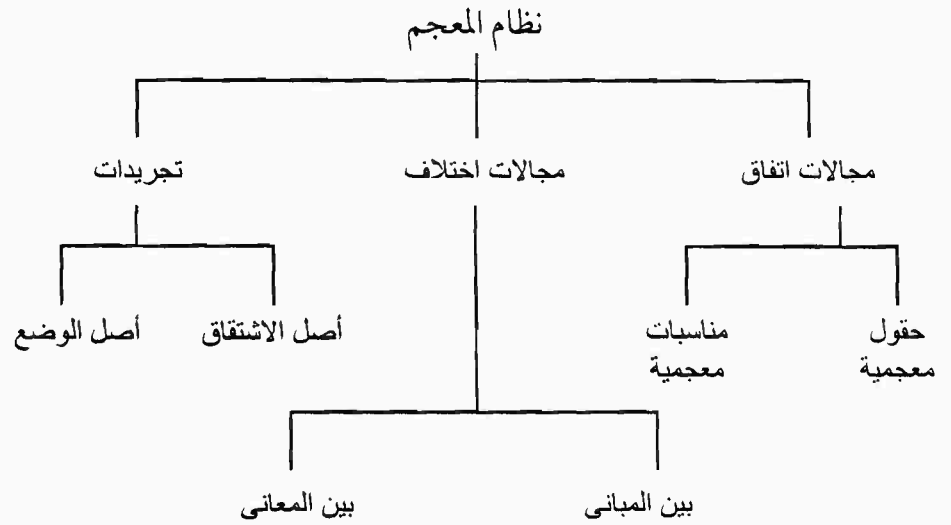

هذه العناصر التى يتكون منها نظام المعجم يتفاعل بعضها مع بعض، كما أن نظام المعجم ذاته يتكافل مع النظم اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف والنحو) فى سبيل إنتاج النص اللغوى. والمعروف أن الوصول إلى المناسبة المعجمية فى الاستعمال يتطلب وجود الحقول المعجمية، وهذه الحقول تقوم على العلاقات بنوعيها بين المفردات. وبهذا يتضح أن المعجم نظام وليس رصيدًا من المفردات.

فإذا سلمنا بأن المعجم نظام ذو علاقات بين مكوناته كان لزامًا علينا أن نبين طبيعة هذه العلاقات وظروف قيامها بين عناصر السياق. فالعلاقات بين مفردات المعجم فى سياق النص إما أن تكون عرفية وإما عقلية وإما تخييلية.

فالعلاقة العرفية بين عنصرى المعجم فى السياق أن يستعمل كلاهما بحسب أصل الوضع فيقال عندئذ إن بينهما مناسبة معجمية. فإذا قلنا: الماء سائل شفاف، فقد ذكرنا كلًا من عناصر الجملة وقصدنا به معناه الحقيقى. ولو أن المناسبة المعجمية لم تكن قائمة بين مفردات الجملة لكان الكلام غير مقبول لدى السامع، ولصح الحكم بفساد الكلام.

أما العلاقة العقلية فمدارها على المنطق الطبيعى غير الصورى ولا القياسى الذى يتجه الذهن إلى معناه عند ذكر كلمة "المنطق" حال إفرادها. والمقصود بالمنطق الطبيعى هو الذى يتمثل فى المقولات العشر التى هى: الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة والوضع والملك والفاعلية والقابلية. دعنا نسلم بأن الكلمة ذات جوهر يتمثل فى نطقها أثناء الكلام، وذلك النطق هو المقصود بلفظ "الذكر". إذا سلمنا بهذا عرفنا أن الحذف علاقة تقوم بين الكلمة وبين القرينة الدالة على قصدها فى الاتصال على الرغم من عدم ذكرها. ومعنى هذا أن مقولة الجوهر هى الإطار المنطقى الطبيعى الذى يتم الحذف فى نطاقه. ولا حذف إلا بقرينة تدل على المعنى المقصود.

ومقولة الكم هى التى عبر عنها البلاغيون بلفظين من ألفاظ علاقات المجاز المرسل هما: الكلية والبعضية كما عبروا عن مقولة الزمان بعبارتى ما كان وما يكون، وعن المكان بعبارتى الحالية والمحلية، وعن الإضافة بالتضمن وعن الوضع باللزوم. . . إلخ. هذه هى علاقات المجاز المرسل، ولا يستغنى أى منها عن القرينة، إلا اللزوم فإنه إذا لم تقم معه قرينة على المعنى المراد خرج من دائرة المجاز المرسل إلى معنى الكناية.

وهكذا نرى أنه فيما عدا الأسلوب الحقيقى القائم على استعمال الكلمات بمعناها الأصلى الذى ينسب إلى أصل الوضع نجد أن العلاقتين العقلية والتخييلية تقومان على مبدأ العدول عن الأصل بواسطة "النقل" من المعنى الأصلى العرفى للكلمة إلى معنى آخر عقلى أو تخييلى لعلاقة بين المعنيين يسمونها وجه الشبه، مع قرينة مانعة من

فهم المعنى الأصلى لها طبيعة المفارقة (فى حالة المجاز والاستعارة) ومع عدم القرينة مطلقًا (فى حالة الكناية). دعنا نضرب مثلًا للعلاقة والقرينة بقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾؛ فالعلاقة (أو وجه الشبه) هنا هى الاستبدال القائم فى الشراء والاستبدال على إطلاقه، وكان من الممكن أن يقنع التركيب بالمعنى العرفى فيكون التعبير على صورة (أولئك الذين استبدلوا الضلالة بالهدى). ولكن إرادة المجاز أدت إلى حذف المشبه (وهو مطلق الاستبدال وإقامة المشبه به مقامه لما بينهما من علاقة (أى وجه شبه لأن فى كليهما استبدالا) فجاءت العبارة على صورة ما قالته الآية الكريمة. والقرينة الدالة على ما تم من إجراءات المجاز وعدم إرادة المعنى الحقيقى للفظ الشراء هى المفارقة المعجمية بين الشراء وبين الضلالة والهدى. فلا الضلالة تصلح أن تكون سلعة ولا الهدى يصلح أن يكون ثمنًا. هذا هو شأن المجاز؛ أما الكناية فلا تستدعى القرينة.

بهذا يتضح أن المعجم يمثل واحدًا من أنظمة اللغة التى تقوم على علاقات جامعة وأخرى فارقة، وتبدو هذه العلاقات بنوعيها من خلال الحقول المعجمية والاستصحاب للأصل والعدول عنه. وأخيرًا أقول: إنه لولا أن المعجم نظام ما استطاع طالب معنى الكلمة أن يحدد مكانها بين مداخل ألفاظه عندما يتناول المعجم بيده أو قبل ذلك.

إبداع المعنى فى اللغة العربية

من منظور تعدد الحقول المعرفية

لعل أهم الجوانب فى دراسة الاتصال اللغوى هو جانب المعنى، ذلك بأن الاتصال يتم بواسطة الإلقاء والتلقى، ويسعى المتلقى دائمًا إلى إدراك مقاصد الملقى. وقد تقوم العقبات فى سبيل إدراك هذه المقاصد فيكون ذلك سببا فى فشل مشروع الاتصال، بل إنَّ الملقى نفسه قد يكون سببًا فى إفشال هذا المشروع، إما عن عمد وإما عن غفلة. فأما العمد فإن اللغة قد تتخذ وسيلة لإخفاء المقاصد الحقيقية للملقى وتضليل المتلقى، على نحو ما يحدث أثناء المفاوضات السياسية، أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالألغاز والتعمية مثلًا. وأما الغفلة فقد يأتى خفاء المعنى بسبب ما ينشأ عن بعض التراكيب من اللبس الذى يكون سببًا فى تعدد احتمالات المعنى بحيث تقوم الحاجة إلى قرينة تدل على إرادة واحد منها دون غيره، كما فى قولنا: "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" إذ لا يدرى السامع من الذى زار ومن الذى سعد بالزيارة. ومثل ذلك قولك: "زرت جميع متاحف الآثار المصرية" إذ يصلح لفظ "المصرية" لوصف المتاحف كما يصلح لوصف الآثار، إلا أن تقوم قرينة على إرادة أحد المعنيين.

واللغة نظام يربط بوسائله المعينة بين ما يقال وبين طريقة فهمه، سواء كان القول سعيا إلى إيضاح القصد أم إلى إخفائه. وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام

الطابع العرفى للأداء اللغوى كما يكون إخفاء القصد ألصق بالطابع الأسلوبى الفردى. ويرتبط ذلك من جهة أخرى بدرجة الإعلامية فى النص؛ فإعلامية النص قد تكون فى الدرجة الدنيا كحين يتفق اللفظ فى ركنى الجملة نحو: الحق حق والباطل باطل، إذ لا يضيف الخبر شيئًا إلى ما عبر عنه المبتدأ، ومثله ما نجده فى قول أبى الحسن الأشعرى: «من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أبو الحسن الأشعرى..» إلخ، وذلك عندما أعلن هجره للاعتزال وانفصاله عن المعتزلة. فهذه الدرجة الدنيا من الإعلامية تفتقر إلى إعلاء يرقى بها إلى الدرجة الوسطى (وهى الدرجة المثلى فى الإعلامية) ليؤولها المتلقى إلى معنى مقبول. أما الدرجة العليا من الإعلامية فهى درجة الألغاز والتعمية، وهى تحتاج إلى خفض يهبط بها إلى مستوى الدرجة الوسطى التى يسهل بها فهمها عندما يجرى فك شفرتها من قبل المتلقى.

وإذا كانت اللغة نظامًا فإن من شأن كل نظام أن يكون مؤلفًا من وحدات متكافلة متضافرة فى أداء وظائفها. فشأن كل وحدة فى علاقتها بالأخرى هو كما قال رسول الله ﷺ: «كاليدين تغسل إحدهما الأخرى». ولهذا التكافل والثبات فى بنية النظام كان الاطراد من ثوابت النظام. بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان آخران هما أمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى. وهكذا تبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة كما يلى:

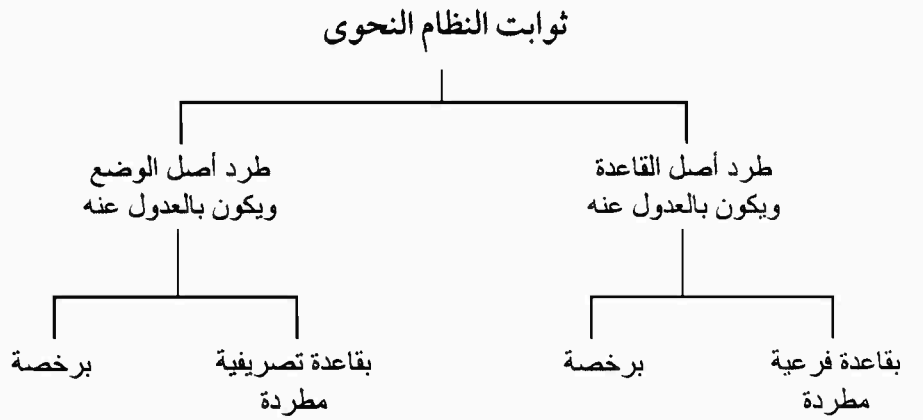

وإذا كان همنا فى هذه العجالة مرتبطًا بالمعنى فإننا سنوجه كل جهدنا إلى إدراك كنه هذا المعنى اللغوى، وذلك بواسطة ذكر أقسامه وطبيعة كل قسم منها، وطرق الإبداع فى حدود كل قسم من هذه الأقسام. وفيما يلى بيان لهذه الأقسام:

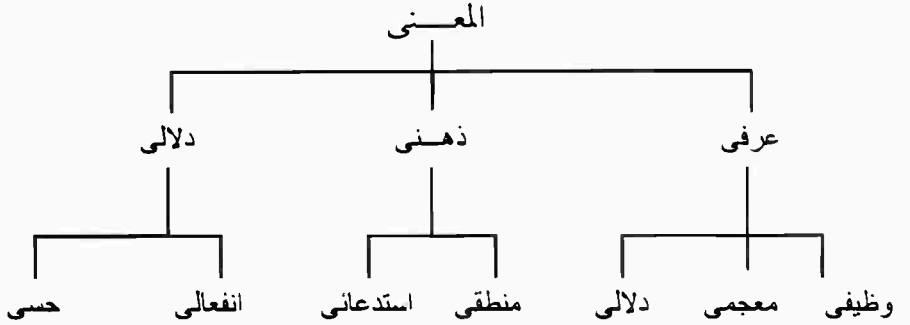

المعنى العرفى:

ينقسم المعنى العرفى كما يبدو فى الشكل البيانى إلى وظيفى ومعجمى ودلالى. دعنا أولا نلق نظرة على المعنى الوظيفى لنعلم أنه ينقسم إلى قسمين: تحليلى وتركيبى. ولقد ذكرنا منذ قليل أن اللغة نظام أكبر مكون من نظم فرعية بينها علاقة تكافل تجعل وظيفة كل منها تتوقف على وظائف النظام الفرعى الآخر. تلك النظم الفرعية هى: نظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو. فأما النظام الصوتى فيقوم على اتفاق الأصوات أو اختلافها فى المخارج والصفات، وليس للصوت اللغوى فى ذاته معنى ولكنه يتخذ وسيلة للوصول إلى معنى الكلمة. فالحركة الإعرابية صوت، ونون الرفع صوت، والأمر كذلك فى تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة وتعدية الثلاثى اللازم بالهمزة أو بالتضعيف وظواهر أخرى تكون فيها الأصوات المفردة وسيلة للوصول إلى معنى من معانى النحو. عندئذ يكون الصوت قرينة من قرائن المعنى. وأوضح ما نسبت إليه صفة القرينة من الحركات ضمة الفاعل وفتحة المفعول. ومعنى هذا أن النظام الصوتى لا يقوم لذاته ولا بذاته، وإنما يقوم بإمداد النظامين الصرفى والنحوى قرائن للمعنى الوظيفى فى نطاق هذين النظامين، كما يعين على أداء المعنى الانطباعى الذى لم يحن وقت الكلام فى شأنه.

أما النظام الصرفى فإن نصيبه من الدلالة على المعنى يتعلق ببنية المفردات وليس بالمفردات ذاتها؛ لأن المفردات ومعانيها المفردة تقع فى نطاق المعجم أما البنية وما تدل عليه من معنى عام (حقه أن يؤدى بالحرف) فهى ومعناها يقعان فى نطاق النظام الصرفى. فإذا قلنا: إن البنية التى تتمثل فى صيغة "استفعل" تدل على الطلب نحو "استغفر" أى طلب المغفرة فينبغى أن نعلم أن الطلب من المعانى العامة التى لا تقتصر على مطلوب بعينه وأن مثله كمثل دلالة اللام على التعليل ودلالة الواو على القسم. ومن هنا تكون "استفعل" قالبًا يمكن أن يصاغ على مثاله عدد لا حد له من الكلمات. كذلك إذا قلنا: إن المصدر يدل على الحدث فإن عدد الكلمات الدالة على الحدث (وهو معنى عام) قد يستعصى على الحصر. ومن قبيل ذلك أيضًا أن كل اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد، وكل صفة مشبهة تدل على الدوائم والثبوت، وأن الحال ينبغى أن تكون مشتقة ويكون التمييز جامدًا ولا يصاغ التفضيل والتعجب كلاهما إلا من أصل فعله ثلاثى متصرف دال على التفضيل وهو تام مثبت ليس الوصف منه على وزن أفعل ولا يستوى فيه المذكر والمؤنث.

ولقد جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير فى بنية المفردات فى بيئتى الجدول والسياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف فى الوظيفة التى تؤديها الكلمة المفردة، فلاحظوا ما يلى:

١- ارتباط وظيفة الكلمة فى السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.

٢- وارتباطها بما تفيده من دلالة على مسمى أو حدث أو زمن أو مجرد علاقة بين عنصرين فى السياق كدلالة حرف العطف على العلاقة بين المتعاطفين.

٣- أو كون الكلمة مصوغة على قالب بعينه يمنحها معنى عامًّا كأن تدل على فاعل أو مفعول أومبالغة أو تفضيل ... إلخ.

٤- ولاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترنًا بلفظ آخر، وأن ألفاظًا تختص بالدخول على قسم بعينه من أقسام الكلم، وأن اللفظ فى السياق من شأنه نحويًّا أن يصاحب من هو له معجميًّا.

٥- ولاحظوا أن لأقسام الكلمة فى السياق رتبًا بعضها لا يتخلف ويجوز فى البعض الآخر أن تخضع رتبته لمطالب الأسلوب.

٦- ووجدوا أن أواصر العلاقة بين كلمة وأخرى فى السياق قد تتحقق بإعادة اللفظ أو المعنى أو بعود الضمير على مذكور سابق ونحو ذلك أو بمطابقة أحد اللفظين للآخر فى التكلم أو أحد فرعيه والإفراد أو أحد فرعيه وفى التذكير والتأنيث وفى التعريف والتنكير وفى الإعراب.

٧- ووجدوا أن الألفاظ قد تذكر أو تحذف، أو تضمر أو يضمر لها أو يتصيد معناها من السياق. وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن المعنى النحوى بحاجة إلى قرائن تدل عليه فاستخلصوا من فهمهم هذا عددًا من القرائن المختلفة الطابع التى تدل على المعنى، وينتمى كل منها إلى فرع من فروع النظام اللغوى كما يلى:

أ- فالإعراب ينتمى فى جملته إلى النظام الصوتى، ولكنه قد تكون له علامة هى عنصر من عناصر الأصوات وقد لا تكون. فيبد والأمر فى صورته العامة على النحو التالى:

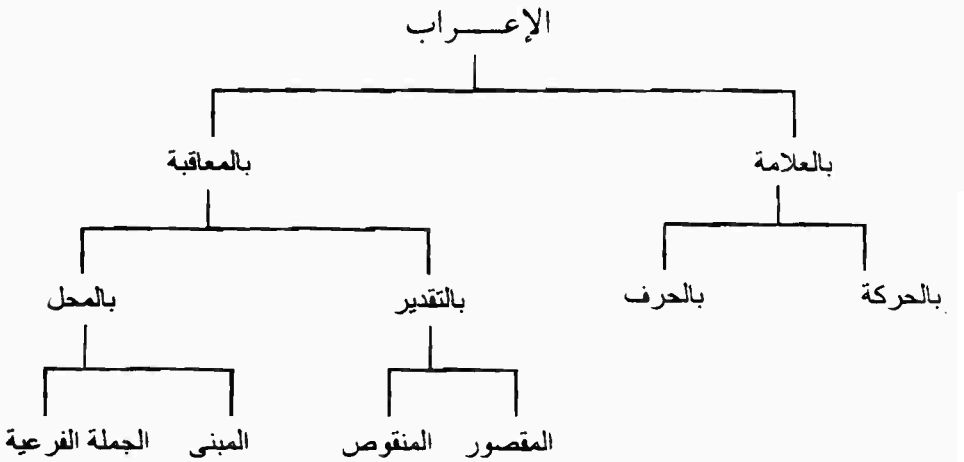

والإعراب بالعلامة إنما يكون بالحركة للمفرد الصحيح الآخر، وبالحرف للمثنى والجمع والأسماء الخمسة. وأما المعاقبة فهى للمقصور والمنقوص إذ يفترض المعرب

أن لفظًا صحيح الآخر وقع فى الموقع الذى حل فيه المقصور أو المنقوص فما الحركة التى يستحقها هذا الصحيح؟ حتى إذا عرف الحركة قدرها على آخر المقصور أو المنقوص. وللعنصر اللغوى المبنى كما للجملة الفرعية علاج آخر. ذلك أنهما لا يخضعان للإعراب لا بالحركة ولا بالمعاقبة، لأن المبنى لا يتغير آخره مهما تغيرت وظيفته النحوية، ولأن الجملة لا تخضع لما تخضع له المفردات من صور التغير الإعرابى. ومن هنا ينسب الإعراب إلى المحل.

ب- والبنية قرينة تنتمى إلى النظام الصرفى لتكون فى خدمة النظام النحوى بواسطة ما يكون لها من معنى صرفى عام كدلالتها على الفاعل كضارب أو على المفعول كمضروب أو المبالغة كضرّاب أو شرط جمودها كالتمييز أو شرط اشتقاقها كالحال أو دلالتها على المرة أو الهيئة ... إلخ.

ج- التضام، ويقع فى ثلاثة أقسام:

الأول: الافتقار: ومعناه ألا يكون اللفظ صالحا للورود بمفرده، وإنما يحتاج إلى ضميمة يكتمل بها معناه، كافتقار حرف الجر إلى مجرور وحرف العطف إلى متعاطفين والموصول إلى صلة .... إلخ. وقد يكون الافتقار للباب لا للفظ كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والمبهم إلى مفسر وهذا الأخير من علاقات النحو... إلخ.

الثانى: الاختصاص: ومعناه أن يكون العنصر اللغوى مرتبطًا من حيث وروده بعنصر ما دون غيره، كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال وكاختصاص "لم" بالدخول على المضارع.

الثالث: المناسبة المعجمية: وذلك أن يرتبط استعمال اللفظ بمصاحبة ما يناسبه من الألفاظ فى المعنى. وذلك ما يشير إليه البلاغيون بقولهم: "إسناد الفعل إلى من هو له". فمن شأن الفعل "فهم" مثلًا أن يسند إلى العاقل الذى يصح منه الفهم. ولا يجاوز ذلك بالنقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر إلا لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

د- الرتبة: وهى نوعان:

الأول: الرتبة المحفوظة: كرتبة الحرف ومدخوله، والموصول وصلته، وعنصرى الإضافة، والمبهم والمفسر، والفعل والفاعل وهى من العلاقات النحوية ....إلخ.

الثانى: الرتبة غير المحفوظة: كرتبة المبتدأ والخبر، والفعل والمفعول به أو فيه أو له، ونحو ذلك. وهذا النوع الثانى هو الذى أعان البلاغيين على التنظير لمبدأ التقديم والتأخير.

هـ- الربط وهو نوعان:

الأول: الربط بالإحالة: وذلك أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق فى سياق النص. ومن ذلك أن يعاد ذكر العنصر السابق بلفظه أو بمعناه أو بضميره أو الإشارة إليه... إلخ. كما يؤدى حرف الجر وظيفة ربط المجرور بالفعل ونحوه، ويؤدى حرف العطف إلى ربط أحد المتعاطفين بالآخر، وتؤدى الأدوات الداخلة على الجمل بما لها من رتبة الصدارة إلى الربط بين ما يقع فى حيزها من مفردات الجملة، وهلم جرا.

الثانى: الربط بالمطابقة: فى حقول المطابقة المختلفة، وهى: العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والشخص (التكلم والخطاب والغيبة) والنوع (التذكير والتأنيث) والتعيين (التعريف والتنكير) والإعراب.

و- نغمة الكلام: ولك أن تتصور تنوع المعنى المقصود بعبارة "ما هذا" بحسب تنوع النغمة أثناء الكلام بين الاستفهام الصريح وبين الإنكار. كما أن لك أن تتصور اختلاف النغمة المختلفة بين عبارة "سلام عليكم" فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص ٥٥) وهى تفيد المغاضبة وبين عبارة: "السلام عليكم" التى تقال للتحية.

ز- السياق: وهو أيضًا نوعان:

الأول: سياق النص: وهو أن يشتمل النص على قرينة تعين على فهم المعنى

لولاها ما فهم المعنى على وجهه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥) فلقد نسب بعض المفسرين معنى "ما" إلى الموصولية ليكون معنى الآية: ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم. ولكن قرينة السياق تدل على معنى النفى من جهتين: الأولى قوله تعالى: أفلا يشكرون، والثانية أن الله تعالى يقول: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ (النمل: ٦٠). فالإنسان إذا أعد طعاما لنفسه ثم أكل هذا الطعام فهو غير مطالب بالشكر، ولا يطالب به إلا إذا أكل ما أعده غيره. هذا ما يدل عليه سياق النص. أما آية سورة النمل فتدل على المعنى نفسه بطريق "التناص". والقرينة فى الحالتين تدل على أن معنى "ما" هو النفى.

الثانى: سياق الموقف: عرف التراث العربى الاعتداد بهذه القرينة فى نواح متعددة. فلقد عرفها المفسرون فى صورة أسباب النزول، وعرفها البلاغيون باسم المقام، وعرفها النحاة بظروف النطق، وأخيرًا عرفها رواة الشعر من خلال إيراد الملابسات التى قيل فيها الشعر. ومثال الانتفاع بهذه القرينة ما ندركه عند تأمل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٥) إذ يدور فى الذهن سؤال عن سبب هذا البداء حتى نعثر على الإجابة فى قوله تعالى فى آية سابقة: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف: ٣٠). فعندئذ يظن العزيز أن يوسف هو المسئول عن معرفة النسوة بهذا الخبر وقد كان العزيز أوصاه بالكتمان بقوله له: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (يوسف: ٢٩). وهكذا يكون فهم النص متوقفا على وجود قرينة سياق الموقف. وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف: ٧٦) نجد أنه لولا معرفة تفاصيل الموقف لرأينا أن تصرف يوسف عليه السلام بهذه الطريقة يعد محاولة صريحة لإلحاق الضرر بشقيقه الأصغر وانحرافًا فى السلوك لا يتناسب مع النبوة. غير أن الأمر كما يتبين من سياق الموقف يحمل دلالة على ما يلى:

١ - شوق يوسف إلى أخيه الذى دفعه إلى مطالبة إخوته لأبيه بإحضاره.

٢ - رغبته فى الاحتفاظ بأخيه عنده بعد إحضاره.

٣- تدبير مكيدة السرقة لتكون عونًا على الاحتفاظ بالأخ.

٤ - إلصاق تهمة السرقة بهذا الأخ.

٥ - بعد إثبات التهمة على أخيه لم يرد أن يطبق عليه العقوبة المعروفة فى مصر لأنه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ فسأل الإخوة عن العقوبة فى عرفهم فقالوا: ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾. أى جزاؤه أن يؤخذ فى الرق سنة كاملة.

٦ - عندئذ قرر يوسف أن يلصق تهمة السرقة بأخيه لينشئ بذلك وسيلة اتصال بأسرته واستقدامها إلى مصر.

ذلك هو سياق الموقف كما يبدو من القصة فى سياق نص السورة.

دعنا ننظر الآن نظرة تطبيقية إلى القرائن النحوية التى يتضح بها معنى الجملة تمهيدًا للنظر فى طرق الإبداع فى إجراء النص. فلنفرض أن عندنا جملة مثل: ذهب الرجل إلى حال سبيله، وكان علينا أن نوضح القرائن النحوية فى هذه الجملة. أقول: قرائن النحو وهى تختلف عن قرائن النص، ولكنها تستدعى عندما يحتاج فهم النص إليها.

١ - أول ما نلاحظه قرينة البنية التى تبدو فى المظاهر التالية:

أ- ذهب فعل فى صورة الماضى.

ب- الرجل اسم معرف بالألف واللام.

ج- إلى حرف.

د. حال اسم.

هـ- سبيل اسم.

و- الهاء ضمير غيبة.

٢- التضام، ويبدو فى المظاهر التالية:

أ- الفعل يحتاج إلى فاعل، وقد تحقق له ذلك بلفظ "الرجل".

ب- الحرف يفتقر إلى اسم يلحقه، وقد لحقه "حال".

ج- كلمة "حال" لفظ مبهم يحتاج إلى ما يخصصه من وصف أو إضافة.

د- أضيف لفظ "حال" إلى لفظ "سبيل".

٣- الرتبة، وتبدو فيما يلى:

أ- تقدم الفعل على الفاعل.

ب- تقدم حرف الجر على المجرور.

ج- تقدم المرجع على الضمير.

د- تقدم المضاف على المضاف إليه.

٤- الربط، ويبدو الربط فيما يلى:

أ- تعلق الجار والمجرور (حال) بالفعل (ذهب).

ب- عود الضمير على الرجال.

٥- الإسناد، وهو قرينة معنوية تفيد العلاقة بين الفعل والفاعل، أى أن الفعل صدر عن الفاعل أو قام به (أى أن الفعل وقع منسوبًا إلى الفاعل).

٦- الإعراب، وهو يتمثل فى أن الرجل مرفوع، وكون حال وسبيل مجرورين، كما يتمثل فى محل الضمير العائد إلى الرجل.

وبهذه العلامات (أو القرائن) مجتمعة وصلنا إلى فهم المعنى النحوى للجملة، ولكننا لم نفهم المعنى النصى من حيث لا نعلم من هو الرجل ولا الظروف التى دعته إلى الذهاب إلى حال سبيله كما لا نعلم من المتكلم ولا من السامع. ومن هنا صارت الجملة مثالًا نحويًّا ولم ترقَ إلى مستوى شاهد نصى. وعندما ذكرنا ثوابت النظام النحوى قلنا إنها ثلاثة هى: الطرد أو الاطراد وأمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى. ونود أن نضيف فى هذا الموضع أن النحاة كانوا يغارون على اطراد

قواعدهم كالذى يتضح مما كان بين عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى النحوى وبين الفرزدق الشاعر، ومن رد الفرزدق على الحضرمى بقوله: (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا). وربما فهمنا من هذا الوضع أن أمن اللبس وطلب الخفة كانا قيدين فى تحقق الاطراد، بمعنى أنه إذا أمن اللبس وتحققت الخفة أمكن العدول عن الأصل وجاز ارتكاب الرخصة. يمكن الكشف عن هذا الموقف بالاستشهاد بعبارات من ألفية ابن مالك تجعل الإفادة شرطًا للعدول فيما يلى:

ولا يكون اسم زمان خبرا عن جثة وإن يفد فأخبرا

ولا يجوز الابتدا بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمرة

فأمن اللبس فى مثل هذه المواضع كان سببًا فى العدول عن القاعدة الأصلية إلى قاعدة أخرى فرعية مما يدل على أن القاعدة معيار مقيد بأمن اللبس.

ليس ذلك فحسب؛ بل إن هناك أمرًا آخر يبيحه أمن اللبس، وهو الترخص فى المحافظة على البنية النحوية إذا أغنى عنها غيرها فأمن اللبس بدونها فلم تعد ضرورية للكشف عن المعنى. عندئذ يترخص المتكلم فى القرينة ولا يجد السامع صعوبة فى الفهم. وقد يكون من المستحسن هنا أن نضرب بعض الأمثلة لظاهرة الترخص عند أمن اللبس، وإن كان موضع ذلك سيأتى عند الكلام فى طرق الإبداع.

قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر لفظ "مزمل" مع استحقاقه للرفع لكونه نعتًا للفظ "كبير" المرفوع. والله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ بحذف همزة الاستفهام (البقرة: ١٢٤). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥) ولم يذكر مرجع الضمير الذى فى ظهرها، والمرجع هو الأرض؛ لأن الدابة لا تدب إلا عليها فالمعنى واضح واللبس مأمون فلم يتحتم ذكرها.

أما الثابت الثالث وهو ما عرفه النحاة باسم طلب الخفة فإنه يكشف عن الذوق اللغوى العربى فيما يتصل بشروط توالى الأصوات فى عملية النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثلين وتوالى المتقاربين مخرجًا أو صفة، كما يكره توالى الأضداد. ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين فى المخرج والصفة. ومن قبيل ما ساقه اللغويون فى وصف هذا الذوق ما ورد فى كتاب المزهر للسيوطى (ص١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة؛ إذ جعل المخارج أنواعًا ثلاثة هى: الأقصى والأوسط والأدنى. ثم رصد احتمالات تواليها فى النطق حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأقصى فالأوسط فالأدنى نحو لفظ "عدم". أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلًا؛ لأنهم بتجريدهم أصل وضع الكلمة استطاعوا أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة الثقل، وأن يكشفوا عن وسائل اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل الثقيل والوصول بطلب الخفة إلى غايته المنشودة بواسطة ما جردوه من قواعد تصريفية على أساس من الإدغام والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف ... إلخ. فأدغموا المثلين والمتقاربين لكراهية تواليهما ومنعوا توالى الضدين (كالصاد والجيم) مثلا وأعلوا الواو والياء فى مواقع معينة وأبدلوا حرفًا من حرف (كإبدال الطاء من تاء الافتعال بعد الحرف المفخم) ورصدوا انتقال أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما فى لفظ "جاه". وقلب حرف فى النطق إلى صورة حرف آخر كما فى "كساء وبناء" وحذف حرف ما لثقل النطق به كما فى حذف الواو فى "لتبلون". وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية سمتها السعى إلى طلب الخفة. بهذا نكون قد أنهينا القول فى المعنى التحليلى (أحد قسمى المعنى الوظيفى) لنتناول بعد إن فرغنا منه القسم الثانى وهو المعنى التركيبى، أى معنى الجملة. ويبدو هذا المعنى على الصورة الإيضاحية التالية:

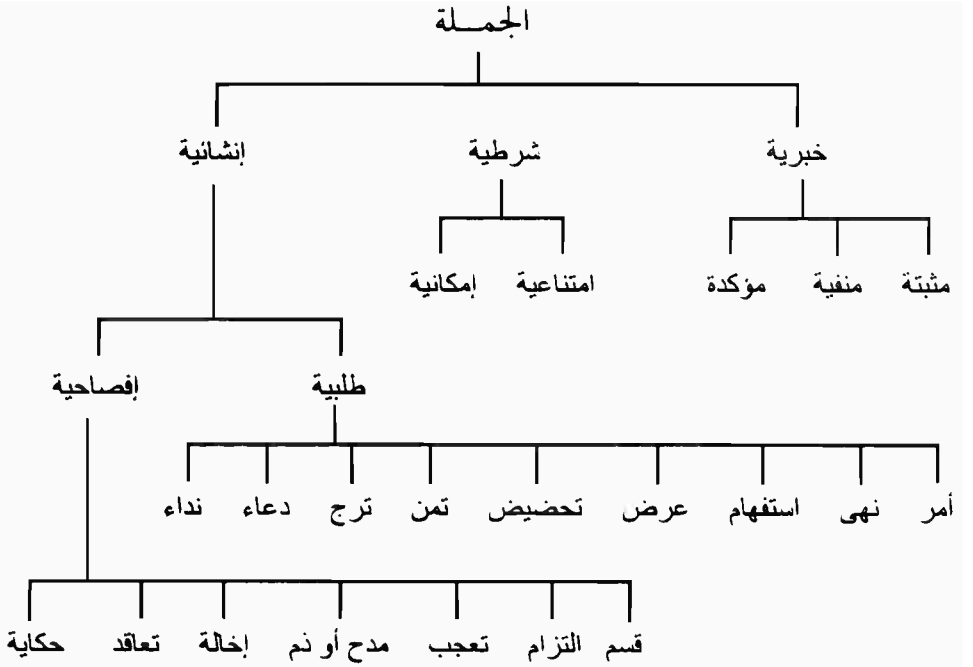

أما لفظيًّا فهى إما اسمية وإما فعلية وإما مسكوكة من عناصر أخرى.

بقى أن نتناول فى حدود المعنى الوظيفى ظاهرتين يتوقف عليهما مفهوم الاقتصاد اللغوى هما: تعدد المعنى الوظيفى، ونقل اللفظ من قسم إلى آخر من أقسام الكلم، وعندئذ يتعرض معناه للتغير. وهكذا يصبح تغير المعنى سمة مشتركة للنوعين كليهما. ومن شواهد النقل مثلًا ما نلاحظه من انتقال "إذ" من معنى الظرفية إلى معنى المصدرية فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾(آل عمران: ٨) أى بعد أن هديتنا. ومن الظرفية إلى التعليل كما فى قوله جل شأنه: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾(النساء: ٧٢) أى لأنى لم أكن معهم، وتصلح هنا للواسطة أيضًا؛ أى: لأنى لم أكن معهم. ومن ذلك ما يكون من شأن "ما" الموصولة بحسب أصل وضعها إذ تنقل إلى استعمال الحروف والأدوات، فتكون استفهامية أو شرطية أو تعجبية أو مصدرية أو زائدة، فيتعدد معناها فى نطاق الحرفية. وبذا تتحقق بها الظاهرتان معًا وهما: النقل من الموصولية إلى الحرفية ثم تعدد المعنى فى نطاق الحرفية.

هذا هو الشأن فى المفردات. أما نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر فهو أيضا من وسائل الاقتصاد فى اللغة. فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبر لنسبنا التركيب إلى الجملة الخبرية لأول وهلة، ولكننا إذا دققنا فى تفهم دلالة السياق فربما وجدنا للجملة معنى آخر كدلالة التركيب الخبرى على الأمر فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، أو الدعاء نحو: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ١٨) وقولنا "رعاك الله" أو "بارك الله فيك". كما يستعمل هذا النمط للدلالة على الشرط كما فى قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) وقوله ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء: ١٦). وكذلك يستعمل هذا التركيب فى معنى العرض نحو: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود: ٧٨)، وفى معنى الالتزام والتعاقد كقول موسى لشعيب: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ (القصص: ٢٨)، ولإفادة التعجب نحو ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥). وأما النمط الخبرى المنفى فينقل إلى الدعاء، نحو: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١)، أو إلى النهى نحو ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧). وقد يخرج النمط الشرطى إلى التعجب نحو ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ (الرعد: ٥)، وإلى التمنى نحو ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦٧) وإلى التسوية نحو ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣) أى إن كان شاكرا ... إلخ. وينقل النداء إلى معنى التعجب نحو ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ (يوسف: ١٩)، وإلى الندبة كما فى قوله يعقوب: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف: ٨٤)، وإلى الاختصاص نحو ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (الواقعة: ٥٢) وإلى التمنى نحو ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ (القصص: ٧٩). وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠)، وإلى النهى نحو: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة: ٩٠) أى لا تقربوه. وإلى العرض نحو ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ (يوسف: ٧٨)، وإلى التحدى نحو ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الشعراء: ١٨٧). وينقل

النهى إلى الدعاء نحو ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ (آل عمران: ٨)، وإلى الأمر نحو ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢) أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت، كما ينقل النهى أيضا إلى الشرط نحو ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود: ١١٣). أما الاستفهام فينقل إلى الإنكار نحو ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف: ٦٤)، وإلى التقرير نحو ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦)، وإلى النهى نحو ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء ١٦٥)، وإلى الأمر نحو ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحجر: ٧٠). بهذا يتبين أن النقل وتعدد المعنى ظاهرتان من ظواهر الاقتصاد اللغوى تعينان على الوصول بالقليل من وسائل التعبير إلى الكثير من المعانى.

والمعروف أن ظاهرة النقل من وسائل الإبداع فى المعنى، وبخاصة إذا انتقلنا من الكلام فى المعنى الوظيفى إلى تناول المعنى المعجمى. فالمعروف أن المعنى المعجمى أيضًا يتسم بالتعدد ويخضع لظاهرة النقل. ولبيان ذلك دعنا أولًا نضرب مثلًا شهيرًا لنقل المعنى المعجمى بوصفه وسيلة من وسائل الإبداع فى اللغة العربية. فحين عرّف البلاغيون المجاز قالوا إنه: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". فاذا نظرنا إلى نص هذا التعريف وجدناه يبدأ بكلمة "نقل"، فدلنا ذلك على أن النقل وسيلة من وسائل الإبداع للمعنى اللغوى. هذا من جهة النقل. أما من جهة التعدد فإننا إذا نظرنا إلى أية كلمة فى المعجم لم نجد لها معنى فريدًا لا يتعدد، وإنما تتعدد معانى الكلمة الواحدة بحسب ما يحيط بها من سياق النص (بل من سياق الموقف أحيانًا)؛ ومن هنا جاءت ضرورة الاستشهاد على المعنى المراد بالكلمة، كما تلزم الصورة وغيرها من القرائن الدالة على المراد. انظر مثلاً إلى تعدد معانى لفظ "ضرب" فيما يلى:

١- ضرب الأب ابنه > لطمه.

٢- ضرب الله مثلا > قاله.

٣- ضرب له موعدا > حدده.

٤- ضرب له قبة > أقامها.

٥- ضرب النقود > صاغها.

٦- ضرب ضريبة > فرضها.

٧- ضرب الجرس > دقه.

٨- ضرب ٥×٦ > حسبها.

٩- ضرب أخماسًا فى أسداس > ارتبك.

١٠- ضربت عليهم الذلة > أصابتهم.

فهذا التعدد فى المعنى يذكرنا بما سبق من تعدد المعنى الوظيفى للظرف "إذ" وللموصول "ما" بعد نقلهما إلى قسم الحروف؛ أى أن ظاهرتى النقل وتعدد المعنى من ظواهر النظام اللغوى بمفرداته وتراكيبه على حد سواء.

وللإبداع فى مجال المعنى العرفى وسائل أخرى تعارف عليها البلاغيون والمعنيون بالأساليب من ظواهر الوصل والفصل والتقديم والتأخير والحذف والزيادة والإضمار والقصر والإيجاز والإطناب والوقف وما أشار إليه علم النص من مفاهيم السبك والمساوقة والإعلامية ورعاية الموقف... إلخ. دعنا نورد بعض الشواهد من النص القرآن أيضًا لندلل بها على صدق ما نقوله عن هذه الظواهر.

* إن فصل الجملة عما يليها فى الكلام يدل على الرغبة فى إنهاء موقف غير مرغوب فيه من لدن أحد طرفى الاتصال (الملقى والمتلقى): فقد يرغب الملقى فى إنهاء الاتصال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ / سَلَامٌ عَلَيْكُمْ / ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

* وقد تكون الرغبة فى إنهاء الموقف من لدن المتلقى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا * هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا * أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا * تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ * مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص: ٦٢ - ٦٣). وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ / مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي / بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ

عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ / ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ (المائدة: ١١٦ – ١١٧).

فالفصل فى هاتين الآيتين الأخيرتين يدل على فزع المتلقين (الذين حق عليهم القول وعيسى عليه السلام) أثناء الإجابة عن السؤال الذى وجهه سبحانه إليهم، وعلى رغبة كل من الفريقين فى إنهاء الموقف بالسرعة الممكنة.

ومما يتصل بظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة الوقف، فالوقف أيضًا متصل بتمام المعنى ولا يكون بدونه. وقد يحدث أحيانًا أن يتوقف إدراك تمام المعنى على إحدى القرائن ويتوقف إدراك هذه القرينة ذاتها على السياق ومن هنا يكون السياق هو معيار وجوب الوقف. وذلك كما يلى:

* ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ / لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ / كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ / لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨) فالوقف واجب على "قولهم" مع الاستئناف بما بعده؛ لأنهم لو قالوا: "إن العزة لله جميعا" ما كان ثمة داع للحزن.

* قال جل شأنه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨) فالوقف واجب على لفظ "آخر" لأن المعية التى قبله ونفيها الذى بعده لا يلتقيان، والآخر لا ينعت بالتوحد لمجرد كونه آخر. ومن هنا يكون الاستئناف سببًا فى صرف معنى نفى الغير إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى لفظ "آخر".

وأما ظاهرة الإبداع من خلال التقديم والتأخير فمثالها قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات: ٨٦) ذلك أن الترتيب النحوى لهذه الآية بحسب الأصل يقتضى أن تكون الرتبة: أتريدون آلهة دون الله إفكا؟ ولكن ترتيب العناصر المكونة لهذه الآية جاء بحسب ترتيب أهمية الإنكار والاعتراض على كل منها. فالإفك أولها والشرك ثانيها، وتأتى الإرادة لكل منهما أخيرًا؛ لأن الإرادة فى ذاتها ليست موضع اعتراض، وإنما ترفض عندما تتجه إلى الباطل.

والحذف أيضًا من وسائل إبداع المعنى وإيجاز الكلام، وأوضح ما تكون الحاجة إلى الحذف عندما يكون المذكور متضمنًا للمحذوف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾(القصص: ٢٣-٢٤) فالسقى والذود والإصدار إنما يكون للماشية ومن ثم لم يرد لها ذكر، ولو ورد لكان فائضًا عن مطلب النص، وقد يحذف الفضلة كما فى الآية السابقة وقد يحذف العمدة من الكلام إذا دل عليه دليل، انظر إلى حذف فعل التعجب فى قوله تعالى: ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ لدلالة ما بعده عليه من قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ومثله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾. وفى الحديث الشريف: «زوجى أبو زرع، وما أبو زرع».

وحسن السبك من وسائل الإبداع للمعنى، والمقصود بحسن السبك الوفاء بمطالب الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية بين المفردات ومطالب الرتبة ووسائل الربط وغير ذلك من الشروط النحوية للكلام، ولو نظرنا إلى ما نظمه المتنبى من تحدى السبك لأدركنا قيمة حسن السبك فى إبراز المعنى وبيان حسنه.

قال المتنبى:

فأصبحت بعد خط بهجتها كـأن قفرا رسومها قلما

أراد أن يقول: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها، ولكن سوء السبك حال دون فهم ما قاله.

ولا يتحقق الإبداع إلا مع رعاية الموقف، فلو أن قائلًا قال لك: إن لى ابنا سميته محمدًا فقلت له: لماذا؟ لكان كلامك مخالفًا للموقف؛ لأن الأسماء لا تعلل. ولو تكلم النائم فوعد بشىء ما لم يلزمه الوفاء بهذا الوعد لعدم القصد، ولو سمعت إنسانًا يقول "السماء قام ليتنى" لم تقبل منه ذلك بوصفه نصًا. ولو سمعت رجلا يقول لأهل المبيت: (عقبى لكم) لرفضت منه ذلك لعدم رعاية الموقف، ومعنى ما تقدم أن الإبداع فى المعنى لا يتحقق إلا مع رعاية المعايير النصية وحسن الانتفاع بها، ولنا الآن بعد طول سفر أن نلقى نظرة على المعنى الذهنى.

المعنى الذهنى:

إذا كان الوصول إلى المعنى العرفى يتم بواسطة الاستقراء فإن الوصول إلى المعنى الذهنى يتم بواسطة الاستنباط، ذلك أن المعنى العرفى موجود بالقوة فى المعهود الفردى وفى الذاكرة الجماعية، ومن هنا كان صالحًا للاستقراء، أما المعنى الذهنى فغير موجود لا بالقوة ولا بالفعل، ومن ثم افتقر إلى نوع آخر من الاستدلال وهو الاستنباط الذى قد يصيب فيكشف عن معنى ذهنى صائب وقد لا يصيب فيظل المعنى فى دائرة العدم مفتقرًا إلى استدلال أفضل.

وقد يكون الاستدلال بواسطة الاستنتاج كما يكون بواسطة الاستدعاء، وفى كلتا الحالتين يكون الوصول إلى المعنى بحاجة إلى نشاط ذهنى، فإذا قلت وأنت طالب بكلية الآداب مثلا: أنا ذاهب إلى الكلية، علم السامعون من أفراد أسرتك أنك تقصد كلية الآداب دون غيرها وذلك بحكم العهد الذهنى الذى يربط بين الملقى والمتلقى فى هذا الموقف، وإذا قلت: رأيت اليوم فلانا يصلى الجمعة، وكان معروفًا عن فلان أنه مسافر، فهم السامعون بلازم المعنى أنه قدم من السفر، وإذا قال لك رجل معروف بالجبن: أنت بخيل، فقلت له: ولكنى غير جبان، فسوف يعلم بمفهوم المخالفة أنك تعيره بالجبن. فالعهد الذهنى ولازم المعنى ومفهوم المخالفة ونحو ذلك مفاهيم ذهنية غير عرفية تومئ إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى لا يلزم فيه أن يكون صوريًا.

والمنطق إما أن يكون صوريًا يفرض على مقدماته أن توضع فى ترتيب خاص تصلح معه أن تؤدى إلى نتائج قياسية وإما أن يكون غير صورى كالأمثلة التى سبق ذكرها منذ قليل، وإذا أردنا أن نشرح مفهوم الصورية فأقرب شىء إليها صورية المسائل الحسابية التى تفرض على الآحاد أن توضع تحت الآحاد، والعشرات تحت العشرات، وهلم جرا، كما تسمح عند تساوى كمية فى البسط مع أخرى فى المقام أن تشطبا معًا دون أثر على النتيجة، فكذلك الأمر فى المنطق الصورى الذى يحتم أن توضع المقدمات وضعًا خاصًا، وأن يستبعد الجزء المشترك بين المقدمات الصغرى والكبرى، وعندئذ يكون الباقى هو النتيجة على النحو التالى:

الإنسـ/ـان حيوان ناطق

محمد إنسـ/ـان

محمد حيوان ناطق

فانظر كيف حكمت صورة القياس بشطب لفظ الإنسان معرفًا بأل ولفظ إنسان مجردًا منها فى كل من المقدمتين فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة للقياس تنص على أن محمدا حيوان ناطق، هذا الترتيب الصورى لا يصلح لاستخراج المعنى اللغوى فى معمعة الاتصال، وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال. وليس فى لغة التخاطب العادية ما يحمل أدنى شبه بمقدمات القياس الصورى إلا تركيب الشرط الامتناعى باستعمال "لو" كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(الأنبياء: ٢٢). فهذه الجملة يمكن أن يبنى منها قياس شرطى على النحو التالى:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

ولكنهما لم تفسدا.

إذن: ليس فيهما آلهة غير الله.

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاتصال اللغوى ليس نتيجة قياس منطقى صورى، وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات والمفاهيم معًا بواسطة التداعى الذهنى.

تصور أنَّ الشرطة علمت بواقعة قتل فى مكان ما فخف رجال المباحث الجنائية إلى مكان الحادث لمحاولة الكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومعرفة من ارتكبها. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى عملهم أن يحافظوا على بقاء كل شىء فى مكانه للمحافظة على الأدلة؛ فلعلهم يجدون فى أوضاع الأشياء ما يصلح أن يكون قرينة على شىء ما كأحد أزرار الملابس أو كخصلة شعر أو شىء لا قيمة له فى ذاته ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة ... إلخ. فإذا وجدوا من ذلك ما يصلح أن يكون قرينة فإن الذى تدل عليه هذه القرينة هو معنى ذهنى جاء عن طريق

الاستنباط. ولا يزالون يجمعون الأدلة حتى يصلوا باستعمالها إلى تصور متكامل لما وقع أثناء حدوث الجريمة. وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا هوية القاتل. وهذه صورة من صور المعنى الذهنى طابعها الاستنباط.

ومن المعانى الذهنية مفهوم المخالفة الذى أشرنا إليه من قبل، تأمل مثلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان: ٣٤) فلا شك فى أن الله يعلم هذه الأمور الخمسة، ولكن علمه بثلاثة منها يأتى من خلال العبارة الصريحة، والمعلومان الأخيران يأتيان بواسطة مفهوم المخالفة على النحو التالى:

المعلوم	بالعبارة	بالمخالفة
علم الساعة	+	-
نزول الغيث	+	-
علم ما فى الأرحام	+	-
الكسب فى المستقبل	-	+
الموت	-	+

فالتقدير فى المعلومين الأخيرين هو (ولكن الله يدرى) وهو المعنى المقصود.

ومن المعانى الذهنية المعنى الاستدعائى (وهو المدلول الذى يستدعيه قول أو عمل)، ومنه ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز المرسل. فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها اللزوم؛ فإذا قلت: فلان طويل النجاد، فإن طول النجاد يلزم عنه (أى يستدعى إلى الذهن) طول القامة. فلو أن فلانا الذى يحمل سيفًا ذا نجاد طويل لم يكن ذا قامة طويلة لكان مضطرًّا أن يجر سيفه وراءه، فلا تكون العبارة مدحًا له وإنما تنقلب إلى سخرية منه، وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى: الإضافة (وتحتها السببية والمسببية) والكم (وتحتها الكلية والبعضية) والزمان (وتحتها ما كان وما يكون) والمكان (وتحتها الحالية والمحلية).

ومن المعانى الاستدعائية ما يأتى فى صورة ظل من ظلال المعنى الأصلى للفظ نتيجة لتحول فى العرف، فيقال عندئذ: إنَّ العبارة أشربت معنى آخر، أى أن اللفظ المفرد وهو يدل على المعنى العرفى الذى نسب إليه فى المعجم قد تجاوز هذا المعنى العرفى حين أصبح فى سياق النص ليتحول إلى دلالة أخرى استدعاها جو النص. فمن المعروف أن كلمة "الوطن" مثلًا معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ. فلو أن مصريًا قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من انتساب هذا المتكلم إلى مصر، فهذا فى قوة قوله: أنا مصرى. ولكن أين هذا من قول شوقى:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

بما فيه مما أضافه النص إلى معنى الوطن من مقارنة بينه وبين الخلد فاستدعى إليه ظلا لم يكن له وهو لفظ مفرد من ألفاظ المعجم.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى الانعكاسى الذى يصيب لفظًا ما ليصير هذا اللفظ غير مستحب فى السمع، فمن المعروف مثلًا أنَّ لفظ "البيت" يوحى حال إفراده بالاحترام إذ يدل على مستقر الأسرة أو حتى على البيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام. ومن المعروف أيضًا أنَّ لفظ "الأدب" من الألفاظ الداعية إلى الاحترام، فلو نسب شخص ما إلى قلة الأدب فلا بد أن يغضب لنفسه غضبًا شديدًا. ولو وصفنا إنسانًا بأنه (من بيت علم) لسره ذلك، ولكننا لو وصفناه بأنه من (بيت أدب) لرأى فى ذلك إهانة له، ولصرف الوصف إلى معنى غير مستحب.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى البؤرى الذى يضع اللفظ فى بؤرة الاهتمام. وهذا المعنى هو الذى يراه النقاد من وظائف التقديم فى الأسلوب الأدبى. وقد سبق أن جئنا بشاهد على قيمة التقديم هو قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات: ٨٦). وقد يأتى هذا الظل البؤرى من خلال التكرار عند الربط بإعادة اللفظ كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨). وكما فى الحديث الشريف حين سأل

رجل النبى ﷺ: «من أحق الناس بحسن صحابتى»؟ قال: «أمك» قال: «ثم من»؟ قال: «أمك» قال: «ثم من»؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك». فأعطى للأم بؤرة الانتباه.

أما الوصول إلى الإبداع فى المعنى الذهنى فمرتهن بالنشاط الذهنى أيضًا، ففى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لم يذكر من القياس إلا هذه المقدمة، ويبقى على الذهن بعد ذلك أن يبنى القضية الثانية وهى: "ولكنهما لم تفسدا "وذلك بناء على الإدراك القائم لعدم حدوث الفساد، ومن ثم يمكن الوصول إلى النتيجة القائلة: إذن: «ليس فيهما آلهة إلا الله».

وفى عمل رجال المباحث الجنائية يكون الوصول إلى شخص القاتل عملًا استنباطيًا بكل المقاييس وفى المجاز المرسل يكون على الذهن أن يستعين بالمقولات الأربع لاستنباط العلاقات.

وفى الكناية يدرك الذهن لزوم شىء عن شىء آخر، وفى إدراك ظلال المعانى كما فى معنى تمجيد الوطن نجد الذهن ينصرف عن المعنى العرفى إلى الاعتزاز وإعلاء القيمة، وفى حالة المعنى الانعكاسى أيضًا انصراف عن المعنى العرفى إلى معنى آخر ألصقه الذهن باللفظ بناء على ارتباط بين هذا اللفظ وبين أمر آخر غير مستحب، ويبقى مما ذكرنا من المعانى الاستدعائية ما أطلقنا عليه لفظ "المعنى البؤرى" وهذا يعتمد على أمر ذهنى ليس من قبيل العرف وهو التكرار أو التقديم أو غير ذلك من الوسائل المستعملة فى تسخير اللفظ لتوليد المعنى بواسطة التصرف فى خصائص هذا اللفظ لإخراجه من نطاق المعنى الذى تعارف عليه المجتمع اللغوى إلى معنى آخر يدركه الذهن ولا يفرضه العرف.

المعنى الانطباعى:

إذا سمعت قطعة موسيقية فإنها تترك فى نفسك أثرًا طيبًا أو سيئًا، وربما أثارت فى نفسك نشاطًا يتناسب مع إيقاعها أو تركت لديك خمولًا مناسبًا لها، وإذا صادفت شخصًا تعرفه فنظر إليك بوجه متجهم فهمت من عبوسه أنه غير راض عنك، وإذا

صادفت لوحة للرسم فرأيت بها منظرًا معينًا حكمت لهذا المنظر بالجمال أو عليه بالقبح، كل أولئك يعد من قبيل الانطباع الشخصى الذى لا يخضع لعرف ولا لفكر، فقطعة الموسيقى التى أعجبتك قد لا تعجب غيرك، وقد يفهم غيرك من عبوس العابس أنه لا بد أن يكون قد مر بتجربة غير سعيدة فيخف إلى سؤاله عن حاله، أما المنظر الذى رأيته فى اللوحة فقد يثير عند غيرك إحساسًا غير الذى كان لك فيحكم على هذا المنظر بالقبح، فالواضح مما تقدم أن هذا المعنى الانطباعى لا يعد من قبيل الفعل بالنسبة لمن يدركه وإنما هو من قبيل رد الفعل.

هذا المعنى الانطباعى من نوعين: أحدهما يأتى عن الانفعال والآخر عن التجربة الحية. فأما من حيث الانفعال فكلنا يرى فى الضخامة معنى الهيبة والاحترام. ومن الأدلة على ذلك أن أماكن العبادة من المساجد أو الكنائس لا تكتفى من الارتفاع والعلو بما يسود فى المساكن العادية؛ لأن المساكن العادية هى بيوت العباد. أما أماكن العبادة فهى بيوت الله، فمن دخلها فإنه يشعر عند دخولها أنه فى مكان يستحق الخشوع والاحترام.

ومن المعروف أيضًا أن التفخيم للأصوات أضخم من الترقيق، ومن هنا يمكن من الناحية الأسلوبية أن نميل بأصوات الجملة الخبرية العادية إلى الترقيق، فإذا أردنا أن ندخل عليها عنصر التأكيد عدلنا عن الترقيق إلى التفخيم، كما فى قوله تعالى فى معرض الإخبار عن تكوين الأرض: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾؛ ولكنه سبحانه عندما أراد تأكيد هذا المعنى فى معرض القسم قال: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ فجاء صوت الطاء المفخم فى موضع صوت الدال.

والتكرار أيضًا من وسائل المعنى الانطباعى لكونه يؤكد فيولد الانفعال، ويأتى هذا الانفعال عند تكرار الصوت فى الكلمة المفردة ذاتها كما فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فقد جاء تكرار الكاف والباء موحيًا بأن إسقاطهم فى النار لم يكن دفعة واحدة، وإنما سقطوا فيها طوائف يتلو بعضها بعضًا. ومثله قوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ١٤). وقد يأتى الانفعال من

تكرار الكلمة المفردة، كما فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فقد عبرت الآية عن مبدأ التوالى بتكرار كلمتى "دكا" و"صفا" فكان المعنى توكيدًا لفظيًّا.

وللإيقاع أثر حسى سمعى هو معناه الانطباعى الذى يحسه من يسمعه سواء كان هذا الإيقاع موسيقيًّا أم كان لغويًّا نثريًّا أم شعريًّا، ولقد سبق منذ قليل أن أشرنا إلى التكرار الذى قرأناه فى عبارتى: دكا دكا وصفا صفا. ونود أن نشير الآن إلى ما سبق فى النص ذاته من عبارتين أخريين هما: أكلا لما وحبا جما، وإلى ما يحسه القارئ عند قراءة العبارات الأربع من إيقاع لا يخفى على ذى سمع. وفيما يلى عرض للآيات المشتملة على هذا الإيقاع: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾. أما فى الشعر فالأمر أشهر من أن يبالغ المرء فى شرحه، حتى إن بعض ذوى النظر فى أغراض الشعر يربطون بين بحور الشعر فى تباينها وبين أغراضه. فيرون أن طوال البحور أولى بالاستعمال للأغراض الجادة، وقصارها ألصق بالأغراض الخفيفة. فالطويل والبسيط مثلا يناسبان الفخر والهجاء والمدح والرثاء ونحوها، ولكن المتقارب والمتدارك مثلًا أولى بالأغراض المستخفة. وبين الطائفتين أبحر تتوزعها الأغراض، ومنها الرجز الذى يسمونه: حمار الشعر.

ومن المؤثرات الانطباعية حكاية الصوت للمعنى، وهى غير ما ذكرناه منذ قليل فى شأن الضخامة والتفخيم وما يثيرانه من الهيبة والتأكيد. ذلك أن الصوت هنا لا يوحى فقط بل يحكى المعنى ويقربه إلى الفهم أكثر مما يفعل الإيحاء. انظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ وستجد أن "اثاقلتم" أصله تثاقلتم، وكان يمكن أن يستعمل بصورته الأصلية ليدل على المعنى الأصلى (العرفى) وهو التثاقل. ولكن الآية آثرت أن تحول المعنى العرفى إلى معنى آخر انطباعى، فعمدت إلى استعمال حكاية الصوت للمعنى. فكان ذلك بإدغام المتقاربين (التاء والثاء) فى أول لفظ الفعل ثم اجتلاب همزة وصل فى أول الكلمة

للتوصل إلى نطق الجزء الأول من الثاء المشددة. أين إذن كانت حكاية الصوت للمعنى؟ إن الثاء المشددة صوت رخو يعتمد فى نطقه على تسرب الهواء من منطقة المخرج فيبدو للسمع كأنه إفراغ طاقة محبوسة يبدو صوتها كصوت إفراغ إطار عجلة السيارة من الهواء. أرأيت إلى السيارة بعد إفراغ ما فى أطرها من هواء أيكون من شأنها أن تتحرك؟ إنَّ الآية الكريمة تدل بحكاية هذا الصوت على امتناع هؤلاء المخاطبين عن الحركة واللحاق بالمجاهدين فى أرض المعركة.

وأشباه هذه الحكاية فى القرآن الكريم كثير كالذى نجده فى قوله تعالى: "تأخذهم وهم يخصمون" (بكسر الخاء وتشديد الصاد المكسورة) وقوله جل شأنه: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ وهلم جرا.

وثمة نوع آخر من الحكاية يتم بواسطة ارتجال ألفاظ لا وجود لها فى اللغة. من ذلك أن المعروف أن عالمنا هذا الذى نعيش فيه لا يعرف شجرة تسمى: "شجرة الزقوم"؛ فهى ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الصافات: (الصافات: ٦٤-٦٥). وقد ارتجلت الآية هذا الاسم للشجرة المذكورة، وجعلت الاسم يحكى أهم خواصها وهى أنها ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾، وأن الضالين المكذبين يأكلون من ثمرها فيملئون منه البطون. فلماذا كانت حكاية اسم للشجرة المذكورة، على هذا النحو؟ أول ما يربط هذا الاسم بالطعام اشتمال الاسم على الزاى والقاف ومنهما يتكون الفعل "زق" الذى يصف إطعام الطائر لفرخه إذ يقال: «زق الطائر فرخه». ثم نلاحظ أنَّ القاف (ومخرجها قريب جدًّا من البلعوم) جاءت مشددة فكانت أطول زمنًا فى نطقها من القاف المفردة، مما يحكى بقاء اللقمة فى هذا الموضع مدة أطول مما يكون مع إفراد القاف مما يحكى عسر البلع. وليت الحكاية وقفت عند هذا الحد، ولكنها تجاوزت ذلك إلى اختيار تحريك القاف بواسطة واو المد دون الضمة القصيرة فأضافت زمنًا إلى بقاء اللقمة فى موضعها دون ابتلاع لزيادة معاناة الآكل، ثم يأتى الحرف الأخير فى الكلمة معبرًا عن نهاية المعاناة، فنحن نستطيع أن نشرب الماء بصبه فى فم مفتوح الشفتين والفك الأسفل دون الإحساس

بمشكلة أثناء البلع، ولكن ابتلاع الطعام لا يكون إلا مع إقفال الشفتين الذين هو جزء من نطق صوت الميم. وهكذا تعددت طرق الحكاية فى لفظ مفرد للدلالة على مرور الضالين المكذبين بإحدى صور العذاب فى الآخرة.

سبق أن قلنا: إن المعنى الانطباعى قد يأتى عن طريق التأثر وقد يكون عن طريق التجربة الحسية pragmatic والمعروف أن التنافس بين الأقران للوصول إلى النجاح أمر مطلوب، غير أن أحد المتنافسين قد يبالغ فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى النجاح حتى يعمل دون قصد على إفشال جهود الآخر، عندئذ يكون من المعقول أن يفهم الآخر أنَّ التنافس قد تحول إلى تنافر أو تناجز، ثم يتصرف إزاء صاحبه فى ضوء هذا الفهم، وقد يكون بينك وبين أحد صداقة متينة طال عليها العهد حتى أصبحت أقرب إلى مرتبة الإخاء ثم يعرض له المرض ولا تعلم أنت بمرضه ويظل هو يطمع فى أن تعوده فلا تعوده، فيفهم من ذلك أنك قد تنكرت للصداقة، ويقف منك موقفًا مناسبًا لهذا الفهم، وقد تبحث عن مسكن تسكنه فتصادف حيًّا نظيفًا من أحياء المدينة تكثر فيه المساجد فتبادر إلى سكناه راضيًا عنه، ثم يتكشف لك بعد قليل أن كثرة المساجد التى أغرتك بسكنى الحى لها جانب آخر يزهدك فى سكناه. ففى المساجد مكبرات صوت تعمل بأقصى طاقتها، وأئمة هذه المساجد يتنافسون فى إلقاء دروس قبل الصلوات أو بعدها ويطيلون فى الخطبة يوم الجمعة. وقد تقام مراسم العزاء فى ساحات هذه المساجد فلا تزال تضيق ذرعًا بالأصوات العالية حتى تصل إلى قرار مغادرة هذا الحى إلى حى آخر يتمتع بالهدوء. وهكذا ينقلب المعنى من الإقبال والترحيب إلى الإدبار والنفور.

وقد تتعدد المعانى الانطباعية فى فهم التجربة الواحدة بحسب اختلاف المواقف، فتكون المعانى جميعًا صادقة، انظر إلى قوله تعالى فى تعدد المعنى بحسب المواقف: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ

مُذْعِنِينَ ﴾(النور: ٤٧-٤٩). وواضح من سياق الآيات أن هؤلاء المنافقين يعلنون الإيمان والطاعة إذا رأوا فى ذلك نفعًا، ثم يرى فريق منهم أن النفع لم يعد كما كان فيعرضون عما أعلنوه من قبل من الإيمان. ثم إذا اضطروا إلى التقاضى فعلموا أن القاضى هو رسول الله أعرضوا مخافة أن يكون الحق فى جانب الخصم، أما إذا كان الحق فى جانبهم فإنهم يخضعون لحكم النبى ﷺ. من هنا يكون المعنى الذى اختلف فهمه من لدن المسلمين على النحو التالى:

* إعلان الإيمان ثم النكوس عنه = فى قلوبهم مرض. (أفى قلوبهم مرض).

* عدم قبولهم قضاء النبى = ريب (أم ارتابوا).

* خوفهم أن يحيف الله ورسوله عليهم = ظلم. (بل أولئك هم الظالمون).

هذا ما فهمه المسلمون بالانطباع الذى سيطر على أفهامهم فلم يفضلوا أحد الفروض على غيره.

تلخيص:

رأينا مما سبق أن المعانى أنواع بعضها يستند إلى العرف ويحدده اتفاق الجماعة اللغوية؛ فاستعماله يتطلب القياس على ما ارتضاه المجتمع، فمن أراد الإبداع فسبيله إلى ذلك هو الخروج على أصل الاستعمال العرفى باللجوء إلى إحدى الوسائل التالية:

١- عرفنا مما سبق أنَّ المعنى قد يتعدد للعنصر اللغوى الواحد مع تفاوت شهرة كل معنى، فمن وسائل الإبداع اختيار المعنى الذى يناسب جو النص.

٢- ومن الوسائل المذكورة نقل اللفظ من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم كما فى المجاز ونحوه.

٣- ومنه نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر، كتحول النمط الخبرى إلى معنى الأمر فى "والمطلقات يتربصن".

٤- الترخص فى قرائن المعنى، وهى الإعراب والبنية والأداة والتضام والرتبة

والربط، فكل واحدة من هذه القرائن قد تفيض عن حاجة أمن اللبس، فيصبح المعنى واضحًا بدونها، وعندئذ يمكن الترخص فيها بعدم استعمالها فى الكلام، ومن ذلك ما يلى:

أ- من الترخص فى الإعراب ما يسميه النحاة إعراب الجوار، وتعلق المعنى بالبديهيات دون الحركات، نحو "جحر ضب خرب" و"خرق الثوب المسار" .. إلخ.

ب- التصرف فى البنية، نحو ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ وكذلك ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ و﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ و﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾.

ج- الأداة، كدلالة "هل" على التعجب فى قوله تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، وقوله: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾. وكحذف الأداة ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فى قوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وكذلك فى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

د- التضام، نحو حذف الجواب فى ﴿ أَيْنَ ذُكِّرْتُم ﴾ (أى تطيرتم)، ومثل إضافة المصدر فى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ فلولا القرينة الدالة على أن المعنى على إضافة المصدر إلى فاعله فيما يلى لوقع اللبس فى المعنى.

هـ- الرتبة، نحو ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (أى سخروا منه وهو يصنع الفلك)، ونحو ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (أى نادى نوح ابنه وهى تجرى بهم فى موج كالجبال).

و- الربط، نحو ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (أى أنعمتها) وكذلك ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ هود: ٤٤ (الضمير المستتر لسفينة لم يرد لها ذكر) ونحو ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾

(الضمير فى بينهم يعود على الخلق كلهم ولم يرد لهم ذكر) وكذلك ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾. (أى طائعتين).

هذه أمثلة وشواهد قليلة تشهد على ظاهرة واسعة الانتشار هى ظاهرة الترخص فى القرينة عند أمن اللبس وهى صورة من صور الإبداع فى استعمال اللغة العربية. أضف إلى ذلك ما يعرض للسياق من فصل أو حذف أو إضمار أو قصر أو إيجاز أو غير ذلك من طرق الإبداع فى حدود المعنى العرفى.

أما بالنسبة للمعنيين الذهنى والانطباعى فليس هناك ما يربطهما بالعرف اللغوى، بل بالعكس، هما يمثلان نشاطًا فرديًّا يختلف من فرد إلى آخر، ومن ثم يعد كل منهما مجالًا للإبداع الشخصى.

أثر قرينة السياق
فى إزالة تعدد احتمالات الإعراب
فى النص القرآنى

الإعراب نتيجة العلاقات بين ألفاظ الجملة، وتتمثل هذه العلاقات فى التضام (الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية) ثم الرتبة (محفوظة وغير محفوظة) والربط وهو (بالمطابقة أو بالإحالة) والبنية (مذكورة أو مقدرة) والإعراب (البنية، تلك هى القرائن اللفظية، وهناك قرائن أخرى معنوية منها الإسناد والتعدية والملابسة والتفسير والتبعية...إلخ، وأهمها وأعمها قرينة السياق التى يمكنها أن تتخطى حدود الجملة إلى دلالات النص.

والمعروف أنَّ التراكيب اللفظية المراد تحليلها قد تتشابه صورها فتتعدد احتمالات إعرابها، وأن الأدوات الداخلة على الجمل قد تنقل من معناها الأصلى إلى معنى آخر فيتغير إعراب الجملة، وأن الظواهر العدولية التى تعرض لمعانى الجمل قد تدعو إلى إعراب مغاير للإعراب الأصلى، وأسباب أخرى مشابهة، تلك أمور لا تنفك تعرض لمستعمل اللغة ولا يمتنع عليها نص حتى نص القرآن الكريم كما سنرى فيما يلى:

١. قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة: ١٠). المعنى على الدعاء؛ لأن نسبة المرض إليهم ثبتت بمطلع الآية والمطلوب بعد ذلك هو الزيادة.

٢. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١). تحكم قرينة السياق بأن الآية لا تدعو إلى عبادة الذين من قبلهم ولكنها تقرر أن الله سبحانه خلق الذين من قبلهم.

٣. قال جل وعلا: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤) لا يجوز إعراب إلا على معنى الاستثناء.

وإنما هى للاستدراك؛ لأن إبليس ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾. من هنا تكون إلا بمعنى لكن.

٤. قال سبحانه: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧). أولًا ينبغى أن نعلم أن كلمة "لباس" لا صلة لها هنا بالملابس وإنما هى مصدر الفعل (لابس يلابس لباسًا وملابسة)، ومن هنا يكون المعنى: هن ملابسات لكم وأنتم ملابسون لهن؛ أى أن الخبر مصدر بمعنى صيغة اسم الفاعل.

٥. قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ (الكهف: ٥٨).

يمكن أن يكون الخبر لفظ الغفور أو ذو الرحمة أو أن هذين اللفظين صفتان للمبتدأ ويكون الخبر عندئذ هو ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم ... ﴾ وواضح أن ما فى الآية التى تلى ذلك ما يشير إلى أن الخبر هو ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾؛ لأن ما يأتى بعد ذلك يشير إلى أن القرى الظالمة كانت عقوبتها بحسب (موعد)، وأن مبدأ الموعد له ارتباط برفض الظلم.

٦- قال تعالى: ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١٢)، يمكن هنا من الناحية النحوية أن يكون الخبر هو الرحمن أو المستعان، ولكن ما سبق هذه

الآية من الدعوة ورفض الاستجابة يدل على طلب العون من الله لمواجهة العصيان، ويمكن هنا إدراك جدية الموقف من قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أى أنى أعلن لكم أنى خصم لكم، ومن هنا يكون لفظ "المستعان" هو الخبر بقرينة السياق.

الفرق بين اللبس واحتمال وجوه المعنى

إذا قلت لصاحبك: "زرت فلانًا ساعة ثم غادرته غاضبًا" لم يدر صاحبك من منكما كان هذا الغاضب. فهذا من قبيل اللبس، لأنه لا توجد قرينة فى هذه العبارة تعين على معرفة المعنى. وتقول: "ذهبت إلى ابن أخى وصديقه" فلا يدرى السامع لمن هذا الصديق، لابن أخيك أم لأخيك، والقرينة غائبة دائمًا فى الألغاز ليكون غيابها سببًا فى التباس المعنى كما يلى:

ما اسم شىء تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله

فإذا ما قلبته وأخذت الـ ... ـثلث منه يكون لى ثلثاه

الجواب الفيل ولا دليل عليه فى النص لأن لفظ "قلبته" يفهم على وجهين: قلب الشىء وقلب اللفظ الدال على هذا الشىء. ومنه أيضًا:

يأيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قل فى سومك

تراه بالعينين فى يقظة ... كما يرى بالقلب فى نومك

والجواب هو "كمون". والسر أيضًا فى لفظ "القلب" فى الحالتين.

أما إذا قامت قرينة على المعنى فإن الأمر لا يعدو إحدى حالتين: أن يؤدى النص

معنى واحدًا فقط، أو أن يخضع النص لأكثر من احتمال للمعنى لتعدد القرائن والاحتمالات. وهذا هو المقصود بقول المفسرين عن القرآن الكريم: إنه حمال أوجه. دعنا نضرب بعض الأمثلة لدلالة القرينة على المعنى الواحد، مثال ذلك:

* لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

* يأتى البرد فى الشتاء ويأتى الحر مع الصيف.

* طلب العلم وسيلة للتقدم.

أما إذا قامت قرينة على المعنى (إما فى سياق النص وإما فى سياق الموقف)

فإن المعنى يتضح ولو بواسطة التأويل، انظر مثلًا إلى ما يلى من الآيات القرآنية وإلى ما بها من دلالة على المعنى:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥).

تصلح "ما" هنا للنفى والموصولية ولكن النص يشتمل على قرينة تدل على أنها للنفى، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾. فالشكر هنا موجه إلى من صنع الطعام.

* ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١٢).

دليل المعنى ما يلى:

"الرحمن" معناه المهيمن، (انظر الجزء الأول من كتابى البيان فى روائع القرآن ص٢٩٤ وما بعدها). والموقف مع هذه الآية موقف استعانة بالرحمن على من سمعوا الدعوة فلم يستجيبوا (الأنبياء: ١٠٨-١١٢) فالمعنى فى ظل هذا الفهم يجعل الرحمن صفة للمبتدأ، وهو "ربنا"، ويجعل لفظ (المستعان) خبرًا عنه، أما المعنى الآخر فهو أن يكون الرحمن هو الخبر ويكون المستعان صفة للخبر.

* ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٢٥). رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج٩ ص١٠٤ مثلا) أن هذه العبارة تعنى أسلوبًا خبريًّا، ولكن إعادة النظر فى الجملة تكشف عن أسلوب تعجبى يشبه قولنا: "لله أنت".

* ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك، ٣)، رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج١٧-١٨ ص٢٠٨) أن المعنى (خلقها طبقات بعضها فوق بعض). غير أن قرينة المعنى هى ما يلى ذلك فى النص القرآن من قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أى خلقها متطابقة دون اختلاف، فالمقصود بالسموات هو المجرات، ويأتى تطابقها من أنها جميعًا مكونة من نجوم وكواكب ومسافات.

* ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ٢-٤). قال بعض المفسرين (انظر تفسير الطبرى، الجزء الأخير ٢٤٥) إن معنى لفظ الصمد الذى يصمد إليه فى الحاجات، ولكن سياق النص يجعل ما بعد لفظ "الصمد" تفسيرا لمعناه، فالمقصود بالصمد هو الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فى هذه الآيات السابقة معانٍ توضحها قرائن مستخرجة من النص أو من الموقف، وليس بهذه الآيات لبس، وليس فى معناها احتمال أوجه، أما ما نسب لبعض المفسرين من معانٍ فالمعانى المقترحة هنا أولى منه بالقبول، أو على الأصح تعين على رفضه، وهكذا ينتفى أن يكون به تعدد أوجه، غير أن السياق اللغوى أحيانًا يشير إلى أكثر من معنى مع تساوى المعانى فى صدق الدلالة، وفى هذه الحالة يقال: إن النص حمال أوجه. وذلك كما يلى:

قد يعود تعدد احتمالات المعنى إلى الاشتراك فى اللفظ، وقد يعود إلى لازم المعنى، وقد يأتى من تعدد صور الإعراب أو اختلاف القصد، أو من غير ذلك من المقاصد كما سنرى بعد قليل:

المشترك اللفظى:

* قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

نسب بعض المفسرين إلى التقوى لباسًا تلبسه أو أنها هى لباس يلبسه التقى، وأورد القرطبى شعرًا بهذا المعنى يقول:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تقلب عريانًا وإن كان كاسيًا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ولا شك فى أنَّ إضافة اللباس إلى التقوى بقصد هذا المعنى على سبيل المشاكلة يحظى بالقبول إلى حد ما، ولكن الأقرب إلى القبول أن كلمة "اللباس" المستعملة هنا هى مصدر لابس يلابس لباسًا وملابسة. أى أن مباشرة التقوى خير من ستر العورة.

* قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة: ١٤٣).

* قال بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج١ – ٢ ص ١٥٣): أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. وفى قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾(البقرة: ٢٣٨) فهم بعض المفسرين الوسطية بالمعنى الزمنى فقالوا: إن المقصود صلاة العصر؛ لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتن آخريين (ولكن هذا يصدق على كل من الصلوات الخمس). غير أن المعنى المقبول فى هذا المقام هو أقرب (ولكن ليس طبقًا) للمعنى الأول، بدليل قوله تعالى فى معرض الكلام عن أصحاب الجنة (القلم: ٢٨): ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أفضلهم، وبذلك يكون معنى الصلاة الوسطى أى المتقنة.

لازم المعنى:

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾(الفرقان: ٧). يرى بعض أهل التفسير (انظر الجزء ١٣ من تفسير الطبرى ص٤) أن أعيان قريش عيروا النبى عليه الصلاة والسلام بأنه قانع بأكل الطعام والمشى فى الأسواق وكان خيرًا له أن يكون فى صحبة الملائكة.

وقد أبطل الله سبحانه زعمهم هذا بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾. ولكن من الواضح أن هذه الآية تقصد بها الكناية وأن لها معنى آخر يلزم عن هذا المعنى الأول. ذلك أن آكل الطعام من شأنه أن يهضمه وأن يفرز فضلاته، وهذا الإفراز من شأن فاعله أن يتخفى عن الناس لا أن يسعى إلى مواجهتهم بالدعوة إلى اتباع دعوته إلى دين جديد يؤثر فى زعامتهم للعرب.

أما ما يلزم عن المشى فى الأسواق فهو ممارسة البيع والشراء وما يترتب على ذلك من زعم جودة سلعة رديئة لبيعها، أو رداءة سلعة جيدة لإنقاص ثمنها. وكلا هذين الأمرين اللازمين ليسا من مهمات الرسل.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾(المائدة: ٦٤).

الغلول والبسط كنايتان عن البخل والكرم وكذلك عن الفقر والغنى. يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران ١٨١). فهذان الوجهان (البخل والفقر) من لوازم الغلول.

تعدد احتمال الإعراب:

* قال تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾.

* يقول ابن مالك فى الألفية (الجزء الثانى ص٧):

وركب المفرد فتاحا كلا ... حول ولا قوة والثانى اجعلا

مرفوعًا أو منصوبًا أو مركبًا ... وإن رفعت أولاً لا تنصبا

ويقول ابن عقيل فى معرض شرح ذلك (الجزء الثانى ص١١):

"وأشار بقوله: "والثانى اجعلا" إلى أنه إذا أتى بعد "لا" والاسم الواقع بعدها بعاطف ونكرة مفردة وتكررت "لا" نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" يجوز فيها

خمسة أوجه، وذلك لأن المعطوف إما أن يبنى مع "لا" على الفتح، أو ينصب أو يرفع". ثم يقول باختصار:

"فإن بنى معها على الفتح جاز فى الثانى ثلاثة أوجه: البناء على الفتح لتركبه مع لا الثانية، نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو النصب عطفا على اسم "لا"، أو الرفع وفيه ثلاثة أوجه: الأول أن يكون معطوفًا على محل "لا" واسمها، والثانى أن تكون "لا" الثانية عملت عمل "ليس"، والثالث أن يكون مرفوعًا بالابتداء".

نخرج من كل ذلك بما يلى:

أولًا: اللبس: تعدد احتمالات المعنى وليس لأحد المعانى قرينة ترجحه.

أما حمل الأوجه: فهو تعدد احتمالات المعنى ولكل منها قرينة تدل على صحته.

ثانيًا: حمل عدد من أوجه المعنى يصدق على عموم اللغة لا على خصوص القرآن الكريم.

اكتشاف الفرق بين معنى اللفظين. (منقول)

يعرف اختلاف الفرق بين معنى اللفظين المتشابهين بأحد الأمور التالية:

١. اختلاف ما يستعمل فيه اللفظان مثل:	العمل والمعرفة، علم تتعدى إلى مفعولين وعرف لمفعول واحد.
٢. اعتبار صفات المعنيين مثل:	الحلم حسن دائمًا والصدود إما حسن أو قبيح.
٣. اعتبار ما يئول إليه المعنيان مثل:	المزاح والاستهزاء.
٤. اعتبار حروف تعدية الأفعال مثل:	العفو والغفران.
٥. اعتبار النقيض مثل.	الحفظ والرعاية، نقيض الحفظ الإضاعة ونقيض الرعاية الإهمال.
٦. اعتبار الاشتقاق مثل:	السياسة والتدبير، فالسياسة هى النظر

	فى الدقيق من أمور السوس والتدبير من الدبر.
٧. اعتبار صيغة اللفظ مثل	الاستفهام والسؤال، فالأول دليل جهل أو شك والثانى قد يكون مع العلم بالجواب.
٨. اعتبار أصل اللفظ فى اللغة مثل.	الحنين والاشتياق. الأول صوت من أصوات الإبل والشوق غير ذلك

فإذا لم يتبين الفرق بأحد هذه الاعتبارات فالكلمتان من لغتين مختلفتين، نحو:

البرمكة (مكية) والقدر (بصرية).

الله (عربية) وآزر (فارسية).

من الظواهر الهامشية فى النظام النحوى

مع شواهد من القرآن الكريم

النظام النحوى بنية من العلاقات السياقية المجردة التى تجد ما يعبر عنها ويدل عليها فى مبانى نظامى الأصوات والصرف، فنظام الأصوات يقدم للنظام النحوى العلامة الإعرابية وحروف المعانى وإجراءات العدول عن الأصل والرد إليه والسعى إلى طلب الخفة، والنظام الصرفى يقدم الصيغ والموازين الصرفية وما يعرض لكل منها من قواعد التصريف واختلاف العناصر الصرفية بين الاستصحاب والعدول، وأما النظام النحوى فوظيفته تحديد العلاقات فى السياق بين ما يقدمه كل من النظامين السابقين، مع الاعتماد على القرائن الدالة على أنواع العلاقات مع السعى إلى الوصول إلى أمن اللبس فى جميع الحالات. ولقد درج أصحاب كتب النحو بسبب هذه الصلة الوثيقة بين الأنظمة الثلاثة على أن يجعلوا الأصوات والصرف من مواضيع متون النحو وتعليمه. وهكذا يعتمد النحو العربى على دعامتين من أهم دعائمه إحداهما من عطاء النظام الصوتى وهى (طلب الخفة) والأخرى من مطالب السياق وهى (أمن اللبس)، ولكن هاتين الدعامتين لا تخضعان للقواعد ولذلك أراهما على رغم أهميتهما من الظواهر الهامشية فى النظام النحوى ومن ثم أقرب شبهًا بمسائل فقه اللغة.

يتضح هذا الطابع الهامشى فى موقع هاتين الظاهرتين من النظام النحوى من

اهتمام فقه اللغة بإحداهما (طلب الخفة) واهتمام علوم الاتصال بالأخرى (أمن اللبس). جاء فى الجزء الأول من كتاب المزهر للسيوطى (ص١١٥): "قال ابن دريد فى الجمهرة: "اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت؛ لأنك إذا استعملت اللسان فى حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسًا واحدًا وحركات مختلفة....إلخ". مما يدل على رسوخ قدم ظاهرة طلب الخفة فى بحوث فقه اللغة، وربما كانت مع غيرها من صور المناسبة هى التى يسميها علماء النص: coherence (هى والمناسبة المعجمية بين مفردات النص، ومعهما طرق الربط). أما دور النظام النحوى بالنسبة لهاتين الظاهرتين فهو الانتفاع بالنتائج مما يبرر وضعهما بين الظواهر الهامشية فى البنية النحوية.

إن اعتزاز اللغة العربية بهاتين الظاهرتين له ما يبرره؛ لأن اللغة من خلالهما أصبحت أكفأ فى الاستعمال من كثير من اللغات المشهورة، دعنا نضرب مثلًا واحدًا لتفوق اللغة العربية على اللغة الإنجليزية فى مجال طلب الخفة، إن اللغة العربية ترفض التقاء الساكنين، وتتخذ من الإجراءات العدولية (عن أصل الوضع) ما يحول بين السياق العربى وهذا النوع من الثقل.

وإذ ترفض اللغة العربية هذا النوع من الثقل نرى اللغة الإنجليزية تسمح (فى ضوء الفهم العربى لهذه الظاهرة بالتقاء أربعة سواكن كما فى five sixes (أى خمسة أسداس)، فالكلمة الدالة على الأسداس تشتمل أربعة سكوان كما يلى:

(ك س ث س)

وكلها أصوات مهموسة يزيد الهمس من خفائها على المقدرة السمعية ومن صعوبة تواليها فى النطق. وليس من السهل على المتكلم العربى أن ينطقها نطقًا سليمًا؛ ذلك لأنه إذا رأى توالى الساكنين ثقيلًا فما بالك بتوالى الأربعة؟ ! ومع عدم استعمال النحو لقواعد لتنظيم طلب الخفة نراه يحرص على الانتفاع بهذه الظاهرة الهامشية.

إذا تأملنا طابع كل من الظاهرتين السابقتين وجدنا إحداهما وهى "طلب الخفة" لفظية (أى تجد تطبيقًا لها فى عالم الألفاظ)، وأما الأخرى وهى "أمن اللبس" فتتحقق فى عالم المعنى. وعند النظر فى الظواهر الأخرى نجدها أيضًا تنقسم هذا النوع من الانقسام إلى طائفتين إحداهما لفظية والأخرى معنوية على النحو التالى:

اللفظية:

المعاقبة ـ الموقعية ـ النقل ـ الترخص ـ المشترك اللفظى.

المعنوية:

ظل المعنى ـ لازم المعنى ـ إشراب المعنى ـ مفهوم المخالفة ـ المجاز.

الظواهر اللفظية

١ - المعاقبة:

معاقبة الشىء لغيره حلوله محله وأداؤه لوظيفته، وقد عنى النحاة بتتبع هذه الظاهرة الواحدة ولكنهم أطلقوا عليها طائفة من المصطلحات كما يلى:

* النيابة، كنيابة المفعول عن الفاعل، ونيابة "كل" و"بعض" عن المصدر كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.
* الإغناء، كما فى قولهم: "إن الفعل ترك أغنى عن استعمال الفعل المهجور ودع" بدون تشديد حرف الدال.
* الحلول محل لفظ آخر، كحلول "يا" محل "أدعو" فى النداء.
* السداد مسد لفظ آخر، كما سدت "أن" وما بعدها مسد مفعولى "ظن".
* التأويل، كتأويل الجامد بالمشتق كما فى "زيد رجل".
* العوض، كتنوين العوض فى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾.
* المنزلة، كما فى قولهم: "ما" نافية بمنزلة "ليس".
* التحويل، كما فى التمييز المحول عن الفاعل أو عن المفعول.

* التشبيه، كما فى قولهم: إن لفظ "رجلا" فى (نعم زيد رجلًا) مشبه بالمفعول به.
* التضمين، وهو استعمال لفظ بإعطائه معنى لفظ آخر كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ أى أحسن إلى (بتشديد الياء).

استعمل النحاة كل هذه المصطلحات لظاهرة يحددها مصطلح واحد هو المعاقبة.

٢- الموقعية:

تلك هى الظاهرة التى يسميها اللغويون الأمريكيون: distribution أى التوزيع وهى تجعل موقع العنصر اللغوى جزءًا من معناه، ومن المعروف أن الرتبة (وهى قرينة نحوية) ظاهرة موقعية تكشف عن جزء من المعنى إذا كانت محفوظة، وتعين على التصرف فى الأسلوب والمعنى إذا كانت غير محفوظة، وفيما يلى طائفة من الموقعيات التى تنتمى إلى نظام النحو العربى:

* موقع "لم" قبل المضارع واختصاصها به كما فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.
* العطف ب "أم" بعد همز التسوية، نحو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
* الوقف بالسكون فى آخر القول للدلالة على الموقع
* عدم البدء بالساكن، فالبدء موقع استعمال بعد صمت والساكن أقرب إلى الصمت فلا يوحى للسمع ببدء الكلام.
* التخلص من التقاء الساكنين لتجنب الثقل.
* تفخيم الصوت المرقق إذا جاور صوتًا مفخمًا كما فى تحويل تاء الافتعال إلى طاء فى نحو: مصطفى – واطلع (بتشديد الطاء) – واظطلم – واصطرخ.
* تكسر الهاء من ضمير الغيبة إذا سبقها كسر أوياء ساكنة نحو فيه وبه، وتضم فى غير ذلك نحو: له – كتابه – لهم – كتابهم.

* تشبع الحركة فى ضمير الغائب المفرد إذا لحقه متحرك نحو: "له معقبات" وتحتفظ بقصرها إذا تلاها ساكن نحو: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾.

* زيادة الحرف لتقوية المعنى والاهتمام بالحدث، كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾(هود: ٧٤). المعنى هنا: فلما ذهب عن إبراهيم الروع جاءته البشرى وهو يجاد لنا فى شأن قوم لوط. وهذه الواو الزائدة ترد فى مواطن أخرى فى النص القرآنى، منها ما يلى:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ (الصافات: ١٠٣-١٠٤).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(الزمر: ٧٣).

٣- النقل:

الفرق بين النقل والمعاقبة أن النقل إجراء أسلوبى ولكن المعاقبة ظاهرة نحوية. وفى الحالتين يدل اللفظ على معنى لفظ آخر، لكنه عند النقل لا تحكمه قاعدة ولا يلغى اللفظ المنقول العودة إلى اللفظ الآخر الذى حل اللفظ المنقول محله، أما فى المعاقبة فلا يمكن لنائب الفاعل مثلًا أن يصبح فاعلًا ولا للفعل الماضى "ودع" أن يلغى ما عوضه ليدل على معناه باطراد، وهكذا فى البقية. وفيما يلى طائفة من حالات النقل فى الأسلوب العربى:

* تنقل "إلا" من الاستثناء لتدل على الاستدراك (أى إلى معنى "لكن" كما فى قوله تعالى:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

* تنقل "هل" إلى معنى التعجب كما فى قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾.

* تنقل "إذ" إلى معنى أداة استئناف كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (أى لقد أخذ).

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (أى لقد تأذن).

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (أى لقد قال).

والداعى إلى هذا الفهم أن ما يقدره النحاة لتعلق "إذ" بالفعل "أذكر" يتطلب مثلًا أن يكون النبى حاضرًا عند قول الله تعالى للمخاطبين هذا الكلام، ومن ثَمَّ يتعلق الظرف بهذا الفعل المقدر.

* تنقل "لو" لمعنى النفى كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

أى ما كان لنص يتلى أن تؤدى قراءته إلى تغيير طبائع الأشياء فأمر هذا التغيير كله لله. دعنا إذن نلق نظرة على المقصود بتسيير الجبال وقطع الأرض وتكليم الموتى، وكيف انتهى أمر كل شىء من ذلك إلى إرادة الله سبحانه وتعالى.

* المقصود بالقرآن أى نص مصدره الوحى يمكن أن يقرأ لإتمام غرض إنسانى ما.

تسيير الجبال لا يستطيعه إلا الله ومن ذلك ما يتردد فى كتب الجيولوجيا من كلام عن الحركات التكتونية مثل أخدود البحر الأحمر واختفاء قارة أطلنطس – وابتعاد أمريكا الجنوبية عن أفريقيا بعد تقاربهما.

المقصود بالأرض المسافة التى يقطعها المسافر وقطعها سرعة انتهائها كما حدث فى ليلة الإسراء.

أو كلم به المتوفى كما حدث لقتيل سورة البقرة إذ أحياه الله بعد ضربه ببعضها، وكطيور إبراهيم اللاتى دعاهن فأتينه سعيًا. ويدل سياق النص على أن مثل هذه المعجزات لا يتحقق إلا بإرادة الله ولا يمكن لبشر أن يستعين بقراءة نص ما للوصول إلى إنجاز مثل ذلك. [وفى ذلك ما يطعن فى صدق السحرة].

- **الترخص.**

حين يذكر الترخص ترد فكرة القرائن النحوية على الذهن، كما يرد على الذهن أمن اللبس أيضًا. فالرخصة النحوية إهدار لبعض القرائن عن أمن اللبس. والمعروف أن المقصود باللبس تعدد احتمالات الدلالة على المعنى دون مرجح، ولا يتم أمن اللبس إلا عندما تتضافر القرائن الدالة على المعنى فينكشف المعنى المراد دون أن يختلط به أى معنى آخر، والقرائن المقصودة هنا هى: الإعراب والبنية والتضام والرتبة والربط والسياق، وسنحاول فيما يلى إيراد بعض الشواهد المشتملة على ترخص فى بعض هذه القرائن:

*** العلامة الإعرابية:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ برفع "الصابئون" وهو معطوف على المنصوبات؛ لأن اللبس مأمون بواو العطف والطابع الدينى المشترك بين الألفاظ المتعاطفة.

وقال جل شأنه: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ رفع لفظ "هذان" على رغم كونه اسمًا لإن ومع ذلك ظل هذا اللفظ دالًا على كونه اسمًا لإن هناك قاعدة تمنع أن يتوسط بين إن واسمها غير الظرف أو الجار والمجرور. أى أن القاعدة المذكورة تحكم بأن "هذان" (وهو ليس ظرفًا ولا مجرورًا) لا يمكن إلا أن يكون هو اسم إن.

قال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ كان من المتوقع أن يكون الفعل "تأمن" مرفوعا بضمة على النون، ولكن توالى النونين. فى لام

الفعل وضمير المتكلمين، برر إسكان لام الفعل من أجل إدغامها فى نون الضمير طلبًا للخفة، ولأن اللبس مأمون بسياق النص الذى يدل على أن إخوة يوسف يلومون أباهم لعدم ثقته بهم. ولولا ذلك لظن السامع أن "لا" التى قبل الفعل ناهية. وقد قوى المعنى بعد ذلك قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾.

البنيـــة:

قال تعالى:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾	والمقصود: إلياس.
﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾	والمقصود: تكذيبًا.
﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾	والمقصود: كبيرًا.
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾	والمقصود: مكة.
﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾	والمقصود: عجيب.

الرتبـــة:

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أى: سخروا منه وهو يصنع.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾؛ أى: ناداه وهى تجرى.

التضـــام:

يشمل مفهوم التضام ثلاثة أشياء هى: الافتقار والاختصاص والتوارد. ومعنى ذلك أن الترخص فى الافتقار يتحقق فى صورة الحذف وفى الاختصاص بإهماله وفى التوارد بالمفارقة المعجمية بين ألفاظ السياق.

فمن الحذف قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ جملة تعجبية تفسر ما قبلها من قوله ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ الذى حذف منه افعل التعجب كما حذف من حديث أم زرع الذى

يقول: «زوجى أبو زرع وما أبو زرع». ويبرر فهم التعجب فى الآيات السابقة أن النبى عليه الصلاة والسلام تلقى فى الوحى الكثير من أخبار الساعة ومن أشرطها مما يؤهله لأن يكون علمه بذلك موضع تعجب، أما فهم الاستفهام من هذه الآية فيحول دونه أن الله أعلم بالحاقة من نبيه، فكيف يسأله؟

ومن الحذف أيضًا قوله جل شأنه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾. ففى هذه الآية موضعان يصلح كل منهما لتقدير فاء العطف مع عدم تقديرها فى الآخر. وذلك على النحو التالى:

إذا ما أتوك... فقلت ... تولوا.

أو إذا ما أتوك .. قلت .. فتولوا.

ومن الزيادة قوله عز من قائل: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾. فهنا واوان إحداهما زائدة، والتقدير كما يلى:

فلما أسلما تله للجبين وناديناه.

أو فلما أسلما وتله للجبين ناديناه.

ومنه أيضًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾.

فالتقدير كما يلى:

حتى إذا فشلتم تنازعتم وعصيتم.

أو حتى إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم.

أما الترخص فى الاختصاص فيشهد له قوله جل شأنه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ من أحكام الاختصاص أن توصف النكرة بالنكرة، ولكن قد يترخص فى هذا الاختصاص فتوصف النكرة بالمعرفة، والذى برر ذلك الترخص (أو الاتساع كما يقال أحيانا): إن النكرة "همزة" (بضم الهاء وفتح الميم)

وصفت بنكرة أخرى (لمزة) فقربها ذلك من المعرفة، فوصفت بالمعرفة، ونظائر ذلك فى النص القرآن كثيرة ذكرتها فى كتاب البيان فى روائع القرآن.

ومن الترخص فى التوارد قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (أى سيناء) وكذلك ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (أى على إلياس).

٤ - الربط:

المقصود بالترخص فى الربط عدم ذكر المرجع لدلالة السياق عليه، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾. ومن ذلك أيضا قوله جل شأنه: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ ﴾ (أى القرآن) ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (أى جبريل) ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ (أى محمد ﷺ) ﴿ بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ ﴾ (أى القرآن) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ ﴾ (أى القرآن) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ ﴾ (أى القرآن) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

٥ - المشترك اللفظى:

لباس: لهذا اللفظ معنيان:

أحدهما: ما يلبس على الجسم لستر العورة واتقاء الظواهر الجوية الضارة.

والثانى: مصدر الفعل (لابس يلابس لباسا وملابسة) أى خالط يخالط. ومن شواهد المعنى الثانى قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾. فالمقصود بلباس التقوى ملابستها.

يعدلون:

ولهذا اللفظ أيضًا معنيان: أحدهما (يتخذون عديلا) كما فى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾. (الأنعام: ١).

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(الأنعام: ١٥٠).

والآخر معناه (يحكمون بالعدل)، كما فى قوله جل شأنه:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾. (الأعراف: ١٥٩).

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾(الأعراف: ١٨١).

تـــذر:

أصوله الثلاثة (وذر)، ويقول النحاة إنه استغنى عن الماضى منه بالفعل (ترك). وفى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ (الأعراف: ١٢٧). والمعنى: أتبيح لموسى وقومه أن يفسدوا فى الأرض ويهملك أنت وآلهتك؟

أعـــرض:

والأمر كذلك هنا. فقد ورد هذا اللفظ مرتين فى آية واحدة على سبيل المشاكلة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾(التوبة: ٩٥).

الأوسط:

المعنيان هما: الواقع بين شيئين والأفضل، وأفضلهما. وفيما يلى شواهد تؤيد ذلك هى قوله تعالى:

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾(العاديات: ٥) أى اتخذن مكانًا وسطًا بين أفراد الجمع.

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾(البقرة: ٢٣٨). أى المتقنة.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨) أى أفضلهم.

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩). أى أفضله.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣). أى فضلى.

الظواهر المعنوية:

١- لازم المعنى:

أطلق البلاغيون على ظاهرة لزوم المعنى مصطلح "الكناية"، ومن الكناية قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧). إذ يلزم من أكل الطعام (ولا اعتراض عليه) أمر آخر هو إفراز نتائج الهضم (وهو أمر لا يحسن الكلام الصريح فيه)، ثم إنه يلزم من المشى فى الأسواق الاشتغال بالبيع والشراء، مع ما يقوم به البائع والشارى من المساومات التى تحفل بصنوف الكذب والخداع والمبالغة فى تحسين السلعة وفى تحديد الثمن زيادة أو نقصًا، دون الرجوع إلى التحلى بالخلق الفاضل والصدق فى الكلام، وهكذا عمل النص القرآن فى آية لاحقة إلى إهمال مبدأ اللزوم والعودة إلى المعنى الأصلى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٢٠).

٢- مفهوم المخالفة:

هذا المفهوم يعد مهربًا لمن يريد أن يقول شيئًا فيتوسل إلى ذلك بقول ما يناقضه هربًا من إفساد الموقف أو خوفًا من عواقب الصراحة، من ذلك ما قاله قوم صالح لنبيهم: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ (هود: ٦٢)؛ أى إننا نأسف لأننا لم نعد نرجو فيك خيرا، والمقصود بهذا أنهم رأوا فى تذكير صالح بما كان له من احترام فى نفوسهم ما يخفف من وقع نفى احترامهم له الآن.

ومن ذلك أيضا قوله جل وعلا: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (يوسف: ٢٢). فمفهوم المخالفة هنا أن الله سبحانه لم يؤت يوسف قبل البلوغ حكمًا ولا علمًا.

ومنه كذلك قوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ (سبأ ٤٧). والمعنى: أنا فى غنى عن استرضائكم والاستعانة بكم فإذا كنتم قد عزمتم على منحى شيئًا من عطاياكم فى نظير سكوتى عن إبلاغ الرسالة فأنا فى غنى عنه فاحتفظوا به لأنفسكم.

٣- ظل المعنى:

إن مفهوم المخالفة يعد ظلًا من ظلال المعنى، وهذه الظلال متعددة الأنواع، ومنها ما يلى:

السؤال الوارد: قد يسمع المرء كلامًا فيرى أن معناه يصطدم بمعلومة سابقة تخالف ما سمعه فيدور بخلده عندئذ سؤال يعينه على تفسير هذا التضارب بين المسموع والمعهود، وهنا تأتى إجابة هذا السؤال لتضع الأمر فى نصابه، انظر مثلا إلى قوله تعالى بعد عزم النبى على الاستغفار لعمه أبى طالب: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: ١١٣). هنا أصبح السؤال التالى واردا على الذهن: (لماذا إذن استغفار إبراهيم لأبيه؟) وهنا جاء الرد بما يلى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (التوبة: ١١٤). فظل المعنى فى هذا المقام هو السؤال الوارد الذى كتمه السامع فى نفسه وأجاب عليه الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أيضًا أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الثقلين (الإنس والجن) فى يوم الحشر: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩). فيترتب على ذلك سؤال هو: (كيف ذلك واليوم يوم الحساب؟) عندئذ يأتى الجواب بقوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن: ٤١). أى أن سيماهم أغنت عن مساءلتهم.

٤- دلالة اللفظ المختار:

كان من المقبول فى حالة مراودة يوسف عن نفسه أن تنحط قيمة امرأة العزيز فى سياق النص القرآنى لما أقدمت عليه من مراودة فتاها وخيانة زوجها، ومن هنا نجد الإشارة إلى هذه المرأة أن تأتى على الصورة التالية: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ (يوسف: ٢٣).

والذى يوحى به هذا التعبير أن العلاقة بينه وبينها هى مجرد إقامته فى بيتها، فهى ليست سيدته وليست خارج حياته؛ لأنه من غلمان هذا البيت، ثم إنها لم تكلفه أمرًا مشروعًا وإنما دعته إلى مشاركتها فى خيانة زوجها، وهو أمر رفضه يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣). ولما حاول يوسف الهرب منها جرى فى اتجاه الباب، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (يوسف: ٢٥)، لم يقل النص هنا (وألفيا زوجها)، وإنما أراد أن يضع من شأنها فاختار اللفظ المناسب لإهدارها الشعور بقيمة الحياة الزوجية.

٥- دلالة الاستفهام الإنكارى:

إذا بدئ الاستفهام الإنكارى بحرف النفى فإن ظل المعنى هو الإثبات أو الأمر، كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ (الضحى: ٦) أى لقد وجدك يتيما. وقوله جل شأنه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ (التوبة: ١٢). أى قاتلوهم.

أما إذا لم يبدأ الاستفهام الإنكارى بحرف النفى فإن ظل المعنى هو النفى أو النهى، قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات: ١٢)؛ أى لا يحب أحدكم ذلك، وقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣) فمن الواضح أن ظاهر التركيب هنا لا يقبل إقامة علاقة بين "حتى" المفيدة للتعليل وبين ما سبقها من الآية، ولكن إذا استوحينا ظل المعنى (وهو على صورة النفى) وجدنا سياقه ينسجم مع "حتى" التى هى للتعليل، والتقدير: (ما كان ينبغى أن تأذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)، وقد يأتى ظل المعنى فى صورة النهى كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩). أى لا تكره الناس على الإيمان.

وقد يستفاد النفى من لفظ معجمى مثبت كالاسم أو الفعل فيؤدى إثبات اللفظ نحويًا (على رغم دلالته المعجمية) إلى أن يأتى ظل المعنى فى صورة النفى كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ (التوبة: ٣٢)؛ أى لا يقبل إلا أن يتم نوره. والمعنى على الحصر.

٦- دلالة الفعل على نوع المفعول به:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ * وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ * قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى * حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ * وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا * ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص: ٢٣-٢٤). أضيفت العلامة (*) فى مواقع المفعول به وحذف المفعول لدلالة الفعل عليه. فالسقيا والذود والإصدار لا تكون إلا لقطعان الماشية.

٧- إشراب المعنى الأصلى معنى آخر:

من ذلك إشراب الموصول معنى الشرط، فقد يستعمل الإخبار بالموصول على علاته دون إشراب للمعنى، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦١- ٢٦٢). نزلت هذه الآية فى مناسبة خاصة بمساهمة عثمان بن عفان فى نفقات جيش العسرة، فلم يكن هناك مجال لإشراب الموصول معنى الشرط؛ لأن الشرط، عام وعثمان (رضى الله عنه) فرد ومن هنا لم يقترن الخبر بالفاء على نحو ما يكون فى جواب الشرط.

أما حين يكون نص الآية دعوة عامة إلى الإنفاق فمن أنفق فله أجره ولا خوف عليه، ومن بخل بالإنفاق فقد ارتكب ذنبًا فذلك فى أصله معنى الشرط، فإذا جاء التعبير عنه بالموصول فذلك يدعو إلى إشراب الموصول معنى الشرط، من هنا كان نص الآية الداعية إلى ذلك كما يلى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. (٢٧٤).

٨- المجاز:

ينص تعريف المجاز على أنه: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى" فالمعنى الأصلى هو المعنى المعجمى

والمعنى الآخر هو المقصود بالكلام، والعلاقة هى المشابهة والقرينة هى المفارقة المعجمية بين المعنى الأصلى ومقصود الكلام. فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(الفتح: ١٠). فليس لله يد، وإنما المقصود هنا هو رضى الله عن ما اتخذوه من قرار متفق عليه. وإذا قرأنا: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٧٨). فليس فى ذلك ادعاء أن لله وجها كوجوهنا، وإنما المقصود هو الاتجاه إلى الله بالطاعة والعمل الصالح.

الدلالة اللغوية بين الإفراد المعجمى والتنوع السياقى

اللغة نظام كلى يتكون من نظم فرعية بينها علاقة التكافل، أى أن كل نظام منها ينتفع بعطاء الآخر، فيصدق عليها ما جاء فى الحديث النبوى الشريف من قوله ﷺ: «مثل المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى». والمعروف أن الأنظمة الفرعية التى يتكون منها النظام اللغوى الأكبر هى:

* نظام الأصوات: وهو ينبنى من المخارج والصفات والتفاعلات الصوتية والتغيرات التى تحدث فى السياق المتصل.

* النظام الصرفى: وهو يتكون من الأصول المجردة كأصل الوضع وأصل الاشتقاق وما يتفرع عنهما من تغيرات الصياغة اللفظية من إدغام أو إعلال أو إبدال أو نقل أو قلب أو حذف أو معاقبة أو غير ذلك من عطاء نظام الأصوات ومن قواعد أصول الصياغة اللفظية، وإلى جانب ذلك عدد من وظائف العدول عن الأصل.

* النظام النحوى: وهو يتمثل فى طوائف من العلاقات المجردة التى تجد التعبير عنها فى عناصر نظامى الأصوات والصرف، كما يتألف هذا النظام من المعانى الوظيفية التى تنشأ عن تطبيقات النظامين المذكورين.

* ولقد أجمع علماء اللغة تقريبًا على أنَّ المعجم لا يمثل نظامًا من أنظمة اللغة، بل هو فى رأيهم سجل لمفرداتها. وهذه المفردات لا تتجمع على صورة منظمة يمكن أن ينشأ عنها علم مضبوط ذو قواعد على الطريقة التى كانت تتميز بها الأنظمة السابقة.

غير أن هؤلاء الذين لم يروا أن المعجم لا يمثل نظامًا وأنه مجرد سجل لمفردات اللغة كانوا هم أنفسهم الذين لاحظوا وجود ظاهرة الحقول المعجمية التى تنتمى إليها مفردات المعجم وأن كل مفردتين مختلفتى الحقل قد تصلحان أو لا تصلحان أن تضام إحداهما الأخرى، وهذا ما عبر عنه البيانيون بقولهم: أسند إلى من هو له أو لم يسند إلى ذلك. ومن الحقول التى أشرنا إليها منذ قليل حقل القرابات وحقل المهن وحقل الألوان، إلخ. فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ نجد لفظ (لباس) اتفق مع بنى آدم ووارى سوآتهم، وأن هذا اللفظ نفسه لم يتفق مع (التقوى) إلا بانتقاله من حقل الملابس إلى حقل الملابسة، ليصير المعنى: وملابسة التقوى ذلك خير (أى مصاحبة التقوى) أفلا يصح بعد ذلك أن نقول: إن المعجم واحد من أنظمة اللغة؟

وإذا كانت عناصر الأصوات مخارج وصفات، وعناصر الصرف أصولًا مجردة وصيغًا، وعناصر النحو علاقات ووظائف، فإن عناصر المعجم هى الحقول المعجمية، وهى فى تقلباتها تنتفع كثيرًا بقواعد الأصوات والصرف دون النحو؛ لأن النحو كما قلنا منذ قليل هو علم العلاقات، والمعروف أن العلاقات النحوية إنما تكون فى السياق لا فى الإفراد.

دعنا الآن نلق نظرة على موضوع الدلالة فى هذا الجانب الإفرادى تمهيدًا للتفريق بين هذه الدلالة وبين الدلالة السياقية، ونبدأ الكلام عن الأصوات، للصوت المفرد احتمالات متعددة من حيث الدلالة أولها أنه لبس من شأنه أن يستقل بدلالة عرفية بحسب وضعه فى النظام اللغوى لأنه لا يعد من أقسام الكلم. لكن للصوت المفرد من طرق الاستعمال ما يجعله دالا على الانطباع المُعَيَّن أو على معنى وظيفى هو جزء من نظام اللغة.

- قال تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾.

المعنى بعد إتمام بناء السد وبعد أن أفرغ ذو القرنين القطر على جسم السد ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (الكهف: ٩٦) أصبح من الصعب على يأجوج ومأجوج أن يتسلقوا السد أو أن ينقبوه. ولما كان التسلق أسهل من النقب عبرت الآية الكريمة عن ذلك بحذف التاء من استطاعة التسلق وبإبقائها فى مصدر النقب.

- قال جل شأنه: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾.

وقال: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾.

حذفت التاء وكسر ما قبلها لسبب واحد هو صعوبة أداء الحدث فى الحالتين. وقد خضع هذا التغير للقاعدة الصرفية الآتية:

- الأصل: يهتدى. نقلت حركة التاء إلى الساكن الصحيح قبلها وهو الهاء فسكنت التاء. اجتمع مثلان (التاء الساكنة والدال المكسورة).

أدغمت التاء، فى الدال المكسورة فأصبح اللفظ (يهدى) بفتح الهاء.

حولت فتحة الهاء إلى كسرة للمناسبة.

والأمر بالمثل فى (يخصمون).

- قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى النار.

وقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾.

ومعنى هذا أن النار مقفلة على أهلها فلا تفتح إلا لاستقبال آخرين، وأن الجنة مفتحة الأبواب بصورة دائمة. فإذا قال تعالى فى شأن جنهم: : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ فالفتح لا يكون إلا عند المجىء، أما إذا قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ فالمعنى "وقد فتحت أبوابها" ويكون جواب (حتى) هو قول الخزنة: سلام عليكم مع زيادة الواو فى (وقالت لهم).

وقال أيضًا: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٦).

هذا شبيه بالواوات فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ إذ يصلح تخريج المعنى فى الحالتين على القول بزيادة أى من الواوين وأصالة الأخرى.

المقصود بالمعانى التى عبرت عنها الحروف فى الشواهد السابقة هو الوظائف النحوية التى تفهم من الذكر والحذف والموقع وهلم جرا، وللحروف معانٍ أخرى انطباعية من النوع الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ (محمد: ٣٠)؛ أى: فى نغمات كلامهم.

ذلك بأن للصوت من الصفات الحسية ما يوحى أحيانًا بالمقصود من الكلام، مثال ذلك أن يدل المتكلم بجهر المهموس أو بهمس المجهور أو بإجراء نقل المخرج أو تعديل شىء مما جرى عليه عرف النطق فى فهم السامع من ذلك ما يوحى به الانطباع. إن من قواعد النطق العربى للكلام أنه لا يصح البدء بنطق الحرف الساكن. فإذا كان على المتكلم أن يبدأ بحرف ساكن فعليه أن يبدأ كلامه بهمزة وصل بعدها حركة ثم يأتى الحرف الساكن، مثال ذلك أن صوت الفاء مهموس فى نظام اللغة وأن النطق به وهو مفرد يتطلب البدء بالهمزة المذكورة كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فمن ضاق ذرعًا بوالديه ورأى أن يعبر عن ضيقه بالفاء الساكنة فعليه أن يصل إليها بواسطة الهمزة المضمومة.

والمثال الآخر على هذا التصرف ما فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾. فالياء فى لفظ (إى) ساكنة ومن ثم جاء التوصل إلى النطق بها بواسطة همزة مكسورة، ومن أمثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فحكم الثناء فى (اثاقلتم) كحكم الفاء والياء فيما سبق.

هذا النوع من الدلالة الانطباعية غير مقصور على الحروف المفردة، فقد يحدث صوغ كلمة مكونة من عدد من الأصوات الموحية بانطباع معين كما نرى فى كلمة (الزقوم) التى فى قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، والثابت أن هذه الكلمة لم يسبق وجودها قبل صوغها، فالله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾، أما صوغ الكلمة فقد روعى فيه ما يلى:

* فى اجتماع الحرفين الأولين من الكلمة إشارة إلى أن هذه الشجرة مصدر للطعام بدليل قوله: ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، واللفظ يشير إلى القول المشهور: "زق الطائر فرخه" أى أطعمه.

* الحرف التالى من الكلمة هو القاف، ومخرجه أمام اللهاة فى الموضع الذى تستقر فيه اللقمة قبل ابتلاعها.

* هذه القاف مشددة مما يوحى بأن اللقمة طال استقرارها فى هذا المكان ومن شأن ذلك أن يسبب الضيق والألم.

* كان من الممكن أن تأتى بعد القاف حركة قصيرة تختصر بقاء اللقمة فى هذا المكان، ولكن إرادة استمرار الإحساس بالضيق جاءت بالواو بعد القاف لتضيف إلى الضيق ضيقًا آخر؛ لأن واو المد أطول من الضمة.

* يمكن لمن يريد أن يشرب أن يفعل ذلك وهو مفتوح الشفتين لكن من يريد ابتلاع الطعام (كما فى طعام الأثيم) لا يمكنه ابتلاع اللقمة إلا بشفتين مقفلتين، ومن هنا كان إقفال الشفتين فى نهاية الكلمة.

وهكذا تكون صياغة اللفظ بطريق الحكاية Onomatopoetic.

قد يسأل سائل عما إذا كان المعنى الانطباعى مقصورًا على الحروف المفردة أو أن له أن يتخطى الإفراد إلى السياق المتصل، والجواب على ذلك أن الانطباع كما يكون تأثرًا سمعيًا كما عرفنا فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ يكون تأثرًا

بصريًا كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ والمقصود بسيماهم ما يبدو على هيئتهم العامة من الفقر والمذلة. ومن معرفة الناس بسيماهم ما فى سورة يوسف من قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ أى أنه عرفهم بسيماهم.

لا يزال الكلام عن المعنى الانطباعى للأصوات قائمًا حتى عندما نتحول إلى الكلام فى الدلالة الصرفية. فقد تكون دلالة المعنى وظيفة لحركة الإعراب كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ إذ تؤدى حركة الكاف من لفظ (الفلك) وظيفة الدلالة على المفعولية. وقد يكون الدليل على الإعراب حرفًا كما فى قوله جل شأنه: ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ وقد يكون الحرف مقدّرا غير مذكور نحو ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ فموسى فاعل مرفوع بضمة مقدّرة على آخره منع من ظهورها التعذر. وهنا نخرج من إقليم انطباع الحروف المفردة إلى وظائف الأدوات الحرفية.

قد يتحول مفهوم الصوت إلى مفهوم صرفى للأداة فتكون الأداة حرفًا مفردًا حينًا ومركبًا حرفيًّا حينًا آخر، مثال الحرف المفرد (واو العطف وباء الجر) وأداء كل منهما وظيفة سياقية هى إفادة الواو لمعنى العطف وإفادة الباء لمعنى الواسطة. مثال الواو قوله تعالى: ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إذ ربطت الواو بين الله ورسوله على معنى العطف. وأما دلالة الباء على الواسطة فهى مثلا فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. إذ جاءت الباء وسيلة للجهاد والتضحية بالمال والنفس. والمعروف أن الأداة إحدى القرائن اللفظية التى تعد من عطاء النظام الصرفى للنظام النحوى شأنها شأن التضام والرتبة والربط وغير ذلك من القرائن اللفظية التى تدخل فى جملتها تحت مفهوم طلب الخفة.

ويقوم طلب الخفة بالنسبة للنظام الصرفى مقام أمن اللبس بالنسبة لنظام النحو ويختلف كل منهما عن الآخر من حيث اتصال أحدهما باللفظ واتصال الآخر

بالمعنى، وفيما يلى شرح المقصود بطلب الخفة: عندما تصدى النحاة العرب لدراسة النحو كان عليهم أولًا أن ينظروا إلى المفهومات الصغرى القابلة للتأمل وهى المفردات، وأول ما أرادوا الوصول إليه أن يستكشفوا جهات الاتفاق والاختلاف التى تخلق منها نظامًا يجعل تناولها أمرًا ممكنًا ومقبولًا وييسر القدرة على استيعاب فهمها. عندئذ صادفوا وضعًا معقدًا لا يعين على التناول والدرس. وجدوا أن كل مجموعة من الألفاظ المتفقة الوظيفية تختلف تراكيب مفرداتها على نحو يصعب معه أن توضع فى مجموعة تركيبية واحدة ليسهل وصفها والكلام عنها. ووجدوا استعمال بعض ظواهرها مكروهًا يتنافى مع الذوق العربى وطلب الخفة نحو توالى الأمثال والتقاء الساكنين وتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة ونحو ذلك. فلو نظرنا إلى لفظ (قال) مثلًا من وجهة نظر دياكرونية (أى عمودية) لوجدنا مفردات المادة تشتمل على ألفاظ مثل (قول وأقوال وقوّال) وفهمنا أن الحرف الأوسط من الأصول الثلاثة لمفردات المادة يظهر حينًا ويختفى حينا آخر.

وهكذا هداهم التفكير إلى ملاحظة أصول الاشتقاق فوجدوا أن أصل الاشتقاق يجمع بين مفردات متباينة البنية ولكنها تسمح بالانتفاع بمبدأ الحذف والزيادة وباختراع أصل اشتقاق تعود إليه المشتقات المأخوذة منه فى كل مجموعة اشتقاقية. ومن ثم ظفر النحاة بأول خطوات التنظيم اللغوى. وعرفوا ما يقع من الحذف والزيادة فوصلوا إلى استنباط أصل آخر أطلقوا عليه مصطلح أصل الوضع ونظروا إلى عدد حروفه فوجدوها ثلاثة سموها فاء الكلمة وعينها ولامها. (وكان ذلك أشبه ما يكون بالبنية العميقة التى قال بها تشومسكى) فكان حجر الزاوية فى بنية النظام الصرفى. ونظروا إلى الكلمات المستعملة فعادوا بها إلى أصل الوضع فلاحظوا بالمقارنة أن عدد حروف الأصل ثابتة لا تختفى وأن حروف المفردات المستعملة تظهر وتختفى بحسب مواقعها فى سياق الكلام، وأن هذا الظهور وذلك الاختفاء يتم حسب قواعد تنظيم علاقة العدول عن الأصل والرد إليه وتعرف بأنها (قواعد التصريف). وهذه القواعد أهم ما يمتاز به النظام الصرفى وتعد من صلب طلب الخفة وتشبه قواعد التحويل للبنية السطحية.

قلنا: إن النظام الصرفى يقدم للنحو طائفة من القرائن اللفظية، وذكرنا من هذه القرائن التضام والرتبة والربط ونحب أن نضيف إلى ذلك هنا الحذف والزيادة والمعاقبة والنقل، وقد جاء ذكر الحذف والزيادة فى شرح مفهوم أصل الوضع منذ قليل، ويجدر بنا هنا أن نتناول بالشرح فكرة المعاقبة. وحين تناول النحاة فكرة المعاقبة لم يطلقوا عليها هذا الاسم ولم يقنعوا بإيراد مصطلح واحد للدلالة عليها وإنما استبدوا بها الألفاظ التالية:

* النيابة — حروف الجر ينوب بعضها عن بعض نحو "ذهب لحال سبيله". ينوب المفعول به عن الفاعل فيسمى نائب الفاعل نحو "قضى الأمر". "كل" و"بعض" ينوبان عن المفعول المطلق، نحو ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾.

* السداد — الفاعل يسد مسد الخبر نحو "أقائم أنت بالواجب"؟ الحال تسد مسد الخبر نحو "حفظى النص ضروريًا" أنّ وما بعدها تسد مسد مفعولى ظن نحو ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾.

* الإغناء — (ترك) أغنى عن (ودع) نحو ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾

* العوض — التنوين للعوض، نحو: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾.

* التأويل — الجامد يؤول بالمشتق، نحو "كر زيد أسدًا".

* الحلول — (يا) النداء حلت محل (أدعو) نحو "يا غافر الذنب".

* المنزلة — (ما) نافية بمنزلة (ليس) نحو: "ما الأمر بمستحيل".

* الشبه — منصوب التعجب مشبه بالمفعول به، نحو "ما أكرم زيدا".

* التحويل — التمييز قد يحول عن الفاعل أو عن المفعول. نحو ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ "ونحو" زرعت الأرض قطنًا".

وكل ذلك بمعنى المعاقبة، لأن معنى المعاقبة أن يحل اللفظ محل لفظ آخر فيستولى على موقعه وإعرابه مع الإبقاء على لفظه فى بعض الحالات كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَا

﴿ تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ إذ نقلت فتحة المصدر (الميل) إلى لفظ (كل) وبقى المصدر مضبوطًا بكسرة.

وأما النقل فإنه يمنح المنقول إليه معنى المنقول منه دون حروفه كما فى قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فالمعروف أن (إلا) حرف استثناء ولكنها هنا غير صالحة لذلك لعدم وجود ما يصلح أن يكون مستثنى منه وإنما يصلح السياق لمعنى الاستدراك الذى تدل عليه (لكن)، فيكون المقصود هو: (لكن أنزلناه تذكرة لمن يخشى). ومن هذا القبيل ما فى قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ فالسلام لا يستثنى من اللغو وإنما يستدرك به عليه. وشرط استعمال "إلا" فى الاستدراك أن تكون الجملة التى سبقتها منفية كما رأينا فى الشاهدين السابقين. وقد تنقل (إذ) فى المصدرية كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أو إلى التعليل نحو: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾. وقد تنقل اللام إلى معنى المصدرية كما فى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ وقد تنقل اللام إلى معنى (عن) نحو ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾.

بهذا نعلم أن المعنى على المستوى الصرفى راجع إلى المبنى وهو على المستوى النحوى راجع إلى العلاقة السياقية أو عليهما معًا وهو على مستوى المعجم راجع إلى العرف. بناحيته العامة والخاصة. ولعل أوضح ما يختص به المعنى السياقى هو ما يدل عليه من القرائن لفظية كانت أم معنوية. وأهم هذه القرائن التضام (وما يشمله من افتقار أو اختصاص) والرتبة (محفوظة أو غير محفوظة) والربط (وما يتحقق به من الوسائل) والبنية والمناسبة والوظيفة والعرف والرخصة، إلخ.

فالتضام علاقة بين عنصرين مذكورين أو أن أحدهما مقدر غير مذكور. ومن هذين العنصرين إما أن يكون أحد عناصر التركيب (كما فى التركيب الإضافى أو الإسنادى مثلًا) منقولًا عن علاقة إسنادية كما فى ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أى اضربوا

الرقاب، أو عن علاقة وصفية كما فى ﴿ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ ؛ أى: العمر الأرذل، أو غير منقول كما فى ﴿ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.

والرتبة أو الترتيب هى العلاقة بين عناصر السياق تقديمًا وتأخيرًا ويقع ذلك فى نوعين: رتبة محفوظة ذات قواعد لا يصح تجاهلها ورتبة أخرى غير محفوظة يمكن التصرف فى شأنها بحسب ما يرى المتكلم. كما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وما بين هاتين العبارتين من اختلاف المعنى بتقديم لفظ (قليلًا) وتأخيره. ومن ذلك أيضًا الرتبة التى أحكمت مواقع الألفاظ فى قوله سبحانه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾. أما الرتبة المحفوظة فمثالها: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

الأصل فى الربط أن يكون بإعادة اللفظ الذى سبق ذكره للتذكير به أو إعادة المعنى لإتمام وحدة موضوع الكلام. فمن الممكن أن يكون الربط كما يلى:

* ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

* ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومن الممكن أن يكون الربط بوسيلة أخرى مما يلى:

* الجار والمجرور، نحو:

* ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

* التركيب الإضافى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

* الموصول وصلته، نحو:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

* لفظ الجلالة، نحو:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾.

* إن واسمها، نحو:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* الظرف، نحو:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

* الضمير، نحو:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

* الإشارة، نحو:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾.

سبق أن ذكرنا أن من ألفاظ اللغة العربية ما هو معرب ومنها ما هو مبنى. والإعراب علامة تلحق بآخر اللفظ المعرب لبيان معناه المقصود وهو فى هذا الموقع الذى هو فيه وقد تكون علامة الإعراب حركة وقد تكون حرفًا أو حذفًا أو تقديرًا لواحدة من هذه العلامات أو ظاهرة مما يعرض له من هذه الظواهر الموقعية. ولقد اخترع النحاة للإعراب عاملًا جعلوه متغيرًا بين اللفظى والمعنوى وظل هذا العامل رهن التطبيق النحوى حتى وقتنا هذا إذ بدأ المحدثون من دارسى اللغة يوجهون النقد إلى هذا العامل ويحلون محله سببًا آخر للإعراب هو الوظيفة التى يحددها سياق النص. وقد يكون اللفظ المعرب اسمًا نحو: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾، أو فعلا، نحو: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أو صفة، نحو: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أو أحد الأسماء الخمسة نحو: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أو حذفًا لحرف علة نحو: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾.

والبنية من قرائن النحو، وأكثر ما تكون البنية قرينة ضرورية عند غيبة الإعراب. كما أن البنية قد تحذف فيجرى تقديرها كما يلى:

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ المحذوف مقدر وتقديره (أعرضوا) ومكانه بين القوسين فى نص الشاهد. وقرينة المحذوف هى "معرضين" فى آخر الشاهد.

* ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ اللفظ المقدر هو فى المسافة بين القوسين، وتقديره "أكنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه"؟

* ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ اللفظ المحذوف المقدر هو "غير السموات".

أما المناسبة فقرينة وهى شرط لا بد من الاعتداد به لسلامة الكلام، إن طلاب علم البيان يرددون عبارتين يقصدون بإحداهما سلامة النص وذلك بأن يكون اللفظ فى السياق ذا صلة بلفظ آخر مناسب له، أو بحسب عبارتهم المشهورة (هو له)، فالفاعل من شأنه أن يسند إلى فعل هو له، ويقصدون بالعبارة الأخرى اللفظ الغريب على السياق وهو المتصل بغير من هو له. أى أن بين اللفظين علاقة مفارقة لا علاقة مناسبة، فإذا سمعنا من يقول: (السماء تحتنا) فالذى بين السماء والتحتية علاقة مفارقة تحول بين العبارة وبين تناسب المسند والمسند إليه، وفى عرف البيانيين أن علاقة المناسبة فى الاستعارة هى وجه الشبه، وفى المجاز المرسل قد تكون العلاقة هى المكانية (أى الحالية والمحلية) أو الزمنية (ما كان وما يكون) أو السببية (السبب والمسبب) أو الكمية (العموم والخصوص) وفى الكناية (قرب المعنى وبعده). غير

أن النص القرآنى أوسع إحاطة بالمشكلة ولا سيما فى صياغة ألفاظ جديدة تتعلق بالمناسبة فيها بعلاقات تعود إلى ما يفهم من السياق فى جملته، كما يلى:

* ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ (انظر ما قيل فى صوغ هذه الكلمة منذ قليل).

* ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾.

فالمقصود أن الشجرة كأنها كوكب درى لا يشرق ولا يغرب كبقية الكواكب.

* ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (أى كما يفعل إبليس بضحاياه إذ يقول لربه: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾.

والوظيفة من القرائن أيضًا وهى مفهوم نحوى فإذا قلنا مثلًا: "جاء زيد" فالمعنى النحوى أن جاء فعل ماض وأن زيدًا فاعل ومن هنا تكون الوظيفة مختلفة عن المعنى المعجمى الذى يقول إن (جاء) معناه (أتى) وأن (زيدًا) معناه رجل يعرفه المتكلم وقد يعرفه السامع أيضًا. أى أن معنى زيد له اتجاه إلى العهد فى بعض صوره. وقد تتعاقب الوظيفة أو تنقل من لفظ إلى لفظ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل بشىء من التفاصيل.

استعمل القرآن ألفاظًا متعددة من مادة (ع ر ف) منها العرف والمعروف والتعريف والمعرفة والتعارف والاعتراف إلخ. قال تعالى:

١. ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

٢. ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾.

٣. ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾.

٤. ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾.

٥. ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾؟

٦. ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾.

وهكذا أصبح العرف إحدى طرق التوثيق فى القرآن الكريم، وإحدى وسائل التقويم للأحكام الفقهية فى الشريعة الإسلامية شأنه كشأن الكتاب والسنة. كما فى قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ وكذلك قوله جل شأنه: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾.

رصد النحو للمعنى طائفة من القرائن وأخضع المعنى للاعتماد على القرينة (أى على رعايتها للوصول إلى الصواب) فإذا كان فى الكلام قرينة زائدة عن الحاجة أغنى عنها ما سواها فتحقق بذلك أمن اللبس. ومن ذلك ما سبقت الإشارة إليه من قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهو أمر ينتمى إلى أسلوب الكلام لا إلى قواعد النحو. ومن المفيد فى هذه القضية أن نذكر أبياتًا من ألفية ابن مالك أشارت إلى هذا الموضوع تجعل الإفادة عندما تتم لأى سبب بديلًا لتحقق القرينة التى حددتها القاعدة ومن هنا يأتى قول ابن مالك فى كل حالة: (ما لم تفد) أو ما فى معنى هذه العبارة.

ولا يكون اسم زمان خبرا ... عن جثة وإن يفد فأخبرا
ولا يجوز الابتدا بالنكر ... ما لم تفد كعند زيد نمرة
والأصل فى الأخبار أن تؤخرا ... وجوّزوا التقديم إذ لا ضررا
وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد من عندكما
وفى جواب كيف زيد قل دنف ... فزيد استغنى عنه إذ عرف
وجائز رفعك معطوفا على ... منصوب إن بعد أن تستكملا
وربما استغنى عنها إن بدا ... ما ناطق أراده معتمدا
وشاع فى ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوطه ظهر
والحذف فى نعم الفتاة استحسنوا ... لأن قصد الجنس فيه بين
وقد يجاء بخلاف الأصل ... وقد يجى المفعول قبل الفعل

وقد يبيح الفصل ترك التاء في ... نحو أتى القاضى بنت الواقف
وأخر المفعول إن ليس حذر ... أو أضمر الفاعل غير منحصر
وما بإلا أو بإنما انحصر ... آخر وقد يسبق إن قصد ظهر
فى باب ظن ورأى المنع اشتهر ... ولا أرى منعًا إذا القصد ظهر
نقلا وفى إن وأن يطرد ... مع أمن لبس كعجبت أن يدو
وقد ينوب عنه ما عليه دل ... كجد كل الجد وافرح الجذل
وحذف عامل المؤكد امتنع ... وفى سواه لدليل متسع
هذا إذا نويت معنى من وإن ... لم تنو فهو طبق ما به قرن
وما من المنعوت والنعت عقل ... يجوز حذفه وفى النعت يقل
وربما أسقطت الهمزة إن ... كان خفا المعنى بحذفها أمن
والفاء قد تحذف مع ما عطفت ... والواو إذ لا لبس وهى انفردت

تأمل هذه الأبيات ثم اذكر ما قلناه عن المعاقبة والنقل والحذف والإفادة تجد فى كل منها دليلًا على المعنى يبيح اللجوء إلى الترخص سعيًا إلى أمن اللبس. والملاحظ أن العبارات اللواتى تحتها خط قد جاءت جميعًا موحية بأسلوب الاستثناء والترخص أى على نية مخالفة القاعدة.

قلنا من قبل: إن المعنى المعجمى قد يتعدد فى الجملة الواحدة ويكون ذلك من خلال الترادف أو تشابه البنية أو اتحادها. إن من يتصدى للتأمل فى تفاسير القرآن الكريم سوف يلحظ أن بعضًا من أقوال المفسرين لم يظفر بالكشف عن المعنى المقصود الذى تدل عليه القرائن اللفظية أو المعنوية فى سياق النص على رغم ما فى سياق النص من دلالات على المعنى المقصود بالتفسير المباشر أو بالتناص. وإليك بعض الشواهد:

١. **الرحمن**: قال بعض المفسرين إن معنى لفظى الرحمن والرحيم واحد فهما

يشبهان (ندمان ونديم). غير أن ما فى النص القرآن من التناص يفرق بين معنى كل من اللفظين وبين معنى الآخر فيجعل الرحمن بمعنى المهيمن ويجعل الرحيم بمعنى الرءوف. قال تعالى:

- ﴿ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.
- ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾.
- ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.
- ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.
- ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؟
- ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.
- ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾.
- ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾.
- ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾.
- ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾.
- ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾.
- ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾.
- ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾.
- ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾.
- ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾.
- ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.
- ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.

• ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾.

• ﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾.

وإلى جانب ذلك كان مسيلمة الكذاب يسمى نفسه رحمن اليمامة أى المهيمن عليها. وقالت جليلة أخت جساس قاتل كليب حين دعيت للطرد من بيت زوجها القتيل.

إنـــنى قاتـــلة مقتولـــة فعسى الرحمن أن يرتاح لى

أى ينصفنى بحكمه. فالرحمن هنا هو المهيمن، والقرآن شاهد على ذلك.

٢. الأولى والآخرة:

* ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ – ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ – ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾. الأولى هى التكذيب والمعصية والآخرة دعوى الألوهية. وقد عاقبه الله بهما.

* ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾. أى إن علينا أن نهدى من صدّق بالحسنى وإن لنا أن نحاسب على الآخرة والأولى.

* ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ ..... ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ..... ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ..... ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ..... ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

الكلام هنا عن النزلة الأولى للوحى والنزلة الثانية: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾

(المقصود هنا هو التعجب مثل "لله أنت").

فذالكم هما نزلتان نزلهما الوحى.

٣. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (أى له الحمد خالقا وله الحمد عالما).

٤. مصدر الفعل الذى على وزن (فاعل) يكون على وزن (الفعال) و(المفاعلة) مثل (قاتل يقاتل قتالًا ومقاتلة).

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ ولقد ورد فى هذه الآية لفظان على صورة (لباس) أولهما معناه (الملابس) والثانى معناه (الملابسة) أى وملابسة التقوى خير.

ويدل على نفس المعنى النصوص التالية:

- ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾.
- ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾.
- ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾.

٥. معنى الوسطية: (الأفضلية)، قال تعالى:

* ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾.
* ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾.
* ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾.

٦. معنى الطباق:

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ فسر طائفة من الناس (طباقا) بأنها طبقات بعضها فوق بعض، ولكن العلم الحديث يخبرنا عن (المجرات) المتطابقة التكوين فكلها نجوم وكواكب وعناصر أخرى لا تفاوت بينها. بل إن القرآن الكريم يشير إلى أن السموات التى خلقها الله بقدرته تظل فى حالة تمدد، والعلم يؤيد ذلك. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾؛ أى خلقناها بقدرة (انظر أيدك الله) وإنا لموسعون؛ أى وإن الكون ليتمدد.

إجراءات صرفية فى تقلبات التاء الزائدة

فى الافتعال والتفاعل والتفعّل

أولًا – الافتعال:

أ- القلب:

* – تقلب تاء الافتعال إلى طاء إذا سبقها حرف مطبق (والمطبقات هى الصاد والضاد والطاء والظاء)

- التاء فى (اصتلح) تقلب إلى طاء كما فى (اصطلح).
- والتاء فى (اضتر) تقلب إلى طاء كما فى (اضطر).
- والتاء فى (اطتلع) تقلب إلى طاء كما فى (اطلع).
- والتاء فى (اظتلم) تقلب إلى طاء كما فى (اظطلم).

*- وتقلب تاء الافتعال إلى دال إذا سبقتها:

- الدّال كما فى (ادتان) إذ تنقلب إلى (آدّان).
- أو الذال كما فى (اذ تكر) إذ تنقلب إلى (ادّكر).
- أو الزاى كما فى (ازتان) إذ تنقلب إلى (ازدان).
- يقول ابن مالك فى تلخيص هذين الإجراءين:

طاتا افتعال رد إثر مطبق فى ادّان وازدد وادّكر دالا بقى

أما فيما سوى هذين الموقعين (عندما تلى التاء حرفًا ليس مما سبق) فإن التاء تظل مستصحبة فلا تنقلب عن صورتها الأصلية، وذلك كما فى:

ائتمر، ابتعد، اجتمع، احتمل، اختصم، ارتضى، اعتنق، اغتفر، افترى، اقترب، اكتمل، التقى، امتحن، انتهى، اهتدى. ولا يخرج عن ذلك إلا أن تأتى التاء بعد واو ساكنة فتنقلب الواو إلى تاء وتدغم فى تاء الافتعال كما فى (اوتصل =اتصل)، وكذلك عند توالى تاءين مثل (ات – تبع = اتبع) وتوالى التاء والثاء كما فى (اث- ت أر = أثأر) أى أخذ بثأره، وفى تحويل لفظ (اظطلم) إلى (اظلم) على سبيل الترخص.

ومن الترخصات القرآنية فى صيغة الافتعال بعض الشواهد التى تتحول فيها التاء إلى حرف مقارب للحروف الذى يليها ثم تدغم فيه. والتاء فى ذلك لا تخضع لقاعدة خاصة بها وإنما تلحق بقاعدة حروف العلة التى تأتى متحركة ومسبوقة بساكن صحيح. تقول القاعدة: "تنقل حركة المعتل إلى الساكن الصحيح قبله" وليست التاء من حروف العلة ولكننا نجد النص القرآنى يعاملها كما لو كانت كذلك فى الاتساع وذلك فى الشواهد التالية:

- ﴿أَفَمَن يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ (يونس: ٣٥).
- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس: ٤٩).

وفيما يلى بيان لعلة العدول عن الأصل إلى هذه الترخصات كل على حدة:

١ – علة العدول عن "يهتدى" إلى يهدّى":

- وقعت التاء من "يهتدى" فى موقع حرف العلة المتحرك المذكور
- نقلت حركة تاء الافتعال إلى الساكن الصحيح قبلها (وهو الهاء) فسكنت التاء.
- التقى متقاربان (تاء الافتعال الساكنة والدال) ومن شأن التقائهما أن يدغم أحدهما فى الآخر كما فى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

فتم هذا الإدغام، وصار مجموعهما دالا مشددة مكسورة مسبوقة بهاء مفتوحة.

- كسرت الهاء للمناسبة فصار اللفظ يهدى بكسر الهاء.

٢- علة العدول عن يختصمون إلى يخصّمون":

- وقعت تاء الافتعال فى "يختصمون" فى موقع حرف العلة المتحرك.
- نقلت حركة تاء الافتعال إلى الساكن الصحيح قبلها (وهو الخاء) فسكنت التاء.
- التقى متقاربان هما تاء الافتعال والدال، ومن شأن التقائهما أن يدغم أحدهما فى الآخر كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ ولذا وقع الإدغام.
- توالت حركتان مختلفتان هما فتحة التاء وكسرة الصاد المشددة فكسرت الخاء للمناسبة. بهذا أصبح اللفظ "يخصّمون"

وفيما يلى طائفة من الشواهد القرآنية التى تظهر استصحاب تاء الافتعال:

- ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(آل عمران: ١٦٦).
- ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (هود: ٣٦).
- ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾(الحديد: ٢٧).
- ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾(النساء: ١٢٥)
- ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾(الأعراف: ٢٠٣).
- ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾(البقرة: ٢٦٦).
- ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (الحج: ١٩).
- ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴾(ص:٧).

ثانيًا - فى التفاعل والتفعّل:

الأمر هنا يختلف عما تقدم لسبب يعود إلى اثنين مهمين من ثوابت النظام اللغوى العربى: أولهما كراهية توالى المثلين، وثانيهما أمن اللبس. وإليك البيان:

لقد كان فى كلامنا عن تاء الافتعال أنه لا فرق فى أحكامها بين الماضى والمضارع وما عداهما من الصيغ، أما بالنسبة للتفاعل والتفعّل فهناك فرق فى رتبة الحروف وفى الإجراء بين هاتين الصيغتين وبين ما رأينا فى شأن الافتعال، وبخاصة بين الماضى والمضارع، ذلك أن رتبة فاء الكلمة والتاء الزائدة تختلف فى الافتعال عنها فى التفاعل والتفعّل، كما يبدو من مجرد النظر إلى أسماء الصيغ، أما بين الماضى والمضارع فحسبنا أن نتأمل فى أن بنية المضارع تبدأ بأحد حروف المضارعة بخلاف الماضى. فلو كان لدينا فعل ماض مثل "تتبع الباحث مفردات الجملة" وأردنا أن نصرف الباحث عن تتبع المفردات إلى تتبع العلاقات قلنا: "لا تتتبع مفردات السياق ولكن تتبع العلاقات بينها"، وعندئذ نجد لدينا فى فعل النهى ثلاثًا من التاءات المتوالية بلا فاصل فنعلم وجه الحكم بكراهية توالى الأمثال، وكذلك نعلم سبب إدغام المثلين. ومن هنا نطمئن لسماع الشواهد القرآنية التى تشهد لهذه الظاهرة من قبيل ما يلى:

- ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨).
- ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (البقرة: ٧٢).
- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ٣٨).
- ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ (النمل: ٦٦).
- ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ٢٦٩).
- ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ (عبس: ٣-٤).
- ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ (الصافات: ٨).
- ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ (البقرة: ٧٤).
- ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).
- ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ (الأعراف: ١٣١).

فالرتبة بين التاء وفاء الكلمة فى كل ذلك عكس ما قرره بيت ابن مالك فى الألفية بالنسبة للافتعال، وذلك بقوله: "إثر مطبق" إلخ. وكما ذكرنا ما يرد على الافتعال من إجراءات العدول عن أصل الوضع بالنسبة للافتعال يمكن أن نشير هنا إلى ما يرد منها بالنسبة للتفاعل والتفعّل، والأمر هنا أبسط مما كان فى حال الافتعال؛ لأنه لا يتعدى قلب التاء إلى مثل ما يليها لتصير ثاء أو دالًا أو غير ذلك كما نراه فى الشواهد الأخيرة، ثم إدغام المثلين أحدهما فى الآخر، فالأمر لا يتعدى القلب والإدغام.

أما الثابت الآخر (وهو أمن اللبس) فيمتد البحث فى شأنه ليشمل الصور الثلاث للفعل ماضيًا ومضارعًا وأمرًا، وليشمل مع ذلك معنيين من معانى الشخص النحوى هما الخطاب والغيبة. ومن ثم يحتاج شرح هذه الظاهرة إلى أن يكون ذلك من خلال جدول الإسناد فى صورته الكاملة، ولو كان المسند فى الجدول فعلًا واحدا فقط كما يلى:

الضمير	الرقم	أ	ب	ج
		ماض	مضارع	أمر
أنا	١	تزكيت	أتزكى	تزك
نحن	٢	تزكينا	نتزكى	نتزكى
أنت	٣	تزكيت	تتزكى	تزك
أنت	٤	تزكيت	تتزكين	تزكى
أنتما	٥	تزكيتما	تتزكيان	تزكيا
أنتم	٦	تزكيتم	تتزكون	تزكوا
أنتن	٧	تزكيتن	تزكين (حذف التاء)	تزكين
هو	٨	تزكى	يتزكى	
هى	٩	تزكت	تتزكى	

هما	١٠	تزكيا	يتزكيان
هما	١١	تزكتا	تتزكيان
هم	١٢	تزكوا	يتزكون
هن	١٣	تزكين	يتزكين

هناك تطابق فى هذا الجدول بين المواقع التالية:

التطابق فى الموقع الأول بين ب٣ و ب٩

وفى الموقع الثانى بين ج٥ و أ١٠

وفى الموقع الثالث بين ج٦ و أ١٢

وفى الموقع الرابع بين ج٧ و أ١٣ وب٧ (بحذف تاء المضارعة)

وهذا التطابق من شأنه أن يؤدى إلى اللبس إلا أن تقوم قرينة على تحديد المعنى كذكر الضمير مع الفعل مثلًا..

أضف إلى ذلك ما يعرض من اللبس عند الترخص بحذف تاء المضارعة من الصيغ التى تبدأ بتاء التفاعل أو التفعّل فلا يدرى المستقبل عندئذ ما إذا كان الفعل ماضيًا أم مضارعًا إلى أن تقوم قرينة لتعيين أحد احتمالات المعنى. وإليك الشواهد التالية على ذلك:

- ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾(البقرة: ١٣٧).
- ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(آل عمران: ٣٢).
- ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾(التوبة: ١٢٩).
- ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾(التحريم: ٤).

هذه الصور المتطابقة من شأنها أن تؤدى إلى اللبس فى التركيب إلا أن تقوم قرينة على المعنى المراد، وفى هذه الحالة (حالة اللبس) ينبغى أن نذكر قول ابن مالك فى الألفية: "وإن بشكل خيف لبس يجتنب". وينبغى لهذا الشطر من الألفية أن يكون قاعدة فى الاستعمال.

اللهجات العامية واللغات الأجنبية

فى التعليم والمجتمع

إذا ذكرنا اللهجة العامية خطر فى صحبتها مفهوم اللغة العامة ذات اللهجات المتعددة، ومفهوم العرف العام والعرف الخاص، ومفهوم الأمة والطائفة، وكذلك اختلاف نوعين من الاهتمامات الثقافية والحياتية تبعًا لاختلاف المفاهيم المذكورة. ومما يترتب على ذلك اختلاف لغة الأمة عن لغة الطائفة فى نواحٍ تجعل من الصعب أن تؤدى إحداهما وظيفة الأخرى دون الإحساس بالفشل، ومن هنا كان لا بد من نسبة كل من اللغة واللهجة إلى ظروف استعمال خاصة تحول بين أداء كل منهما وظيفة الأخرى، فاللغة تحمل مشاغل الأمة وما أكثرها، ومن هذه المشاغل والهموم التعليم والاقتصاد والعلم والعلاقات الداخلية والخارجية والحكم والعرف والعادات والتقاليد والنشاط الاقتصادى بكل فروعه، وعليها ومن واجبها أن توجد الألفاظ والأسماء لكل الموجودات من الأشخاص والأحداث والأفكار. وتخضع استعمال كل ذلك لقواعد تركيبية وأساليب فنية تجعل التفاهم بهذه اللغة أمرًا ذا نتائج ناجحة. وإذا كان ذلك مطلوبًا بالنسبة للهجة فإن الفرق بين اللغة واللهجة لا بد أن يكون مناسبًا وموازيًا لما بين اللغة واللهجة من اختلاف فى أعداد كل من مستعملى هذه ومستعملى تلك فى الداخل والخارج، وما يترتب على اختلاف اهتمام الفريقين ماديًا ومعنويًا.

ومن المسلمات فى علم اللغة المعاصر أن اللهجتين تحتسبان من لغة واحدة إذا كان

المتكلم بإحداهما يفهم ما يقال بالأخرى حتى مع وجود تباين محدود بينهما فى مجالات تركيب الجملة ومعانى مفردات بعض الألفاظ. وإذا نظرنا إلى اللغة العربية ولهجاتها أدركنا صدق هذه المقولة، وساغ فى نظرنا أن ينتدب معلم من بلد عربى للعمل فى تعليم أبناء بلد آخر تختلف لهجته عن لهجة البلد الأول مع افتراض أن من عادات المعلمين أن يلقوا الدروس باللهجة الدارجة فى مجتمعاتهم الأصلية، مع ما يترتب على ذلك من وجود فجوات فى انتفاع التلاميذ بمعنى ما يقوله المعلم. إذا أردت دليلا على ذلك فتأمل ما يلى: لهجة كل منا مكتسبة منذ الطفولة ولذلك يندر أن يجهل أحد منا لهجته الأصلية، ولكن كلا منا يحصل على معرفة اللغة العربية الفصحى بالتعلم الذى يستمر طول العمر. فإذا سمعت رفيقا لك فى استعمال لهجتك فالطبيعى ألا يغيب عن فهمك معنى لفظ مما تسمعه، أما عند قرائتك نصًّا فصيحًا أو سماعه فلتتخيل معناه من الاستعانة بالمعاجم ومن سؤال الغير عما خفى عليك من المعنى، ذلك أن اللغة الفصحى جاءتك عن طريق التعلم لا عن طريق الاكتساب، وليس معنى ذلك أن ننظر إليها نظرتنا إلى اللجهات العامية.

قلنا: إنَّ اللهجة رباط بين أفراد طائفة، أما اللغة الفصحى فهى رباط بين العرب جميعًا وبينهم وبين المسلمين رأسيًّا بواسطة التراث وأفقيًّا بواسطة العلاقات الحاضرة. وسيتوقف فهم اللغة العربية فهما تاما على الانتفاع بالأمور التالية:

معرفة المعانى الوظيفية (أى معانى الحروف والأدوات والعلاقات)، لأن ذلك ضرورى لفهم مواقع المفردات فى سياق الكلام.

- معرفة المعانى المعجمية والمقابلات بين الكلمات؛ لأن الجهل بذلك يؤدى إلى اللغو.
- معرفة الحقول المعجمية فى اللغة وتجارب البيئة ونواحى الاتفاق والاختلاف المتصلة بذلك.
- معرفة المصطلحات إن كان المقام مقام خطاب علمى أو فنى..

- معرفة الفروق بين الأساليب المختلفة وارتباط ذلك بسياق النص وسياق الموقف.
- معرفة التراكيب المسكوكة (التى تجرى مجرى الأمثال) التى لا تتغير فيها رتبة ولا تضام مع اختلاف الاستعمال.
- معرفة العادات والتقاليد السائدة فى مواقع الاتصال.

تلك هى مطالب الاتصال بواسطة اللغة العربية. دعنا الآن نلق نظرة على مدى رعايته فى التعليم:

١. بالنسبة لمعرفة المعانى الوظيفية يحضرنى شيوع الخطأ فى فهم معانى الحروف ومعانى الصيغ الصرفية ونحو ذلك من قبيل ما يراه كثير من المفسرين أن لفظى (طه ويس) أسماء أعلام يقصد بها النبى صلى الله عليه وسلم، ولكن الأوضح فيهما أنهما من فواتح السور على غرار (حم، طس)، ومثله أيضا الخلط فى المعنى بين موتة (بفتح الميم وسكون الواو) وميتة (بكسر الميم)، فالأول منهما اسم مرة والثانى اسم هيئة. فالإنسان يموت موتة واحدة ولكنه يتمنى أن تكون كميتة الأبطال. ولقد تعودنا فى السنوات الأخيرة أن نسمع فى خطب زعماء الثورة لحنًا صرفيًّا فى نطق كلمات مثل بدء (بكسر الباء) ونفق (بضم النون والفاء)، وهلم جرا.

٢. الأعراف جمع عرف ومن معانيها العادات والتقاليد الاجتماعية ومنها عرف الديك وعرف الحصان ولكن لها معنى آخر مستعملا فى سورة الأعراف من سور القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾، والمقصود بالأعراف هنا زوائد البناء فى قمة الفاصل الذى بين الجنة والنار كالذى نراه فى أسوار القلاع والحصون. وتقول الآية الكريمة إن الرجال الذين على الأعراف يميزون أهل الجنة من أهل النار بسيماهم. فيخاطبون أهل الجنة حينا وأهل النار حينا آخر، وأنهم يطمعون فى دخول الجنة ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾(الأعراف: ٤٦) ولست أجد لهذا المعنى الأخير جمهورًا.

٣. معجم اللغة مركب مما يسمى الحقول المعجمية. فهناك على سبيل المثال حقل مكون من ألفاظ القرابة وآخر مكون من ألفاظ الألوان وحقل لألفاظ من يعقل وآخر لألفاظ الوحوش، وهلم جرا. وتتمثل قيمة هذا التوزيع فى دراسة علم البيان وما يشتمل عليه من النظر إلى وجه الشبه وإسناد اللفظ إلى من هو له أو إلى غير من هو له وفى دراسة الأساليب النحوية وصلاحيات الألفاظ للتضام ونحو ذلك. إذا تأمل المرء الأساليب العربية الحاضرة لم يجد لها حرصًا واضحًا على رعاية هذه الأصول وبخاصة فى الأساليب البيانية كما فى الكناية والاستعارة. ومن الصعب ضرب أمثلة لذلك فى هذه العجالة. ولعل فى مألوف أساليب البيان ما يغنى عن التمثيل.

٤. أما من حيث استعمال المصطلحات فى النشاط الاجتماعى وفى التعليم فهناك أيضًا ما يدعو إلى الأسف إذ يشيع فى الكلام العادى أن يستعمل المتكلمون ألفاظًا من قبيل "البتاع" و"البتاعة" فى كثير من وقائع التخاطب إما لعدم معرفة المصطلح وإما لعدم تذكره. وفى حقل التعليم نجد فى إصرار من يريدون التعريف على ذكر المعنى اللغوى فى سياق التعريف جنبًا إلى جنب مع المعنى الاصطلاحى مما يضيف إلى التعريف حِمْلًا لا ضرورة له.

٥. أما من جهة الأساليب المستعملة فى الخطاب العربى فى الوقت الحاضر فإن الطابع الغالب عليها هو طابع الأسلوب الصحفى الإعلامى فلا هو الأسلوب التراثى المغرم بالتزويق ولا هو بالأسلوب إلى يتسم بالمساواة، وإنما تتفاوت المعايير فيه بين الصحة والخطأ وبين الجمال والقبح وبين الفصيح والعامى فلا تجد له انتسابًا إلى جانب من ذلك دون الآخر، هذا هو الغالب فى وصف الأسلوب الحاضر.

٦. يحدث عند مراقبة الأداء اللغوى أن تسمع أحيانًا عبارات مسكوكة، أى مركبة بطريقة تتحدى قواعد النحو أحيانًا ويغلب عليها طابع النحت أحيانًا أخرى فلا تستطيع أن تنسبها إلى قاعدة ما. مثل هذه الألفاظ يوجد فى العربية

الفصحى منذ العصور الأولى مثل البسملة والتعوذ والتهليل وقصار الأمثال والأقوال نحو سبحان الله وما شاء الله فى العامية المعاصرة "كله على الله" ويستاهل وعقبى لك، والملاحظ أن عدد المسكوكات فى العربية المعاصرة أكبر من عددها فى التراث.

٧. من شروط الاتصال اللغوى التى سجلها العلم الحديث رعاية نوعين من أنواع السياق: سياق الموقف وسياق النص. ولقد راعاهما العلماء فى الماضى دون أن يضبطوهما بالدراسة التى تكشف عن أصول استعمالها ويمكن معرفة ذلك من عنايتهم بأسباب نزول القرآن إذ بدا لهم أن سبب النزول هو سياق الموقف أما سياق النص فقد كان موضع عناية الشعراء والأدباء والفصحاء. وأما فى وقتنا الحاضر فإن رعاية ذلك على الرغم من شهرة السياقين بالدرس لا تدل على أن الخطاب الحاضر يصل إلى مستوى عناية التراثيين بهما.

***

بهذا نصل إلى الكلام عن اللغة الأجنبية. والمفروض أن اللغة الأجنبية ينظر إليها من خلال الازدواج اللغوى لدى الفرد، أى أن اللغة الأجنبية هنا واحدة من اثنتين وأن الثانية هى اللغة الأصلية. ومن ثم يصبح من المطلوب أن يكون صاحب اللغتين مزودًا بالعناية بهما وأن ما ذكر من المطالب فى حال الأولى ينبغى أن يتحقق للثانية، وبخاصة فيما يقع من الترجمة من إحداهما للأخرى. فلنعد إذن إلى ما سبق أن رصدناه من أمور مهمة لفهم اللغة لنرى ضرورة أن يتحقق ذلك للغة الأجنبية.

١. من الواضح أن المترجم إذا لم يكن له قدرة على تمييز أصوات اللغة الأجنبية بعضها من بعض فإنه لا بد من أن يقع فى ورطة الخلط بين الصوتين وبين المعنى المراد. وهكذا يخلط بين pin وbin كما أن من لا يدرك الفرق بين f وv سيخلط بين fan وvan ومن الواضح أيضًا أن المعانى الصرفية لا تقل خطرًا عن المعانى الصوتية. فالذى يقوم بالترجمة إلى العربية وهو لا يفرق بين معانى صيغة "فعيل" لا يدرك الفرق بين معنى الفاعلية فى "قدير" المفعولية فى"قتيل"

بمعنى مقتول. ولا بين هذين وبين معنى المصدرية فى "زئير" و"خرير". فإن كان يترجم إلى الإنجليزية فقد يخفى عليه الفرق بين er فى singer ومثلها فى finger. أضف إلى ذلك أن المعانى النحوية من الأهمية بما يزيد عما نسبناه إلى الأصوات والصرف، فإذا لم يعرف المتكلم الفرق بين الاستفهام المحض أو الاستفهام الإنكارى مثلًا عندما يصلح تركيب الجملة لكل منهما كما فى قولنا: بارك الله فيك، وأين كنت، أو معنى الدعاء كما فى قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (التوبة: ١١٠) أو بين ذلك وبين الاستفهام التقريرى نحو: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف: ١٧٢) فإن الإنسان سيقع فريسة للغموض عندما يحاول نقل أحد هذه المعانى من إحدى اللغتين إلى الأخرى.

٢. والأمر الثانى الذى ينبغى أن يتحقق لصاحب اللغتين هو معرفة شيئين لا غنى عنهما هما المعانى المعجمية للكلمات المفردة فى كل من اللغتين والمقابلة بين الكلمة من هذه اللغة والكلمة المقابلة لها من تلك. وينبغى لصاحب اللغتين أن يضع فى الاعتبار أن هذه المقابلة ليست أمرًا مطردًا ولا مضبوطًا، إذ يحدث فى كثير من الأحيان أن تشتمل إحدى اللغتين على كلمة لا مقابل لها فى الأخرى. وحين نقول ينبغى لصاحب اللغتين أن يعرف المقابلات لا نعنى أن هذه المعرفة كافية بمفردها للوصول إلى ترجمة جيدة لنص ما، فغاية ما تكون الفائدة التى يمكن الوصول إليها بواسطتها هو الترجمة الحرفية التى نرفضها فى العادة لعدم كفايتها ولما فيها من عيوب تتراوح بين مخالفة القواعد النحوية ومخالفة الأساليب الاستعمالية. ومن الذى يقبل ترجمة حرفية لمركب إضافى مثل chairman أو home fleet بعبارة مثل رجل الكرسى أو أسطول المقر؟ أو مركب إسنادى مثل to pay A visit بعبارة "أن تدفع زيارة"؟

٣. ولكن يحدث أحيانًا أن تشتمل إحدى اللغتين على كلمة لا مقابل لها فى اللغة الأخرى، فعندئذ تلجأ اللغة الأخرى عند الترجمة إلى التعبير عن معنى هذه الكلمة بعبارة مركبة إما تركيبًا مزجيًّا وإما وصفيًّا أو إضافيًّا أو إسناديًّا، ومن

الكلمات العربية التى لا مقابل لها من المفردات الإنجليزية النؤى والأثافى والظعينة والبحيرة والسائبة والوصيلة والعقيرة ...إلخ. فلو أن مترجمًا من العربية إلى الإنجليزية صادف إحدى هذه الكلمات لكان عليه أن يحتال للتعبير عنها بعبارات مركبة تجعل الشرح بديلًا من المقابلة الممتنعة.

٤. عندما يكون صاحب اللغتين موقف الترجمة من إحداهما للأخرى يجد المرء نفسه وجهًا لوجه مع المصطلحات وما يلزم من ترجمتها، وعلى المرء فى هذه الحالة أن يكون ملما بالمعنى الاصطلاحى فى اللغتين كلتيهما؛ لأن العرف هنا عرف خاص مشترك بين اللغتين أو هكذا ينبغى أن يكون. فالترجمة فى مجال الاصطلاح لا تقابل لفظًا بلفظ كما يحدث فى ترجمة المعنى المعجمى الذى من شأنه أن يقبل التوسع والمجاز والترادف ولازم المعنى والظلال العاطفية بل يحقق عرفًا مشتركًا بين اللغتين ويبدو دليل الشركة بين العرف فى اللغتين فى جواز مبدأ التعريب.

٥. وينبغى لصاحب اللغتين عندما يبدأ المزاوجة بالترجمة بين إحداهما والأخرى أن يسأل نفسه عن طبيعة ما ينبغى أن يكون طابع أسلوب النص المترجم. ذلك بأن نوع الأسلوب يحمل دلالة معينة على نوع النص. وقديمًا حذرنا الجاحظ من أن "إعراب الفكاهات السوقية والنكت العامية عند روايتها يذهب بطلاقتها ويجعلها باردة لا تضحك، وأنك إذا ذهبت بكلام الخاصة عند روايته مذهبك بكلام العامة فأغفلت ما فيه من إعراب وأسلوب فإن ذلك يستر ما فيه من معنى شريف ويسقط به عن المنزلة التى كانت له" ومن المعروف أنه إذا كان الصدق الأدبى مطلوبًا لأسلوب الأديب فإن الدقة العلمية لا غنى عنها لأسلوب العالم.

٦. وينبغى لصاحب اللغتين عند الترجمة من إحداهما للأخرى أن يكون على معرفة بأن الألفاظ المسكوكة تجرى مجرى الأمثال Idioms فى تناولها فلا يتوقف معناها على معانى مفرداتها الداخلة فى تركيبها، وأن يكون على وعى بذلك بالنسبة إلى

كلتا اللغتين. فلا يجوز فى ترجمة "أهلًا وسهلًا" مثلا أن نتجاهل الرتبة بين اللفظين وأن نجعلها سهلًا وأهلًا. ولا أن ننسب معنى مختلفًا لإحدى العبارتين عن الأخرى فى "السلام عليكم" و"عليكم السلام" فاختلاف الرتبة هنا لا يغير المعنى، أو أن يجعل "خَلّ عنى" فى صورة "حِلّ عنى".

٧. من مشكلات الترجمة اختلاف العادات والتقاليد من مجتمع إلى مجتمع آخر، أى من لغة إلى لغة أخرى. فكثيرًا ما يكون اختلاف اللغتين مصحوبًا باختلاف رؤية العالم وما يكون معه من اختلاف العرف والعادات والتقاليد. ومما يترتب على هذا الاختلاف أنه يجب على من يباشر الترجمة من لغة لأخرى ألا يعتمد على نقل معنى المقال فحسب وإنما يزاوج بين المقال والمقام عند الترجمة. ولقد سبق أن أشرنا إلى عدم جدوى الاكتفاء بدلالة المقال دون المقام فى ترجمة عبارة مثل: "لماذا تأخرت"؟ لئلا يتحول المعنى إلى مجرد الاستفهام. وهنا نعود مرة أخرى إلى الكلام عن ترجمة الأعمال الأدبية، فهذه الأعمال ليست مجرد نصوص جميلة يمكن عزلها عن محيطها كعزل النغمة الموسيقية عن ظروف إبداعها دون أن يؤثر ذلك على إمكان تأثيرها. إن الأدب هو صدى الحياة الاجتماعية فى مجتمع ما. وهو مثل الصدى يتوقف وجوده على مثير ويختلف فى طبيعته عن ذلك المثير.

قد يتساءل المرء بعد ذلك: كيف تتفاضل الترجمات، وما الذى يجعل ترجمة ما تستحق الوصف بالجودة أو الرداءة؟ والجواب أن العناصر التى تستحق أن تقوم عليها المفاضلة يمكن تلخيصها فى النقط التالية:

- مدى قرب الترجمة أو بعدها عن حرفية النص، ولعل هذا أن يكون أقل الأمور أهمية كما نرى.
- ما مدى تمثيل الترجمة للمعنى الكلى الذى عبر عنه النص المترجم، والمعول هنا على المعنى الكلى.

- مدى وفاء الترجمة بظلال المعانى إذا كانت الترجمة لنص أدبى. والمقصود مدى نقل الترجمة لمزاج النص ومذاقه الذى كان له فى لغته الأصلية أو نطاق ثقافتها القومية.
- مدى احتفاظ النص (إن كان شعريًّا) بتأثيره الموسيقى الذى كان له فى الأصل.

ومعنى ذلك أن تفضيل ترجمة على أخرى ليس أمرًا بسيطًا؛ لأن الأسس التى تقوم عليها المفاضلة متعددة ولكل أساس منها اتجاه معيارى يصعب اعتباره متسمًا بسمة الضبط القياسى التام، ومن ثم ينبغى أن يكون استعماله مرتبطًا بهذا الفهم مبنيًّا على الاتساع (أى على الترخص) فى الحكم.

* * *

حول مجالى الصرف والعروض

إن من يتأمل تنوع صور المفردات المعجمية كما نبدو فى سياق الاستعمال متأثرة بمطالب مواقعها فى النص المتصل أو فى أماكنها من جدول الإسناد ثم يتصورها فى حال إفراد خارج هاتين البيئتين ليجد من صور هذه الألفاظ ما يستعصى على التقعيد، وكيف يمكن عند علاج المفردات أن نجمع مثلًا فى قاعدة واحدة بين "قدر" بتشديد الدال وكسرها و"قم" و"ق" أو "أن نضعها جميعا تحت عنوان واحد هو: (فعل أمر)؟ كان على النظرية الصرفية العربية أن تبحث عن حل يمكنها من الجمع بين المبانى المختلفة للباب الواحد فى تصور شامل تمهيدًا للتقعيد المطرد. وهكذا فكر الصرفيون فى استنباط ما سموه: "أصل الوضع"، وجعلوه فى الحالة التى بين أيدينا" قدر "و "قوم" و"وقى" على الترتيب بالبناء على الفتح، وجعلوا هذه الأصول الثلاثة وهى مفرقة أصلًا للاشتقاق وقالوا عنها: إنها فاء الكلمة وعينها ولامها، فأصل الاشتقاق هو "ف ع ل".

هذا النوع من الاستنباط يسمى "التجريد"، يقول نقاد الشعر فى مثل قول الشاعر:

أخى جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا

"جرد الشاعر من نفسه شخصًا وخاطبه"، أما هنا فجرد الباحث من ذهنه أصلًا واستخدمه، ومعنى هذا أن المجرد غير الواقع، وإن كان المجرد فى البحث العلمى

عونًا على فهم الواقع فى الكثير جدًّا من الحالات، وإذا نظرنا إلى نظام اللغة أو إلى طرد القاعدة أو نحو ذلك من المفاهيم العامة فى تناول الدرس اللغوى أدركنا أن هذه المفاهيم لا يمكن صدقها وطردها إلا من خلال التجريد، إذا عرفنا هذا كان من اليسير أن نفهم أن وراء التجريد فى علمى الصرف والعروض ما يسمى: "النظام الصوتى" العربى، وإن اختلف مأخذ كل من العلمين عن مأخذ الآخر من هذا النظام، ذلك أن الصرف كما أشرنا منذ قليل جعل مادته الأساسية الأدوات الصحيحة كما يفهم من عبارة: فاء الكلمة وعينها ولامها، وأن العروض جعل مادته الأساسية أصوات العلة، كما يتضح من تأمل الزحافات والعلل. هكذا اختلفت زاوية المدخل لكل من العلمين. وهذا لا ينفى انتفاع الصرف بخصوص الحركة فى التفريق بين الصيغ الصرفية وأن العروض وإن كان يعنى بعموم الحركة (فلا يهمه منها أنها فتحة أو كسرة أو ضمة) يضطر مع عدم اعتداده بالفاء والعين واللام إلى اتخاذها ركائز لنطق الحركات والمدود؛ لأن الكلمات (والمقاطع) العربية لا تبدأ بالساكن فى حال الاستعمال، فيكون التوصل للنطق بها بواسطة الهمز فى ابتداء الكلام وبواسطة الوصل فى السياق المتصل.

كان على كل من الصرف والعروض أن يربط بين الأصل المجرد وفروعه المعدول بها عن هذا الأصل بواسطة طرق معينة لهذا العدول. فأما علماء الصرف فقد رأوا أن الفرق بين الأصل المجرد وفروعه قد يعود إلى الإعلال أو الإبدال أو القلب أو النقل أو الحذف أو نحو ذلك، متخذين الشركة فى الأصول الثلاثة دليلًا على هذه العلاقة بين الأصل والفرع، فلو أخذنا مثلًا الفعل "قال" المعدول به عن أصله "ق و ل" لوجدنا أن الدليل على علاقة الفرع بالأصل ما نجده فى المنثور الاشتقاقى لهذا الأصل من كلمات مفردة تظهر فيها الواو التى هى عين الكلمة، مثل: قول وأقوال وأنك إذا أسندت "قال" إلى تاء الفاعل فإن فاء الكلمة (وهى القاف) ستكون مضمومة (فى قلت مثلًا) لتكون الضمة دليلًا على الواو المحذوفة، وفى العروض يظهر أصل الوضع أيضًا مستصحبًا فى حال تجريده على نحو ما

تشتمل عليه إحدى الدوائر الخمس ولكنه مع ذلك يظل عرضة للعدول والرد بواسطة الزحافات والعلل.

هناك أيضًا وجه للشبه بين منهجى الصرف والعروض، ذلك أن كل أصل من أصول الاشتقاق فى كلمة ما يمكن أن يحتل موقعًا مختلفًا فى كلمة أخرى، يقول ابن جنى فى كتاب (الخصائص) (ج١/ ٥): ولنقدم أمام القول على فرق بينهما (أى الكلام والقول) طرفًا من ذكر أحوال تصاريفهما، واشتقاقهما، مع تقلب حروفهما؛ فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه". ثم يقول: "فأقول: إن معنى "ق و ل" أين وجدت، وكيف وقعت، من تقدم بعض حروفها على بعض، وتأخره عنه، إنما هو للتخفيف والحركة. وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها، لم يهمل شيء منها. وهى: "ق و ل" ، "ق ل و"، "و ق ل" ، "و ل ق"، "ل ق و"، "ل و ق". إذا وضعنا بإزاء كل أصل من أصول الأمثلة السابقة فى كلام ابن جنى واحدة من تفعيلات العروض فى صورتها المستصحبة (أى قبل أن يدخلها زحاف أو علة) وجدنا هذه التفعيلة واردة فى أكثر من بحر واحد فى الغالب، وذلك كما يلى:

- فعولن ترد فى الطويل والمتقارب.
- مفاعيلن ترد فى الطويل والهزج.
- فاعلاتن فى المديد والخفيف والرمل.
- فاعلن فى المديد والبسيط والسريع.
- مستفعلن فى البسيط والرجز والسريع والمنسرح والخفيف.
- مفاعلتن فى الوافر.
- متفاعلن فى الكامل.
- مفعولات (بضم التاء بلا تنوين) ترد فى المنسرح.

ففى الصرف تعددت مواقع أصول الاشتقاق فاختلف اللفظ وتعدد المعنى، وفى العروض تعددت مواقع أصول الإيقاع فاختلف الوزن وتعددت البحور.

ومع ذلك نجد كلًّا من الصرف والعروض يسعى إلى غاية مختلفة، فالغاية التى يسعى إليها الصرف هى ما يعرف باسم "طلب الخفة"، فقد كشف الصرفيون مثلًا عن أنَّ اللغة العربية تكره توالى المثلين والمتقاربين فتوحد بينهما فى النطق كأنهما صوت واحد، فالعربى يكره أن يقول: (شِدد) فيحول ذلك "شدّ" مشددة الدال. والنطق العربى للفظ "الطالب" يجمع بين أداة التعريف وبين الطاء فى لفظ طالب فى صورة طاء مشددة ليصل بذلك إلى تخفيف النطق بالكلمة، وهكذا. أما فى العروض فلا مشقة فى نطق الحركات والمدود، ومن ثم لا يتعلق الاهتمام بطلب الخفة فى العرف العروضى، وإنما يتعلق أساسًا بالإيقاع، وكذلك ترى المبنى الصرفى يعترف بما يتجاوز أصول الاشتقاق من الزوائد واللواصق لما ينسب إليها من المعانى التصريفية العامة التى حقها أن تؤدى بالحرف (كما تقول كتب النحو)، أما التفعيلة العروضية فلا فرق فى عرفها بين الأصلى والزوائد من الحروف الصحيحة ولا بين الزيادة فيها والإلصاق مثل ما يعترف به الصرف من علامات التثنية والجمع ونحوها فتقابله التفعيلة العروضية بما يوازن ذلك من جهة الإيقاع دون تفريق بين الزيادة والنقص إلا من جهة الإيقاع، فإذا نظرنا إلى عبارة مثل "قاتلوهم" وجدنا الصرف يعترف بالفعل ومعه واو الجماعة وضمير الغائبين، أما العروض فيضع كل ذلك فى تفعيلة واحدة هى "فاعلاتن" بما فيها من زيادات تدل صرفيًّا على الجمع والتأنيث ولا دلالة لها فى العروض إلا على مطلق الإيقاع.

أضف إلى ذلك ما بين مفهومى "التفعيلة" فى الصرف والعروض، فتفعيلات العروض سبع منها اثنتان خماسيتان والخمس الباقيات سباعيات على النحو التالى:

* الخماسيتان: فاعلن
فعولن
* السباعيات: مستفعلن (وتقع أيضًا على مس تف علن)

فاعلاتن (وتقع أيضًا على فاع لا تن)

متفاعلن

مفاعيلن

مفاعلتن

مفعولات (ضم التاء دون تنوين).

أما التفعيلات الصرفية فهى أكثر عددًا، وتختلف عن تفعيلات العروض من النواحى التالية:

- يرتكز الانتباه فى التفعيلات الصرفية على الأصوات الصحيحة من حيث هى أصول الاشتقاق أو من حيث دلالتها على المعانى الوظيفية للزوائد واللواصق. أما فى التفعيلات العروضية فبؤرة الانتباه هى الحركات والمدود، وأما الصحاح فى العروض فإن وقعت فى أول المقطع فمثلها كمثل همزة الوصل، وإن وقعت فى آخر المقطع (كالسين فى مستفعلن مثلا) فلها قيمة السكون المطلق.
- التفعيلات الصرفية صيغ للمفردات والتفعيلات العروضية وحدات موازين للبحور الشعرية. فالمفرد منها لا خطر له إلا فى مقام الدرس.
- التفعيلات الصرفية ذات ارتباط بأقسام الكلم فيمكن من خلالها أن نحدد شكل الاسم وشكل الفعل إلخ، والأمر مختلف بالنسبة للتفعيلات العروضية.
- تدل التفعيلة الصرفية على التجرد والزيادة، وللصيغة فى كل حالة من هاتين دلالة على معنى وظيفى واحد أو أكثر، وليس هذا شأن التفعيلات العروضية. وتفصيل ذلك قد يطول فى مقام الإيجاز هذا.

ولكل من الصرف والعروض مصطلحاته التى يسمى بها ما يحدث لتفعيلاته من

تغيرات، فمن مصطلحات الصرف الإعلال والإبدال، ومن مصطلحات العروض الزحاف والعلة. فالإعلال تحويل حرف اللين (الواو أو الياء) إلى حرف علة كما فى قال وباع. هذا الفهم للمصطلح متفق عليه ولا مشاحة فيه. أما المصطلح العروضى (العلة) فقد درج البعض على تفسيره بالمرض، وكأن الشعر يصاب أحيانًا بالمرض. وأرى ذلك الفهم نوعًا من التجاوز يتنافى مع أبسط صور التفكير. ذلك أن للعلة فهمًا آخر منطقيًّا هو المناسب للسياق الحاضر. فالعلة أخت السبب لا تختلف عنه إلا فى أنها تدور مع المعلول وجودًا وعدمًا، والدليل على صحة هذا الفهم أن العلة بمعناها العروضى إذا وقعت فى بيت من القصيدة لزمت فيها جميعًا بخلاف الزحاف. وهذا يشبه كونها تدور مع المعلول وجودًا وعدمًا.

* * *

دابة الأرض

عندما يشترك لفظان فى أصل الاشتقاق وفى الصيغة الصرفية يصبح الوصول إلى معنى كل منهما بحاجة إلى تأمل سياق النص وسياق الموقف. ومن شأن هذا التأمل أن يعين على الوصول إلى المعنى المراد مع اختلافه فى إحدى الحالتين عنه فى الأخرى كما فى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(الأنعام: ١]،

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾(الأعراف: ١٥٩).

فقوله تعالى: "يعدلون" فى الحالة الأولى معناه يتخذون له عديلًا ومعناه فى الحالة الثانية يصلون إلى مستوى العدل".

ومثل ذلك ما نجده فى قوله تعالى:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ (التوبة: ٩٥).

والمعنى: (يحلفون لكم لتسامحوهم فأهملوهم ولا تقبلوا أعذارهم).

ومن هذا القبيل أيضًا قوله تعالى فى معنى الوحى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(الشورى: ٥١).

هنا يدل سياق النص على تنوع المعنى المقصود بكل موقف على النحو التالى:

١. فيدل لفظ "الوحي" فى هذه الآية على مجرد الإلهام كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾(النحل: ٦٨).

وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ﴾ (القصص: ٧).

٢. وقد يدل السياق على ما حدث فى موقف موسى عند ما قال لربه ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(الأعراف: ١٤٣). فقد جاء الجواب على هذا الطلب فى صورة ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾(الأعراف: ١٤٣).. فكان الموقف كله ﴿ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾.

٣. وقد يكون الوحى بواسطة رسول من الله سبحانه إلى أحد أنبيائه كما حدث فى إرسال جبريل بنصوص قرآنية إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. فهذا نوع من الوحى الكلامى، كما يفهم أيضًا مما حدث لموسى مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾(مريم: ٥٢).

ومن الأصول المشتركة (ك ل م) ومن ألفاظه التى يصاغ منه الكلام والكلم (بسكون اللام) بمعنى الجرح. ومما ورد فى كتاب الله الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾(النمل: ٨٢). ولم يصل فكر المفسرين إلى فهم مقنع للمقصود بالدابة فقالوا إنها فصيل ناقة صالح، وقالوا: أيضًا إنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة كما قالوا: إنها إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر (الطبرى، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣-١٤، ص ٢٣٤) وهذا فى نظر القائل معنى "تكلمهم".ولكن الواضح أن هذا المعنى يأتى من تأمل ما فى النص القرآن من إشارات تدل على المقصود بالدابة وما تفعله بضحاياها. فما ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى فى فرعون وقومه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

﴿ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ (الأعراف: ١٣٣) ولعل هذا هو المقصود بدابة الأرض وأنها إصابتهم بالكلوم والآلام. فالطوفان يغرق المحاصيل والجراد يأكلها والحشرات المذكورة تنشر الجراثيم وعدوى الأمراض. وينبغى كذلك أن نذكر قوله تعالى: ﴿ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾(سبأ: ١٤) ومن الواضح هنا أن دابة الأرض من نوع النمل الأبيض والمقصود بالآيات المذكورة أن قومًا آخرين مهددون بمثل ذلك إذا وقع القول عليهم. ولقد كان المقابل للكلوم بمعنى الجروح لفظ "التكليم" بمعنى المخاطبة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾(النساء: ١٦٤). ولم يقل "كلامًا" لأن الكلام اسم مصدر يدل على النوع، والتكليم مصدر يدل على الحدث الذى كان بين موسى وربه سبحانه وتعالى.

* * *

تعليم اللغة العربية

فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة

المقصود بالدراسات اللغوية الحديثة أعم من أن يكون مقصورًا على الدراسة النظرية للتركيب اللغوى. فإذا كان المعنى هو ضالة الدراسات اللغوية فإن المعنى ذو علاقات بأمور متنوعة بعضها لغوى وبعضها غير لغوى، ذلك أن ثمة علاقة تربط المعنى بالإدراك ومظاهره كالتعرف والتذكر والفهم وهذه العلاقات موضع اهتمام فرع من علم اللغة يسمى "علم اللغة النفسى" وهناك أيضًا علاقة بين المعنى ومقام الإستعمال اللغوى (أى الظروف والأوضاع السائدة بجميع جوانبها) أثناء الاتصال. وهذا الجانب يتناوله فرع آخر من علم اللغة الحديث يسمى "علم اللغة الاجتماعى" وهو غير علم الاجتماع اللغوى الذى يعنى بتقسيم اللهجات جغرافيًا واجتماعيًا. ونصل أخيرًا إلى العلاقة بين المعنى واللفظ وهى العلاقة التى يدرسها علم اللغة النظرى الذى يرد على الفهم عندما نسمع من يقول: "الدراسات اللغوية الحديثة". ولقد نشأ فى العصر الحديث عدد من الفروع البحثية للدراسات اللغوية الحديثة التى اشتملت على عدد من الدراسات التالية:

١- التخطيط اللغوى	٢- الترجمة الآلية	٣- هندسة الاتصال
٤- علاج العيوب النطقية	٥- تعليم اللغة	٦- محاربة الأمية
٧- تصميم النظم الكتابية	٨- جغرافيات اللهجات	٩- المعاجم

١٠ - التحليل النفسى ١١ - لغة الدعاية ١٢ - الإعلان التجارى

١٣ - ترجمة الحاسب الألكترونى.

ولقد حرص تعليم اللغة من بين هذه المجموعة على الانتفاع بنتائج كافة الدراسات اللغوية الحديثة كما سيتضح فى الفقرات التالية.

وتعليم اللغة الفصحى (بل كل لغة على الإطلاق) يقوم على ركائز ثلاث: المتعلم والمعلم والجهد التعليمى. فأما المتعلم فإن التفكير فى أمره ينبغى أن يشتمل على عدة أمور ترتبط فى جملتها بالدراسات اللغوية النفسية، أو ما يسمى "بعلم النفس اللغوى". إذ ينبغى عند الإعداد للتعليم أن نضع فى اعتبارنا جملة أمور ترتبط فى جملتها بالتكوين النفسى للمتعلم كالحافز على التعليم وهو يتمثل فى درجة الإقبال على التعلم وعوامل هذا الإقبال وكالتفكير فيما عسى أن يكون من علاقة سابقة بين المتعلم والمادة العلمية التى يسعى لتعلمها، كما يلزم أن نفكر فى قدر ما يمكن أن يلقاه من العناية بهذا التعليم خارج المدرسة كالدروس الخصوصية وما يطلع عليه من برامج وسائل الإعلام ومصاحبة الزملاء، ومما يتصل بذلك أيضًا أن نفكر فى من يقوم بتعليمه ويؤتمن على تكوينه وشحذ قدرته على الخلق وإدراك العلاقات بين الأشياء، ثم أن نفكر فى الغاية التى نسعى من أجلها إلى أن نعلم هذا المتعلم: أنعلمه ليكون مواطنًا مثقفًا مشاركًا فى الحياة الاجتماعية أم نعلمه لغرض خاص يقتضى تأهيلًا معينًا كأن نعلمه كيف يكون فى آخر الأمر موظفًا للقيام بعمل ما.

وأما المعلم فإن عمله يتصل اتصالًا خاصًا بالدراسات التربوية البيداجوجية من جهة، وعلم الاجتماع اللغوى من جهة أخرى، إذ يختلف الأمر فى تكوينه وتأهيله بحسب اعتبارات اجتماعية كطبيعة اللغة التى يتصدى لتعليمها أهى اللغة الأولى، وهى لغة المنشأة والأسرة، أو كما يسمونها (اللغة الأم) أم هى لغة أخرى عامية أو أجنبية يجرى استعمالها فى ظروف خاصة. يرد بعد ذلك سؤال عما إذا كان لهذه اللغة الأخيرة علاقة باللغة الأم، فإذا كان لهذه اللغة علاقة من أى نوع باللغة الأولى

للمتعلم كان اتجاه التعليم مختلفًا عن الحالات غير ذات الصلة ويظهر ذلك بحسب وظائف الاستعمال. والأمر بالنسبة لمعلم اللغة العربية واضح تمام الوضوح.

أما الجهد التعليمى فهو ألصق الأبعاد الثلاثة بما نسميه "علم اللغة" سواء وجهنا النظر إلى جانبه النظرى أو التطبيقى، فأما الجانب النظرى من علم اللغة فمن شأنه أن يصف اللغة التى يراد تعليمها ويصل من هذا الطريق إلى ما يعرف باسم السليقة وهى القدرة على إدراك العلاقات السليمة بين عناصر اللغة واتخاذ هذه العلاقات وسيلة للاستعمال الصحيح، وهذه العلاقات تنسب إلى شخص تجريدى يمثل المجتمع فى عمومه، وهو العربى بالنسبة إلى اللغة العربية، وينبغى عند هذا الحد أن نفرق بين الوصف النظرى للغة من وجهة نظر الباحث والوصف التطبيقى الذى يقوم به المعلم لخدمة التلاميذ، ومن تأمل عنوان موضوعنا الحاضر فسوف يفهم أن اهتمامنا الآن منصرف إلى التطبيق لا إلى الكشف عن الجانب النظرى، وإلى التعليم لا إلى البحث، وإلى نقل القواعد المعروفة لا إلى محاولة استنباطها، وإلى المعيارية لا إلى الوصفية، وإلى الكلام عما يجب وما يجوز لا إلى القول بنتائج الاستقراء الناقص. وللمعلم أن يلجأ إلى العلل سواء ما كان منها صوريًا أو غائيًا ما دام التعليل يؤدى إلى الفهم، بعكس الباحث الذى يتجنب محاولة الكشف عن الغايات والأسباب. وأهم ما يسعى المعلم إلى الانتفاع به هو مبدأ الطرد؛ لأن اطراد الأحكام عون مهم على تركيز فهم القواعد، سواء كان موضوع الحكم بابًا أو مسألة.

ويتحقق الطرد بالاعتماد على وجود "الأصول الثابتة" التى يرد إليها ما يعدل به عنها ويكون الرد بواسطة التأويل. فإذا لم تطابق الكلمة القاعدة وردت فكرة الوجوب والجواز، وإذا أريد رد الكلمة إلى أصلها وردت فكرة التعليل الغائى الداعى إلى معرفة السبب. وإذا لم تظهر الحركة ردت إلى أصلها. (وهو الظهور) بواسطة تقديرها، وإذا لم يظهر جزء من الجملة ردت الجملة إلى أصلها، وإذا اعتلت كلمة ردت إلى أصل غير معتل، وهلم جرا كل ذلك يأتى حرصًا على فكرة تعليمية

مهمة جدًّا هى فكرة "الطرد". وهى أكبر عون لجهد المعلم ولاستيعاب التلميذ على حد سواء.

ولقد تمسك التطبيقيون من اللغويين بهذه الأصول ولكنهم اختلفوا فى طريقة التعليل النحوى إلى عدة اتجاهات منها الاتجاه السياقى الذى ينظر إلى الجملة باعتبارها سلسلة من المواقع النحوية ذوات العلاقات المتبادلة على طريقة الإعراب فى النحو العربى فتبدو الجملة بحسب هذا التحليل كالعقد، وتبدو الأبواب التى تدل عليها المفردات كالحبّات التى ينتظمها خيط واحد، أو كأنها نسق من الفجوات التى يختص كل منها بكلمة ذات شروط خاصة. ففى الجملة الفعلية مثلًا ينبغى أن تملأ الفجوة الأولى بالفعل والثانية بالفاعل أو نائبه، وفى الجملة الاسمية تملأ الفجوة الأولى بالاسم ثم تتعدد احتمالات ما تملأ به الفجوة الثانية.

بعد هذا التفريق بين الجهد النظرى والجهد التطبيقى من تناول تعليم اللغة أود أن أتناول الخطوة الأولى من خطوات التطبيق وهى إعداد البرامج وهى تشبه طرق التحليل التى سبق ذكرها فهى قد تختار التتابع النسقى فتعطى التلميذ قسطًا من المادة فى الشهر الأول من العام وقسطًا غيره فى الشهر الثانى ثم قسطًا آخر فى الثالث وهكذا، وقد تختار خطوات دائرية حلزونية غير متتابعة بالمعنى السابق فتذكر التلميذ وهى فى مرحلة (ب) بما مر به فى مرحلة (أ) وتبنى مرحلة (ج) على فاعلية استيعاب (أ، ب). ومن الواضح أن النوع الثانى من البرامج أفضل؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين من جهة، ولأن اللغة من جهة أخرى إذا كان تعليمها يتم من خلال استعمالها فإن نصوص اللغة لا تقتصر إذ تقدم للتلاميذ على موضوع الدرس فقط، وإنما تعرض من حقائق النحو ما ينبغى أن يعود بذاكرة التلميذ إلى ما سبق.

وينبغى لوضع البرنامج أن يتم فى سياقه الصحيح. فليس يكفى أن يجلس واضعو البرنامج معًا ثم يتفقوا على أن يأتى كل واحد منهم بما يعن له من أفكار واجتهادات، ثم يتضح فى النهاية أن هذه الأفكار لم تكن مبنية على منهج بعينه. ذلك أن اختيار عناصر البرامج وترتيبها إنما يأتى نتيجة لمقدمات موضوعية، وبناء على منهج موضوعى كذلك. وتبدو هذه المقدمات وهذا المنهج على النحو التالى:

١. لقد سبق أنه لا بد من نظرية لغوية يبدأ منها سياق الاختيار. وهذه النظرية بالنسبة للنحو العربى هى ما يعرف باسم "أصول النحو" كما يبدو عند ابن جنى وعند السيوطى مثلًا. وهذه النظرية تصادف فى الفكر العربى المعاصر مناقشة من نظريات أخرى أنتجها الفكر الغربى وطبقها على اللغات الغربية. وسنلقى عليها نظرة بعد قليل لنرى مقدار صلاح تطبيقها على اللغة العربية.

٢. هذه النظرية توصل إليها منشئوها بواسطة بيانات مستخرجة من استعمال اللغة ذاته. ولقد كانت بيانات النحو العربى كما ذكرنا نتيجة الرحلة أو الوفادة وكان مصدرها فى الحالتين كلام عدد من القبائل التى يسمونها قبائل وسط الجزيرة (وهى قيس وتميم وأسد وبعض كنانة وبعض الطائيين). وهذه القبائل اتفقت جميعًا فى مستوى الفصاحة واختلفت بينها اللهجات. وفى هذا الموضوع جرى كثير من الدراسات النظرية لا داعى للخوض فيه لأننا بصدد منهج تطبيقى أولًا وأخيرًا.

٣. هناك منهج تطبيقى خاص بإنشاء البرامج ينبنى على استعمال المقارنة والانتقاء لنرى بالنسبة للسنة الأولى مثلًا أى الأبواب نختار، وما ترتيبه فى البرنامج، وما الحقائق التى نعرضها على التلاميذ من باب نحوى بعينه وما الذى نؤخره إلى مستوى أعلى؛ لأنه فوق قدرتهم على الاستيعاب، وهلم جرا.

٤. فإذا طبقت النظرية على البينات المأخوذة من لغة بعينها نشأ عن ذلك وصف السليقة التى يكون استعمال اللغة على شروطها، ووصف هذه السليقة بالنسبة للغة العربية هو ما يعرف باستيعاب النحو العربى.

٥. فإذا وصلنا إلى هذه العناصر كان علينا قبل أن نصرفها فى صورة برنامج أن نكون على وعى من أمرين: أولهما أسلوب تركيب البرنامج، كأن يكون مفصلًا أو مجملًا بحيث يترك الحرية فى تكييف التفاصيل للمنفذين، والثانى طريقة العرض التى تتسم بها هذه العناصر، هل يكون عرض المحتويات تتابعيًّا أو حلزونيًّا دائريًّا.

٦. فإذا تم لنا ذلك وصلنا إلى تركيب برنامج ذى أسلوب محدد وطريقة عرض معينة. وتكون قد وصلنا من خلال كل ذلك إلى ما يعرف باسم: "أبواب المقرر".

نصل بعد ذلك إلى طريقة عرض المادة على التلاميذ: أتكون قياسية أم استقرائية، ووصفية أم معيارية. وأول ما أحب أن أشير إليه هنا أن النحو ليس غاية فى ذاته، وأن مما يثير الاشمئزاز والسخط أن نرى أحد الناس قديرًا فى التعليل والإعراب فإذا قرأ أو كتب أو تكلم وجدنا كلامه مجافيًا للصواب النحوى أو منافيًا للمناسبة الدلالية. وكثير ما هم فى بلادنا العربية، ويذكر بعضهم فى عداد السادة العلماء. فالنحو ليس غاية كما زعمه هؤلاء وإنما هو وسيلة إلى استضمار السليقة بنوعيها: الصواب والمناسبة. ولا ينبغى للمعلم أن يقف من هذه الطريقة موقف الباحث من المنهج فالباحث يلتزم بخطوات منهج البحث التى أشرنا إليها من قبل ويفرض على نفسه دائمًا أن ينتقل من الخاص إلى العام بواسطة الاستقراء الناقص والفرض والتجربة أو المقارنة حتى يصل إلى القاعدة ويرى هذا الترتيب للخطوات عصمة لفكره أن يزيغ. والأمر مختلف بالنسبة للمعلم، إذ ليس من همه أن يصحح النتائج العلمية، فالنتائج حاضرة فى يده. وقد كفاه الباحث جهد السعى إليها. فليس من هم المعلم أن يصحح النتائج وإنما همه أن يعرض النتائج التى صححها غيره.

ولقد ثار نقاش عظيم بين أنصار الطريقة القياسية فى التعليم وأنصار الطريقة الاستقرائية. قال أصحاب الاستقراء إن عملية التعلم فى كل صورها سواء داخل المدرسة وخارجها لا تتم فى الحقيقة إلا بواسطة الاستقراء وإن الذهن الإنسانى بحكم تكوينه مهيأ للاتجاه من الخاص إلى العام وليس العكس. ويحاول المرء منذ طفولته المبكرة أن يصنف مدركاته أصنافا لكل منها عنوان عام، فيجرد من أفراد الرجال الذين رآهم فكرة "رجل" ومن النساء فكرة "امرأة" ومن الأشجار فكرة "شجرة" وهكذا تصبح حياته العقلية نسقًا من الملاحظة والتصنيف. ومما ينبغى لطريقة التعليم ألا تخالف طبائع الأشياء وأن تعتمد أساسًا على الاستقراء.

وقال أصحاب القياس: إننا لو فرضنا على الطفل أن يحصل على حقائق المادة التى يتعلمها. والمواد المقررة متعددة بنفس الطريقة التى يصل بها الباحث إلى هذه الحقائق لكلفناه شططا من أمره وحملنا عليه مشقة التعليم عبئًا لا قبل له به. فإذا كان الطفل يعتمد فى كسب مدركاته الأولى على الاستقراء (وهذا حقيقى) فإن الأمر يختلف بالنسبة للدراسة والتعلم. فمدركاته الأولى ضيقة المجال وهى من قبيل التعرف على البيئة الطبيعية والاجتماعية الضيقة. أما فى التعلم فالمجال غير المجال والبيئة الضيقة تصبح من الاتساع بحيث تشمل كل ما يمكن تعليمه سواء فى حقل المحسوسات أم فى حقل المجردات. ولو وضعنا الطفل حيال مواد الدراسة فى ظروف الاستقراء العادية ما وصل الطفل إلى أى نتيجة حتى لو أعانه المعلم، لأن الأمر هنا أشبه بطبيعة عمل الباحث منه بعمل المعلم. ومن هنا يرى هؤلاء أن الطريقة المناسبة للتعليم هى الطريقة القياسية التى تشرح القاعدة أولا ثم تأتى لها بالأمثلة لتوضحها ثم تدرب التلاميذ على مطابقتها فى الاستعمال وتطالبهم بالمطابقة (وذلك من قبيل المعيارية).

ويرد أنصار الاستقراء على ذلك بقولهم: إن هناك فارقا بين استقراء الباحث واستقراء المعلم، فاستقراء الباحث استقراء ناقص فى خضم الحياة الطبيعية ينتهى إلى وصف علمى، أما استقراء المعلم فاستقراء تام فى مجال نص محدود ينتهى إلى فرض معيار على الاستعمال، فلا ينبغى أن نخلط بين استقراء واستقراء، ولا بين ظروف وظروف. فأفضل الطرق فيما يرى هؤلاء أن يقدم المعلم النحو واللغة من خلال النص: يعرضه على التلاميذ ويشرحه ويضع أيديهم على البينات التى تعين على استخراج القاعدة، ثم يصل بهم فى النهاية إلى القاعدة دائما.

وعلى الرغم من أن عمل المعلم ليس مصارعة حرة مع عقل التلميذ لا تخضع للقواعد والطرق المنهجية ينبغى أن نشير إلى أن علماء اللغة التطبيقيين يعطون حرية ملحوظة للمعلم فى مجال المزج بين الطريقتين بحسب ظروفه وتقديره، بل يرون المزج بين الطريقتين فى التعليم أمرا لا مفر منه. فلو فرضنا أننا استخدمنا النص فى

استنباط القاعدة فوصلنا إلى هذه القاعدة بعد استقراء النص فلن يتوقف بنا الأمر عند هذا الحد؛ لأن التدريب وهو أهم وسيلة من وسائل استضمار السليقة لا يتم إلا بواسطة القياس على القاعدة سواء فى الأمثلة التى يقدمها المعلم للتحليل أو فى الجمل التى يكونها التلاميذ أثناء التدريب.

وللطريقة وجه آخر لا بد من مناقشته وهو: إلى أى حد يستطيع معلم اللغة العربية أن يفيد من معطيات علم اللغة الحديث وبخاصة فى مجال علم اللغة التطبيقى. وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نوضح الفارق التركيبى بين اللغات التى نشأت هذه الفلسفات فى أحضانها وبين لغتنا العربية. فلقد جعل علم اللغة المقارن لغات الإنسان أسرًا فقسمها بحسب القرابة ثم قسمها تقسيمًا آخر من حيث البنية. وهذا التقسيم من حيث البنية هو الذى يتصل بموضوعنا الحاضر. لقد جعلها طوائف ثلاثا: عازلة، ولاصقة، ومتصرفة. فاللغات العازلة كالصينية مثلًا كلماتها وحدات غير قابلة للتحليل وإنما هى عناصر أولية يوضع أحدها إلى جانب الآخر دون وصل أو إدغام. واللغات اللاصقة كلغات الهنود الحمر مثلًا تختلف تراكيبها بحسب التصاق عناصرها الصرفية بعضها ببعض كالذى يحدث فى اللغة العربية فى مجال الضمائر المتصلة ونون التوكيد وياء النسب. واللغات المتصرفة تختلف تراكيبها من حيث الاشتقاق والتصريف، فتجعل الصيغ المختلفة فروعًا من أصل اشتقاقى واحد ويسرى على تغيير الصيغ قانون صرفى معين وأوضح الأمثلة على ذلك لغتنا العربية الفصحى. ولقد مثلنا لكل قسم بأوضح الأمثلة بالنسبة له، ولكن أية لغة مهما كانت لا يمكن أن توصف بأنها عازلة فقط أو لاصقة فحسب أو متصرفة لاغير. وإنما تختلف درجات اللغات من الأخذ بنصيب من هذا الطابع أو ذاك.

ولقد نشأت الدراسات التطبيقية الحديثة باللغة الإنجليزية وفى ضوئها ومع التطبيق عليها. ومع أن اللغة المذكورة قد مرت بمراحل تطور فى طرق تركيبها حتى صارت أقرب اللغات المتصرفة إلى طبيعة العزل واللصق. ويتضح ذلك فى جملة

أمور، منها اتحاد صيغة الاسم والفعل فى قدر عظيم من كلماتها، واتحاد صيغة الماضى واسم المفعول باطراد، واتحاد صيغة المصدر واسم الفاعل فى كثير من الحالات، واطراد إلصاق العناصر الصرفية فى أول الكلمة وآخرها أو إقحامها على وسط الكلمة، وهلم جرا. ولقد ساعد على اتسامها بسمة اللصق خلوها من الإعراب خلوًّا تامًّا واختصار الفروق فى الصور الإسنادية للفعل إلى صورتين إحداهما للمفرد والثانية لما عداه مع خلو كل الإسنادات من علامة تميز الفعل غير الضمير الذى يصاحبه.

أما اللغة العربية فإنها غنية بالمعانى التصريفية المعبر عنها من خلال الصيغ، وليس من خلال اللصق وذلك لاختلاف صيغ الماضى، والمضارع، والأمر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وصيغ المبالغة، والتفضيل، والمرة، والهيأة، والزمان، والمكان، والآلة، والتعجب، مع تعدد الصيغ مع كل معنى من هذه المعانى، بل إن المادة الاشتقاقية الواحدة تحتمل إمكان التعبير عن معان تشترك فيها صيغ الأفعال والفاعلية والمفعولية كالتعدية والمطاوعة والصيرورة والتكلف والاتخاذ، وهلم جرا، مما لا يتحقق مثله فى اللغة الإنجليزية التى أنتجت هذه الدراسات، أضف إلى ذلك أن للغة العربية نظامًا غنيًّا من المطابقات فى التكلم والخطاب والغيبة، وفى الإفراد والتثنية والجمع، وفى التعريف والتنكير، وفى التذكير والتأنيث، وفى العلامة الإعرابية. ولها فوق كل أولئك نظام إعراب يحمل العلامة الإعرابية نصيبها من الدلالة على المعنى، مع العلم أنها عنصر لا يمكن عزله عن الكلمة عند محاولة التحليل على الطريقة التحويلية. وحتى لو صح عزلها فإنها لا تستقل بالمعنى، وإنما تتضافر مع غيرها فى سبيل أدائه. وفوق ذلك كله نجد فى العربية حرية للرتبة لا نظير لها فى الإنجليزية، ولحرية الرتبة فى رأيى صعوبة كبرى فى سبيل التحليل على الطريقة الحديثة.

وباختصار نجد اللغة العربية مثلًا أعلى فى المرونة والغنى بوسائل التعبير الصرفى عن أدق الخلجات والمعانى. إن التحويل الذى يجريه المعلمون إنما هو تحويل من بنية

سطحية إلى بنية سطحية أخرى. فهم يتركون التحويل من المعنى النحوى أو الدلالى إلى البنيات السطحية المناسبة له ليكون من عمل أصحاب البحث النظرى. وهذا التحويل من المعنى إلى المبانى الممكنة هو ألصق بدراسة الأساليب منه بدراسة النحو على أى حال. ومعنى هذا أن تحويلات المعلمين تتناول المبنى دون المعنى. فإذا علمنا أن تحليل اللغة العربية لا يتم بمعزل عن اعتبار المعنى حتى فى أدنى درجات التحليل أدركنا الصعوبة التى يصادفها تعميم هذا النوع من التحليل الحديث فى اللغة العربية ففى جملة: "الله يقضى بالحق"، نجد أن المفعول فى التحليل لا بد أن يعتبر من مكملات الفعل إلى الدرجة التى يلزم بها أن يطلق على عبارة "بالحق" أنها من مكملات الفعل إلى الدرجة التى يسوغ بها هذا التحليل، وأن يطلق على هذا العلم اسم "منهجية فعلية". ولا بد أن يرتبك هذا التحليل حين تمارس اللغة العربية حرية الرتبة فتصبح الجملة: "يقضى الله بالحق" أو "بالحق يقضى الله" لاختلاف ظل المعنى. ولا يرد ذلك على اللغة الإنجليزية؛ لأن الرتبة فيها غير حرة.

ويبدو اختلاف المعنى باختلاف العلاقات بسبب اختلاف الرتبة فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ على النحو التالى:

قالوا: "تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله".

١. "قالوا: تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله".

هنا تقوم علاقة البدلية بين الفعلين ويقتصر معنى مقول القول على ما بين العلامتين.

٢. قالوا: "تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله".

ما بعد "قالوا" كله مقول القول، فيكون "تقاسموا"، فعل أمر، أى فليقسم كل منا.

٣. "قالوا، تقاسموا بالله" المعنى قريب من الأول مع اتصال الجار والمجرور (بالله) بالفعل "تقاسموا".

وهكذا اختلف المعنى باختلاف علاقة الرتبة بين عناصر الجملة.

ومما يتصل بالتعليم الشرح والإيضاح والتمرين والاختبار. والشرح كما سبق وصف تعليمى، والوصف التعليمى لا يتأبى على المعيارية والقياس والتعليل والتأويل، كل ذلك من أجل الضبط والتوجيه. كما ينبغى لهذا الوصف أن يعتمد على إلقاء الضوء على الفروق بين الأنماط اللغوية التركيبية وعلى الطابع النظامى للغة كما رأينا منذ قليل، وأقصد بالنظام اللغوى أحد الأنظمة الثلاثة وهى النظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى، ولكل منها فروع قابلة للتفريع إلى أبواب ثم إلى مسائل.

قلت فيما سبق: إن الضبط والتوجيه من مطالب التعليم، وقد يكون الضبط والتوجيه فى صورة العبارة المعيارية، أو القاعدة القياسية، كما يكونان فى صورة استعمال الوسائل الإيضاحية السمعية والبصرية، ولعل أقل الوسائل نفقة وأكثرها نفعًا فى ضبط الموضوع وإحكام التوجيه إلى السليقة هو التعبير عن الأنظمة الفرعية الصغرى للغة (وأقصد تفريع المسائل التى فى داخل الأبواب) بكل ما تقدم من الوسائل، وليس أدعى للإحاطة بالقاعدة من أن تراها ماثلة أمامك فى صورة جدول يتابع العلاقات بين الأنماط فلا يثبت من المعلومات إلا ما كان منظومًا فى علاقات. أما وسائل الإيضاح الأخرى فلعل أحقها بالعناية الأشرطة السينمائية التى تشتمل على حوار باللغة الفصحى، التى تقدم للتلميذ الصواب والمناسبة فى وقت معا. وتخرج اللغة الفصحى من محبسها فى المكتبات وفصول الدراسة إلى فسحة الحياة النابضة فيقف التلميذ منها ولو لفترة واحدة من كل أسبوع موقفه الذى تهيأ له فى طفولته الأولى بالنسبة للغة المنشأ. ومن ثم يكون وصوله إلى استضمار السليقة أسرع وأكفأ. ولكن هذه الوسيلة باهظة التكاليف حين يكون لكل فرقة فى كل مدرسة نسختها منها. أما معامل اللغات فهى دون ذلك فى النفع؛ لأن مجرد الاستماع بغير رؤية إن أدى إلى الصواب فلن يعين على الوصول إلى المناسبة. أضف إلى ذلك أن العين أبلغ فى التعليم من الأذن.

وينبغى أن يكون للمعلم عناية كبرى بالتدريب والتمرين؛ لأن عرض القواعد بمفرده لا يؤدى إلى نتيجة إلا إجادة التعليل مع العجز عن صحة الأداء إذ لا يتأتى كسب المهارة فى الاستعمال إلا من خلال الممارسة. وما دامت اللغة الفصحى ليست لغة البيت ولا لغة السوق فإن الطريق الوحيد إلى الممارسة هو ما يشتمل عليه برنامج الدراسة من ساعات التدريب. فهناك دروس المحادثة، والإنشاء الكتابى، والمطالعة الجهرية أمام التلاميذ، ثم النشاط المدرسى فى صورة التمرين على المناظرة والخطابة والمحاضرة. كل ذلك من شأنه أن يعين على استضمار السليقة، وأن يكسر حاجز الخوف من صعوبة اللغة العربية التى اتهمت بها ظلمًا وعدوانًا.

كل ما هنالك أننا بحاجة إلى المعلم الواعى بدوره، والفخور بمهنته، والمتحمس لعمله لنصل إلى هذه الغاية، أما الاختبار والامتحان فينبغى أن نبعد بهما عن طابع الحفظ والاستشعار إلى طابع شحذ فاعلية التلميذ، والكشف عن مدى استضماره للسليقة. فلا ينبغى للامتحان أن ينصب على القواعد والأحكام، ولا ينبغى للأسئلة أن تكون لطلب الإجابة بنعم أو لا لتجنب حكم الصدفة فى التقييم. وإنما ينبغى لنا أن نطالب التلميذ بتعيين التركيب الصحيح وغير الصحيح، وأن يضبط بالشكل، وأن تكون العبارة مكونة من كلمات مبعثرة، وأن يملأ المسافات البيضاء فى السياق بكلمات مناسبة، وأن يحول العبارة من المفرد المذكر إلى غيره ويصف التغيير الذى تم، وغير ذلك من اختبارات السليقة لا الذاكرة.

وقد يسأل البعض فى تكوين البرنامج بأى الأبواب نبدأ؟ وكل إجابة عن هذا السؤال مهما كانت لا بد من أن تحمل عنصرًا من الصدق والصلاحية. ذلك بأن النحو نظام كما سبق أن ذكرنا، وكل نظام يصدق عليه أنه لا يُعرف جزؤه إلا إذا عُرِف كله. فمهما بدأت بالجزء الذى تظنه أولى أن يبدأ به فإن النتيجة هى هى، فلن نعلم النحو إلا بالنحو كله. ولا شك مع ذلك فى أن الناس مغرمون بالمفاضلة بين الاختيارات المختلفة، ومنها البدء أولًا بالتفريق بين أنواع الجمل فَيُقَسَّم الكلام إلى خبر وإنشاء، ثم يُقَسم الخبر إلى إثبات ونفى وتأكيد ثم يُقَسم الإنشاء إلى طلب وغير

طلب. ولكنى لا أدعو إلى مجابهة الطالب بهذا التقسيم المضبوط منذ البداية، وإنما أدعه أولًا يتعرف من النصوص على أنواع الجمل تحت العنوان لجذب "عنوان الأساليب"، ثم أدخل بعد ذلك فى تقسيم الكلم والتعرف على الأقسام ووظائفها من خلال الأمثلة والنصوص المختارة. فإذا فرغ التلميذ من معرفتها تقدم منها إلى مفهوم الجملتين الاسمية والفعلية، ثم الجملة الأصلية والجملة الفرعية ثم الاختيار بين أبواب النحو ما يشتمل على إسناد كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل ونائب الفاعل، ثم يكون الختام للبرامج بالمنصوبات والمجرورات والتوابع، ثم العبارات ذات الحذف الواجب كالاختصاص والمصدر النائب عن فعله، والتحذير والإغراء. أما الزمن فيدرس من خلال الأفعال، وأما الظواهر السياقية كالتوصل للنطق بالإسكان وكسرة التخلص من التقاء الساكنين، والوقف والإعلال والإبدال وهلم جرا. فكل ذلك يستنبط من سياق النص؛ لأنه لا يكون إلا فى السياق. وفلسفة هذا الاختيار كما تبدو واضحة هى الاتجاه من التركيب إلى التحليل على عكس اتجاه عمل الباحث تمامًا. بهذا كله يمكن أن نصل بالتلميذ إلى استضمار السليقة.